
فُسحة للجنون
رواية
سعد محمد رحيم
سطور
Arab_Books

سعد محمد رحيم

فُسحة للجنون



فُسحة للجنون

سعد محمد رحيم

A SPACE FOR MADNESS

Saad Mohammed Raheem

الطبعة الأولى: 2018

إصدار دار سطور للنشر والتوزيع
العراق ـ بغداد ـ شارع المتنبي ـ مدخل جديد حسن باشا
ص.ب 74090
الرمز البريدي 12114
email: bal - alame@yahoo.com هاتف: 07711002790 - 07700492576

First Published by Dar Sotour For Publishing and Distribution
Baghdad - Iraq - Al Mutnabi street - Jadeed Hasan Basha Entry

ISBN: 978 - 1 - 77322 - 421 - 3

رواية

سعد محمد رحيم

فُسحة للجنون



بعد قصف البلدة (س) بالمدفعية الثقيلة

ليس... أوّل هواء الخريف..

ليس... أوّل غبار أيلول..

وليس الراقد، في ذلك النعش المار فوق سيارة مسرعة، وسط هرج الناس، أوّل القتلى. وبالتأكيد، لسنا نتوهّم أنه الأخير.

لعلّه أوّل أيام زمنٍ عصيب ستتقلّبُ فيه الأحوال.. لعلّه أوّل نُذرُ هَوْلٍ لا ندري إنْ كان أيٌّ منّا عارفاً بعقابيله. لكننا سنكتشف لاحقاً أن (حكّو)، وإلى حدٍّ بعيد، كان يعرف.

البلدة في عجلة من أمرها. ترحل بأشيائها وناسها. بأحلامها وأوهامها. بحزنها وحسرتها. بقلقها. برعبها. بما تعدّه ثميناً له قيمة ما ولا يجب التخلّي عنه. بما تراه مقدّساً. بما تحسبه قد يُعينها، هناك، في المرتقب والمجهول. بما تستطيع أن تحمل وتصطحب في مشهد الهرب الكبير. بما يسمح به الوقت. بما تستدعيه النباهة المثلومة في خضّم دويِّ القنابل التي تقترب حيناً، وحيناً تبتعد. وبذا لن يبقى سوى القمامة، سوى ما يعجزون عن أخذه، سوى جثة البلدة الباردة يمثِّل بها مخلب الحرب.

وحده حكمت يقف محتجّاً مثل نبيّ أعزل.. روحه مضطربة،

وكلماته تتلاحق سريعة مبتورة، يلقيها مع رذاذ بصاقه المتطاير في وجوه المنهمكين في جمع أغراضهم، العازمين على الرحيل. لذا لا أحد يأبه له وهو يصيح:

«ليس من حقكم، ليس.. ليس من حقكم.. تتركونني وحدي، ليس.. ليس من حقكم».

يتنقل بين الأزقة والدروب كحيوانٍ يشعر بزلزالٍ وشيك. يركض بقميصه الأخضر الممزّق والمتّسخ، وبنطاله البالي الكامد اللون، المفتوح السحّاب، والمشقوق عند الركبة.

يسرع بقدمين حافيتين نحو المستوصف الصحّي وفي باله أن يجد الدكتور راسم ويكلِّمه.. المكان خالٍ، وباب المستوصف مغلق.. يرجع إلى حيث الناس. كأنهم بتزاحمهم وهلعهم في يوم الحشر العظيم. يضرب بقبضته على أبدان سيارات البيك آب، واللوريات المتوسطة والكبيرة الحجم، وهو يوشك على البكاء. لكن الدموع تتمنّع، تتحجّر في عينيه.. يرفع يديه ناظراً إلى السماء، ثم يسقطهما على جنبيه.. يلهث ويشتم.

يقول للحاج مرتضى:

«أنتم تخونون.. الملح.. تخونون الممم... ملح».

فيردّ عليه الحاج بصوته الأخنّ العالي:

«أنت لا تدري معنى ما تقول يا حكمت؟. أيّ ملح وأيّ بطيخ؟».

«بلى.. تخوووونون.. خيااااانة».

«إنها الحرب والموت.. من الجنون أن نبقى. سنعود حالما تنتهي».

«وإنْ.. لم.. لم تنتهِ؟».

«كل شيء إلى انتهاء».

«العمر ينتهي.. أعما... رنا.. يا خالي الحاج».

بنفاد صبرٍ، وغضب مكتوم، يردّ الحاج:

«لماذا لا تأتي أنت معنا؟. لماذا ترغب بالبقاء؟».

بصوت متهدِّج حاد، يجعل ملامح الحاج تتقبّض، يهمس بعدما انتظمت أنفاسه:

«أخاف من أيِّ مكان آخر».

«لسنا ذاهبين إلى جهنّم».

«أنت لا تفهم.. أدمغتكم حجاااارة لا تفهم».

يهزّ الحاج رأسه بإشفاق، ويلتفت إلى حسن ابنه البكر:

«أكلُّ شيء على ما يرام؟».

«نعم».

«لا تنس الأوراق الرسمية».

«إنها في الحقيبة الصغيرة».

«وأين أوراق حكمت؟».

«وضعتها في غرفته، في صندوق ملابسه».

«كما سمعت حكمت.. قد تحتاج إليها».

«لا أحتاج إلى شيء».

استدار حكمت وراح يجري.

سقطت على البلدة طوال الليلة الفائتة ثمان وثلاثون قذيفة مدفع حسب ما يقول صلاح الابن الآخر للحاج مرتضى: «حسبتها واحدة واحدة». أو أكثر من مئة قذيفة على ذمة وكالة الأنباء العراقية. هذه القذائف هدّمت، أو ألحقت أذىً بثلاثة عشر منزلاً، وقتلت شاباً وامرأة وطفلين وحماراً وبقرة. وجرحت تسعة آخرين من البشر وخمسة حيوانات؛ (خمسة أغنام سارع أصحابها إلى ذبحها على وفق الطريقة الشرعية قبل أن تموت ويُحرم لحمها، والشيخ فتح الله يصيح؛ تجنّبوا النطيحة والمتردّية، فهما حرامٌ حرام). وأحرقت ما لم يحصه أحد من أشجار النخيل والحمضيات والتوت والتين والرمان والعنب والسدر، الخ، الخ..

في طريقه التقى حكمت بإسماعيل المضمّد:

«أنت بالذات عليك ألاّ تذهب».

«لا خيار أمامنا يا حكمت، سنفطس إن بقينا هنا».

«ألستم تقولون دوماً: الأعمار بيد الله؟».

«ولا تلقوا بأنفسكم إلى التهلكة».

«تلوونها بحسب ما تشتَهون».

«عليك أن تخرج من البلدة، لن يبقى هنا غيرك، وأنت بحاجة إلى إبرة مهدّئة واحدة في كل شهر على الأقل».

«لا أريد إبرتك القَذرة».

ركض حكمت خلف سيارة (السافيم) ذات حمولة الطنّين المنطلقة لتوها. وراح يلوِّح بكلتا يديه حين تهيأ له أن كميلة ابنة الحاج مرتضى لوحت له خفية بأصابعها.. كميلة بعينيها اللوزيتين واستدارة وجهها، الجالسة في الحوض المكشوف، مع شقيقتيها الصغيرتين، فوق الأغراض ظلّت شاخصة النظر بحكمت. واستمر حكمت يركض ملاحقاً السيارة ودموعه الآخذة بالتدفق تخلِّفُ غشاوة على عينيه. وحالما مسحهما بسمّانة راحته فوجئ بسيارة الحمل (سافيم) قد اختفت بين سيارات الأهالي الراحلة، والسيارات العسكرية الآيبة.. لا يدري إنْ كانت دموعه تنهمل بفعل ذرّات التراب، أو بسبب الجزع الناشب فيه.

الآن دخل حكمت في الغبار والضجيج. صار مقطعاً اعتباطياً من مشهد الفوضى. وكاد يعثر ويطيح على الأرض الساخنة. ثمّ لمّا بدأت أعضاؤه الهشّة تخذله ارتكن وهو يلهث إلى جذع نخلة في الجوار. وجلس لا في موضع الظل، رافعاً رأسه إلى الشمس التي لم تكن قد استشرستْ بعد. وجفّف دموعَه هواءُ ما قبل ساعة الضحى.. استلَّ من جيبه زجاجة الربع من عرق (هبهب) وكرع حد احتراق بلعومه. ومن ثمّ أخذ يصدر أنيناً خافتاً حتى تطامن العالم من حوله، أو صار بعيداً جداً عنه. بعيداً عن كل ما يمتُّ بصلة إلى أمسه وذاكرته.

ابتعد حكمت، أو ولج عميقاً في ذاته. هو وضعٌ أقرب ما يكون إلى الغيبوبة، وعلى مسافة ملتبسة من الموت.

استشعرت مجسّاته دبيب كائنات غريبة تتحرّك حوله. فتح عينيه. رآهم في غلالة من ضبابٍ أحمر. كانوا ثلة من الجنود أحاطوا به. خُيّل إليه أنهم في مشهدهم الرجراج هذا ليسوا سوى كائنات سرابية. دعك عينيه. ميّزهم؛ كلٌّ يحمل معولاً أو مجرفة، ويعلّق بندقيته (الكلاشنكوف) على كتفه، وعلى صفحة ردفه تتدلى جعبة عتاده.. تناهى لحكمت صوتٌ كأنه آتٍ من بُعدٍ غير معقول:

«إنه مخبول».

قال:

«أمّك المخبولة».

علا صخبُ ضحك. والجندي الذي تورّط بالكلام أصبح في مرمى سخرية الجنود الآخرين. وسمع أحدهم يخاطب رفيقه كما من أغوار كهفٍ عميق:

«لماذا لا تزوِّج أمّك المخبولة منه؟».

التفت حكمت نحو صاحب الاقتراح، أو من ظنّه هو، وقال:

«أفضّل أمّك».

انفجرت القهقهات مرّة أخرى. وتوالت التعليقات.

جاء عسكري على ساعده أربعة خطوط سود متوازية، وصاح:

«دعوه... قفوا في صفّين».

اصطف الجنود في صفّين.

«ثابت.. إلى اليسار دُر.. إلى الأمام عادةً.. سر. يس يم، يس يم، يس
يم».

بدوا له، وهم يبتعدون، مثل سرب من الإوز، يمشي على أرض
صحراءٍ لا نهاية لها.

تناءى الدبيب، وغشاه هدوء، فيما العالم المرئي الشاحب يتفكك
أمام ناظريه إلى عدد هائل من الشظايا، تدور كما في مشكال. مرّت
في خاطره، في فجوة من الصداع الذي يمسك برأسه، صورة تلويحة
كميلة.. التلويحة تجلّت له الآن أوضحَ وأطولَ وأرشق، مع ابتسامة لم
يسعه تكذيبها.. تماهت الابتسامة مع التماعة مماثلة لوجهٍ أليف غير وجه
كميلة، وجه آخر؛ توأم أو شبيه، ومضتْ قسماته كما اختلاجة برق في
أفق غائر ومنسي من ذهنه. غمره لوهلة شروق ساحر فأخرج قنينة ربع
العرق وارتشف قليلاً. ارتشف ثانية وثالثة وهمس:

«كميلة، قفي موديلاً، سأرسمكِ..».

لدقائق استغرقته الصورة، وتولّته غبطة موشّحة بظلٍّ أسىً، قبل أن
يُلاشيها عويل مباغت صارخ.. طائرة محلِّقة على انخفاض اخترقت
حاجز الصوت، لاحقتها فرقعة آلاف الرصاصات وهي تطيش في
السماء العريضة.

الأصوات هذه أيقظته. أعادته ثانية إلى حاضنة اللحظة؛ اللحظة

الحاضرة، الزلقة، المهلوسة، فغاب كما في ظلمة نفق طويل. ربما غفا قليلاً. وحين استفاق، كما لو أن شخصاً نغزه في خاصرته، انتفض واقفاً.. اتّخذ وضع الاستعداد؛ إلى الأمام يا حكّو عادةً... سرْ. يس يم، يس يم، يس يم.. عيناه محتقنتان، وجهه ضامر، ولحيته شعثاء خشنة، والعروق على رقبته نافرة.

مشى على حافة الشارع مقوِّساً جذعه إلى الوراء، ومبرِّزاً بطنه الصغير إلى الأمام بدلاً من صدره. غير مهتمّ بسخونة الأرض التي تلهب باطن قدميه، ولا بالأحجار الصغيرة التي تجرحهما.. يس يم، يس يم، يس يم.. يمشي مئة متر أو أكثر قليلاً، أو أقل، باتجاه الخروج من البلدة، تمرُّ به آخر سيارات السكّان الهاربين قبل أن يعود؛ يس يم، يس يم، يس يم. مشيته عسكرية متكلِّفة. يرفع يديه الممدودتين المتصلبتين بقبضتيهما المضمومتين معاً، أعلى من مستوى رأسه، ويخفِّضهما بقوة. الزبد عند طرف فمه. خطواته سريعة وقصيرة على الرغم من طول ساقيه.. يعود وفي محاذاته تسير مركبات الجيش. يهتف له الجنود ويقهقهون.

قذفه أحدهم ببرتقالة متعفنة أخطأته.. قذفه آخر بصمّونة عسكرية يابسة أصابته في كتفه، أشعرته بالوجع.. وقف وقد تقلّصت ملامحه، وقال، وقطعاً لم يسمعه الجنود الجالسون في أحواض المركبات الداخلة إلى البلدة، وهم يصيحون به: «هوووووووو» ويقهقهون:

«أيها الحمقى، أستضحكون غداً؟».

حرارة الشمس ألهبت جلد رأسه ونفذت إلى يافوخه. إنها الظهيرة إذاً. وشعر بالجوع، وتوجّه حالاً إلى جماعة من الجنود تحلّقوا، بعد

أن انتهوا من حفر المواضع الشقيّة، حول قصعة الطعام.. ناداه صاحب الرتبة العسكرية الأعلى بينهم، نائب العريف ذو الأنف الطويل والأسنان البارزة:

«تفضّل».

هزّ رأسه رافضاً.. ناوله آخر صمّونة عسكرية، أخذها، شقّها بأصابعه وأخرج أحشاءها اللينة ورماها في فمه وراح يلوكها، وناول الصمّونة المفتوحة للجندي.

«خلِّ فيها تمّن ومرق».

كان جلد الصمّونة قاسياً تحت أسنانه وقد نُخر بعضها، غير أنه ظلَّ يقضم شطيرته، وأخيراً اكتفى بالحشو من التمّن ومرق الفاصولياء اليابسة، ازدرده وطلب ماءً. صبّ له الجندي ماءً فاتراً من زمزميته في قدح بلاستك (لبن آب) فارغ.. شربه وغرغر بكلام لم يفهم منه الجندي كلمة واحدة فضحك.

«ليش تضحك؟».

«العفو»

جال في الأنحاء، بين قطعات الجيش، في الخلاء المحيط بالبلدة، كأنه لا يريد دخولها وقد أوشكت أن تمسي خاوية. كانت الساعة هي الثانية بعد الظهر، أو ربما قبل ذلك. جاء إلى النخلة الوحيدة في هذا المكان، تلك التي غفا قليلاً مستنداً إلى جذعها ساعة الضحى. لمح في مهب الريح غرابين يلوذان من القيظ بالسعف، حيث تتهدل بقايا عثوق

تمر من فصيلة الزهدي. وبعد سكون ران مثلما في مقبرة قديمة أقبلت عشرات الشاحنات وأحاطت به. وساعة بعد أخرى أنزلت دبابات من نوعT55و T62 وناقلات جنود مجنزرة من نوع BMB1 راحت تنهب السهل المحروث من أجل موسم القمح.. حيّاه من فوق هذه الكائنات المعدنية الضخمة جنود أكثر تهذيباً من أولئك المشاة الأشقياء النزقين الذين ملأوا الأرجاء منذ الصباح الباكر. وألفى نفسه يستحمّ بالغبار وفكّر أنه سينزل بملابسه كلها في النهر غير أنه كان واهن العضلات، لا يقوى على اجتياز مسافة الألفي متر إلى هناك. وسمع دويّ انفجارات بعيدة.

قدماه ممدودتان، وظهره ملتصق بجذع النخلة، ويداه في حجره وقد شملته سحابة من الوحشة والغرابة، فتحدّر على لحيته السوداء الخشنة المتّسخة التي يتخللها بعض من الشعرات البيض خيطٌ من الدمع، ولم يدرك أنه يبكي. واستمر منكفئاً في وحدته المكتومة، لا يعنيه ما يجري خارج بدنه.. ألفى نفسه في إهاب غامض.. خطر له أنه في غير مكانه، في غير زمانه. كأن فاصلة من ألف سنة ضوئية تغرِّبه عن البارحة، وعن البلدة التي لن تكون مرّة أخرى مثلما كانت. كأن الدبابات والناقلات المصفّحة هبطت من كوكب آخر.. كأن بلدته القديمة غارت إلى جزء منسي من ذاكرة خربة.. كأنه خرج، في اللحظة هذه، من غيبوبةٍ أو حلمٍ مكفهر.. كأنه طائر لقلق فقد سربه واتجاهه وضلَّ فوق فلاةٍ لا تُحد.

التقط عوداً صلباً مدبباً كان مرمياً على مقربة من النخلة. خطَّ به على الأرض نصف دائرة. وفي موازاة القطر الافتراضي المقطوع رسم ستة خطوط مستقيمة، وقال: دبابة. وفوق نصف الدائرة وضع دائرة صغيرة، وقال: جندي. وأبرز من نصف الدائرة ما يشبه الأنبوب بانحناءة لا تكاد

تُلحظ، وردّد: بم بم بم بم بم.. ضحك. أرجع رأسه إلى الوراء وضحك عالياً حتى ارتطمت مؤخرة رأسه بجذع النخلة. حكّها بالعود الذي في يده.. رمى العود وأهال حفنة تراب على ما رسم، وقال: «احترقت».

أغلق إحدى عينيه وركّز نظره بالثانية على زجاجة ربع العرق. ثم خضَّ الزجاجة قرب أذنه. قال: «جرعة واحدة باقية».

همس كأنه يخاطب شبحاً: «ماذا لو لم يبق عرقٌ في العالم؟». وما كان في الزجاجة عبّه في جوفه دفعة واحدة. وأعاد الزجاجة إلى جيب بنطاله.

مسّد لحيته، وتنبّه أنه في الشمس، والظلُّ قد ابتعد مسافة قدم منه، بيد أنه لم يتحرّك. بعد دقيقة لوى جسمه واضطجع وأراح رأسه فوق ذراعه.. الرأس في الظل، وبقية الجسم في الشمس الحارقة. وظنَّ أنه نام، لكن، بعد لا يدري كم من الوقت، أيقظته قذيفة مدفع سقطت في الخلاء مصدرة دويّاً مهولاً.. سمع رفيف الشظايا.. استقرت شظيّة في الجزء الأعلى من جذع النخلة. قال له جندي عابر كان قد استلقى على بطنه عند الانفجار، وقام الآن ينفض التراب عن بدلته: «عليك أن تحفر موضعاً شقّياً ليحميك عند القصف». قال: «والموضع هذا، أيها الذكي، كيف أحمله معي وأنا أتنقل». ابتسم الجندي.. سأل هو: «ألديك سيجارة؟». ناوله الجندي سيجارة وأشعلها له بعود ثقاب.

«مارلبورو، أجل... أفضِّل الروثمن اسبيشل».

ردّ الجندي متهكماً:

«يعوزك أيضاً زجاجة ويسكي بلاك أند وايت».

«عرق (هبهب) أحسن».

انشرحت أسارير الجندي وقرفص بالقرب منه في مسيل ظلّ النخلة وراح يدخن.

«ماذا تفعل هنا؟».

سحب نَفَساً عميقاً من سيجارته وزفر الدخان:

«هذه بلدتي. أنت ماذا تفعل هنا؟».

«أنا جندي.. إنها الحرب».

«حرب، أجل، حرب، مع من، ولماذا؟».

«مع جارتنا، أما لماذا فمن يدري؟».

«منو المخبّل، آني لو انتو؟».

«هششششششش. إذا سمعوك سيسلخون جلدك ويعطونه للدباغ».

«ليش؟».

«لأنك تسأل كثيراً؟».

«هل عليك ألاّ تسأل؟».

«أنا لا أسأل».

«وإن متَّ، أقصد في الحرب؟».

«سيعدّونني شهيداً».

دخّن ما تبقى من سيجارته بأنفاسٍ سريعة كأنه على عجلة من أمره. ورمى العقب بعيداً.

«ما معنى شهيداً؟ أقصد ما الفرق بين الشهيد وغير الشهيد؟. أنت فطيسة في الحالتين».

قام الجندي:

«أنت ورطة، مصيبة.. سأذهب الآن».

«اعطني سيجارة أخرى».

«مارلبورو».

«ولو، أفضّل سومر».

وضحكا.. ناوله الجندي سيجارتين وعلبة الثقاب وابتعد فيما قهقهات حكمت تلاحقه.

قبل الغروب مشى حكمت باتجاه البساتين المترامية في الجهة الأخرى من البلدة. غمرته رائحتها الرطبة الثقيلة فوقف ثمة يستنشقها بقوة وتصميم.. سار بمحاذاة الأسيجة، في شبه العتمة، ولم يلتق بأحد على الرغم من أنه كان يسمع اللغط البعيد للجنود وهدير الآليات. لعلّهم انتشروا بين الأشجار.. غير أنه لم يصادف أحداً من أهل البلدة: «هل غادروا كلهم؟». مرقت جمهرة من الكلاب اللاهثة واجتازته، لا تلوي على شيء. كأنها خائفة من أمرٍ ما. أحسَّ بأنفاسها الحارّة لجزء من الثانية، وبملمس جذعٍ واحد منها على ساقه. ثم شاهد عدداً من الحمير غير المكترثة.. كان حمارٌ فتي يراود أتاناً عن نفسها، يحكُّ رأسه برأسها ويعضُّ رقبتها.. رغب أن يرى المشهد.. الأتان أكبر من الذكر سنّاً، يستدير الذكر ساعياً للقفز على مؤخرتها.. عضوه الضخم ينتعض

ويرتعش.. الأتان تتحاشاه بعناد غريب، وبعد محاولات نصف مخفقة يقذف الحمار الفتي منيه على الأرض مكوِّناً بقعاً حليبية رطبة ساخنة.

«غبي. حمار. غبي».

قال وعاود السير. انعطف عند درب جانبي فألفى نفسه على الطريق الذي سيفضي بعد عدد من الاستدارات إلى غرفته. فيما دنو المساء يخنقه بالكآبة، يخلِّفُ في روحه الرماد، فتنكمش خطوط وجهه ويعصره الألم. ماذا لو أن الجميع هربوا؟. ماذا إذا رحل الجنود أيضاً، وتركوه وحده؟. من يتبقى له؟. ممن سيأخذ الطعام والسجائر والنقود؟.

فوجئ برجل يناديه من مدخل زقاق معتم:

«حكّو، لِمَ لم تذهب معهم؟».

انشرحت أساريره.

«لمْ تذهبْ إذاً.. أنا قلت: هناك من لن يذهب.. عادل العصفور لن يذهب».

وشرع يصفق.. قال عادل العصفور:

«لكننا سنرحل غداً يا حكمت.. اليوم لم أحصل على سيّارة. بقيتْ عدة عائلات. سنغادر غداً، جميعنا. عليك أنت....».

زفر بحرقة وقد عاودته خيبة الأمل:

«عليّ أن أبقى».

«البلدة حدودية وخطرة. نحن في خاصرتهم والحرب معهم بدأت. وهذه البلدة سيبيدونها الليلة أو ليلة غد بالمدافع، والله يستر».

«ألن يبقى أحد؟».

«أخشى أن لا أحد غيرك يا حكمت. عليك أنت الآخر أن تأتي معنا، سندبِّر لك مكاناً في اللوري».

«لا».

«اسمع.. ربما سقطت البلدة بأيديهم، عندها سيقتلونك أو يأخذونك أسيراً. البلدة موجودة كلها بناسها في المخيّم.. الجيش عمل لنا مخيّماً قرب البلدة (ك).. ناسُكَ هناك».

«والأشجار.. النهر.. البساتين.. والحمير والقطط والكلاب وبنات آوى والثعالب والطيور.. هل ستأخذونها معكم؟. ستتركونها، أكيد.. من سيبقى من أجلها... أنا سأبقى».

«سنعود يا حكّو، سنعود».

«إذن سأنتظركم».

وأسرع الخطو نحو كوخه/ غرفته.

أيام اللصوص

غرفة حكمت كوخٌ عتيق يقبع متفرداً، قريباً من دار الحاج مرتضى ذات الطابقين، على طرف دالية صغيرة ملحقة بالدار. أسكنه فيه الحاج لمّا قدم إلى البلدة قبل سنتين حال خروجه من المعتقل. بالأحرى من (الشمّاعية).. سنة وثلاثة شهور في المعتقل وشهران إضافيان في مستشفى الأمراض العقلية.. هو من أقرباء الحاج الأبعدين من جهة الأم. وربما لهذا السبب يناديه حكمت بـ(خالي الحاج).. عرفه الحاج حالما رآه.. لم يخبر أحداً بصلة القرابة هذه خوفاً من رجال الأمن والحزب والقيل والقال.. ومن يجزم، فلعلّ حكمت، نفسه، لم يتذكّره؟. حكمت، أو هو عامر الذي أتلفوا ذاكرته ودماغه في شعبة الاستخبارات. ولم تشفه، بعدئذٍ، علاجات مستشفى الشمّاعية، حتى سرّحوه من هناك، ذات ظهيرة، بناءً على طلب السلطات المختصّة، تاركين إياه لمصيره.

مع خروجه من المستشفى، أعطته مضمِّدة طيّبة القلب، وصادف ذلك يوم إحالتها على التقاعد لبلوغها السنّ القانونية، دينارين، وأوصته أن يذهب إلى أهله في المدينة (ع)، غير أنه قصد كراج النهضة، ليستقلّ منه حافلة وجهتها البلدة (ب).. نزل في البلدة (ب) ومشى على قدميه طوال ساعات باتجاه البلدة (س) مثل مسرنم، أو مثل آلةٍ تحكّموا بها عن بعد.

لم يفهم الحاج مرتضى منه أبداً، على الرغم من محاولاته في استنطاقه، إن كان يعي وضعه وأنه جاء بمحض اختياره، أو أنها المصادفات العجيبة التي انتهت به هنا، في هذا المكان النائي، على حدود دولة جارة (دخلنا معها حرباً لتوِّنا).

سأله الحاج مرتضى لمّا وقعت عليه عيناه في ذلك النهار يتسكع في طرقات البلدة وبين مقاهيها وأطراف سوقها: «ها عامر، ماذا تفعل هنا؟». قال: «لست عامراً، أنا حكمت». قال الحاج: «نعم، حكمت، حكمت أفضل. ليكن اسمك حكمت، هنا». وعُرف بين السكّان باسمه هذا، أو بالاسم الآخر الساخر المشتق منه؛ (حكّو)، والذي يناديه به الأطفال والمراهقون في الغالب، وأيضاً بعض الرجال والنساء الذين يتّخذون منه موضوعاً للتسلية والهزء. أسكنه الحاج هذه الغرفة وأعطاه بعض ما يحتاجه.

فوجئ الحاج مرتضى ذات نهار قائظ بمفرزة من انضباط الجيش يلقون القبض على حكمت لأنه لا يحمل بطاقة هوية. حدث هذا بعد وصوله إلى البلدة بأسابيع قليلة.. ربما وشى به أحد أعضاء الحزب. وكان على الحاج أن يتصل بأهله في المدينة (ع)، جنوب بغداد، ويأتي بأوراقه.. وأن يرتِّبَ، مستنداً إلى علاقة مصالح تجارية مع متنفذٍ في السلطة، وبسرّية تامة، أمر إحالة حكمت إلى لجنة طبيّة متخصِّصة، قرّرت بأنه غير مؤهل للخدمة العسكرية بسبب فقدانه لقواه العقلية.. ومنذ ذلك اليوم احتفظ الحاج، لمواجهة أي طارئ، بدفتر الخدمة العسكرية، وبهوية الأحوال المدنية، الخاصّين بعامر، الذي غدا اسمه بين الخاصّة والعامّة في هذه البلدة؛ حكمت.

ظنّوه في البلدة منبتّاً ليس له جذر عائلي معروف.. ولم يفطن أحد إلى زيارة أخته علياء لدار الحاج مرتضى مرّتين.. كان ذلك قبل اندلاع الحرب ونزوح السكّان.. في المرّة الأولى بعد أن استدرجه الحاج إلى صالة بيته وجد امرأة تلبس السواد يعلو وجهها الوجوم تشهق باسم عامر وتهمُّ بمعانقته.. لم يدعها تحضنه لأن ملابسه كانت قذرة كالمعتاد. أو لعلّه لم يستسغ أن تحضنه امرأة لا يعرفها.. جلس قريباً من باب الصالة وكأنه يفكِّر بالهرب، وجلست هي إلى جانبه.. ظلَّ محني الرأس، واضعاً كفّيه بين ركبتيه.. لم يفه بحرف واحد، فيما استمرت أخته تحكي وتبكي.. بدا كما لو أنه لا يسمعها.. كأنه ليس المعنيّ بكلامها.. بعد ساعة قام وخرج من غير أن يودِّعها، أو ينظر إلى وجهها.. اتّجه نحو غرفته ليلوذ بها، قافلاً إياها بالترباس من الداخل، ولم يخرج إلا في اليوم التالي بعد أن شرب قنينة عرق كاملة، وبعد أن غادرت هي، وروحها مترعة بالمرارة والقهر.. في زيارتها الثانية لم يقابلها.. لم تره.. فبعد أن دعاه الحاج مرتضى إلى بيته ونطق باسمها ركض واختفى في البساتين يومين كاملين، على الرغم من أنه كان موسم برد ومطر. وحين التقاه الحاج بعد ذلك وعاتبه لأنه لم يبالِ بمقابلة أخته التي قطعت مئات الكيلو مترات لتقابله وتطمئن عليه، لم يقل سوى: «لا شيء بعد كلمة النهاية». ولم يدرك الحاج مغزى هذه العبارة سوى أنه فسرّها بعدِّها دالة عُتهٍ لا شفاء منه.

***

دخل حكمت غرفته حينَ بثّت العتمة أنفاسها على ما حوله.. دفع بابها الخشبي العتيق فعلا صرير اعتادته أذناه.. لم يُنر المصباح لمّا أنزل لسان مفتاحه الأسود.. مشى نحو الزاوية حيث يضع الفانوس.. يكاد

زيته ينفد.. ملأ خزّانه الصغير بالزيت من قنينة زجاجية، وأشعله بعود ثقاب. انتشر ضوء باهت.. فكّر؛ لا كهرباء بعد اليوم، وإذاً كيف سيدبِّر أمر الزيت؟، تساءل. «ربما عثرتُ على شيء منه في البيوت المتروكة».

على الحائط صورٌ مقتطعة من مجلات وصحف، مثبّتة بالصمغ بلا انتظام. كلُّها للوحات تشكيلية لفنانين عالميين ومحليين. مجلات وصحف يجدها مرمية في المزابل، أو يأخذها من الدكتور راسم صديقه القديم كلما زاره في مستشفى البلدة أو بعيادته في البلدة (ب).. يضع المجلات والصحف في الكيس ذاته الذي يضع فيه قناني عرق (هبهب)، وعلب سجائر (سومر).. يقصُّ اللوحات المطبوعة فيها بمقص كبير اشتراه لهذا الغرض. وأحياناً لا يقرأ التعليقات التي كُتبت عليها أو تحتها، على الرغم من احتفاظه بالقدرة على القراءة.

في الزاوية الأخرى صندوق ملابس كبير من المعدن، لا قفل له، مركون على كوميدينو خشبي صغير.. في الجهة المقابلة فراشه على سرير حديدي صدئ؛ دوشك من الإسفنج وبطانية قديمة (علامة فتّاح باشا) ومخدّة لم يُغسل وجهها الكالح منذ شهور.. قرب الباب قدح من البلاستك في قعره ثفل شاي، وصحن معدني فيه بقايا طعام.. الطعام يجلبه من بيت الحاج مرتضى والشاي يصنعه بقوري من الألمونيوم؛ مسود ومطعّج، على نار يشعلها أمام الباب من أعواد الحطب.

استلقى على الدوشك ووجهه إلى الأعلى.. تأمّل في خطوط الحصير الذي يغطي السقف.. في آلاف الخطوط المنحنية والمستقيمة، المتقاطعة بحدّة أو بسلاسة. المضيئة أو الغارقة في الظلمة.. في الخيوط

السائبة المدلاة.. وكما هو عهده في كل مساء حاول أن يشكِّل منها مشاهده الأثيرة، غير أنه أخفق في هذه المرّة. هذه ليلة لا تشبه سواها، وانتابه شعور بالوحدة والهجران.. قام واحتسى جرعة كبيرة من زجاجة نصف عرق كانت مخفية في الصندوق.

ضيّق ما بين عينيه وانكمشت ملامحه.. الجرعة كانت حارقة، وضغط بيده على بطنه.. أخذ مصباحه اليدوي الصغير وغادر غرفته.. كان الليل قد هبط.. بزغ قمر بنور هادئ رائق، وتلألأت في السماء القصيّة النجوم.. شعر بشيء من الغثيان.. قفز من السياج الطينيّ الواطئ إلى الدالية، اجتاز في نور القمر الشاحب أمامه الدرب ما بين أشجار الرمان والبرتقال والنخيل.. اصطدم بأغصان نافرة. ووخز جلد ساعده شوكة من شجرة رمّان مثقلة بالثمر.. آلمه الوخز لكنه لم يوقفه.. وكهرٍّ خبير عبر أسيجة بساتين متجاورة، صغيرة وكبيرة.. صار قبالة سياجٍ أخير، كان أكثر علواً من ذاك الذي في الجهة الأمامية. تسلّق جذع شجرة تين وارفة بمحاذاة السياج، واحتضن حافته العليا.. طفر إلى الجانب الآخر فانكبّ على وجهه وخشي أن تكون قدمه قد التوت، بيدَ أنه سرعان ما قام. وعرف أنه لم يتأذ.. طالعه، على مبعدة، ماء النهر الفضي الجاري.. حاصرته أصوات الحشرات، هسيس وأزيز وصرار، وأيضاً عواء بنات آوى جائعة تأتي من عمق البساتين.. نزع قميصه وبنطاله قاذفاً جسده العاري في النهر.. برودة الماء لاذعة غير أنه لم يكترث، وراح يسبح.. اختفى تحت الماء قبل أن يُبرِز رأسه، وانزلق مسافة عشرين متراً ثم عاد.. أحسّ كما لو أنه جزء من كينونة النهر. كأنه كائنٌ عاش حياته في الماء ولم يخرج منه في أي يوم. نصف ساعة أو أكثر أمضاها في السباحة.

وكان خارجاً لتوِّه والقطرات تتساقط من لحيته وشعره وبقيّة جسمه لمّا انفجرت قذيفة مدفع على مسافة لم يدرك قدرها وتطايرت الشظايا.. لم يتحرك في البدء. بعد ذلك جلس وما زال عاريا. وسقطت قذيفة أخرى أبعد من الأولى. ارتدى ثيابه وخطا على مهل بموازاة النهر. كان بإمكانه رؤية دربه تحت القمر الساطع. رغب أن يستدير حول قوس البساتين، لا أن يجتاز أسيجتها ويعبرها مباشرةً نحو غرفته. بعد مسافة قصيرة فاجأه صوت صارخ:

«قف».

ورأى ماسورة بندقية مصوّبة نحوه:

«سرّ الليل».

لم يحر جواباً..

«سرّ الليل».

«..... أمّك».

ومشى باتجاه الماسورة.. أطلق الجندي النار في الهواء. وسمع أحدهم يقول:

«لا تطلق النار، هذا حكّو المخبول.. تغدى معنا اليوم».

شقّ حكمت طريقه بين جنود تجمّعوا على أثر الإطلاقة وقال:

«المخبول من يخاف من حكّو».

ضحكوا.. ناداه أحدهم.. التفت.. رأى جنديّاً يمدُّ له يده بصمّونة عسكرية، قال إنها محشوّة بلحم روست.. أخذها.. صاح به جنديٌّ آخر بتهكم:

«تعال قبل الغروب كل يوم لتأخذ سرّ الليل».

«لا حاجة لي به.. أخبرتني به أمّك».

ضحكوا ثانية.. وكان صخبهم وضحكهم يتلاشى شيئاً فشيئاً في أذنيّ حكمت الذي انعطف الآن يميناً، وخطا نحو كوخه ليأكل طعامه ويكرع بقيّة زجاجة العرق قبل أن ينام.

غفا.. لا يعلم إنْ كان بضع دقائق أو عدة ساعات.. نهض برأس مشوّش قليلاً وشرب كأس ماء فاتر، كان طعمه مرّاً في فمه. وعاد لينام ثانية غير أن عينيه ظلّتا مفتوحتين. هذا هو نوع الأرق الذي يعرف سطوته جيداً حين يداهمه. ويعرف أنه لا فائدة من محاولته قهر تلك السطوة، فقرّر الخروج.

كان نور القمر الذي تحدّر الآن يمنح الموجودات حضوراً أنيساً.. كانت وجهته في هذه المرّة سوق البلدة الواقعة على بعد مئتي متر من غرفته.. وقف تحت عمود كهرباء وتبوّل.. رفع رأسه ناظراً إلى الأعلى حيث المصباح الكبير المطفأ.. قال وكما لو أنه يشكو للعمود: «هذه البلدة المنحوسة، صعقتها الكهرباء؟».

من داخل القيصرية المسقّفة سمع خشخشة أشياء تتحرّك، وأصوات آدمية، وميّز في ظلمة المكان بقعة ضوء متحركة.. أطل عليهم بصدره العاري وشعره المشعث وملامحه المنكمشة المخيفة.. هكذا رأوه لمّا سلّطوا عليه ضوء مصباحهم اليدوي.. كانوا ثلاثة مراهقين، يرتدون الدشداشات. أفلتوا ما في أيديهم وأطلقوا سيقانهم في ركضٍ متعثرٍ خائف.. سيقانهم التي بات يسمع وقعها على أسفلت الشارع بعدما

خرجوا من القيصرية التي تشكِّل الجزء الملحق بالسوق القديم. صاح: «حرامية، أولاد الكلاب».

جمع ما رموه على الأرض.. كانت علب سجائر روثمن وكنت وكريفن.. قال: أنا أدخن سومر. خلع قميصه، وكان غير مزرر.. فرشه وصفَّ عليه العلب التي لم يحسب عددها وشد كمّيه الطويلين، وحمل الصرّة إلى غرفته. خطر له أنه ارتكب حماقة بجلبه علب السجائر إلى هنا. سيعدّونه لصاً إذا ما وجدوها عنده.. لا، سيقول لهم إنه انتزعها من اللصوص ولم يستطع أن يردّها إلى مكانها لأنه لا يعلم من أي متجر سرقوها. أخذ رشفتين من العرق. مصَّ شفته السفلى، ونفث زفيره باتجاه الباب المفتوح.. بدأ الجو يزداد برودة فتكهّن أن الوقت هو ما قبل الفجر.. لعلّه موعد الأذان، ولكن من يؤذن ما دام إمام الجامع الشيخ فتح الله والمؤذن ملا عبد الرحيم قد عافوا جامعهم والتحقوا بالمخيّم. فكّر أن لصوصاً آخرين ربما كانوا يكسرون أقفال بعض المتاجر الآن. كان يدخِّن سيجارة روثمن وهو يسرع نحو السوق، بعدما منح لنفسه حق تدخين بعض هذه العلب، واعداً نفسه بدفع ثمن المسروقات لصاحبها، فيما بعد، إنْ تأكد من شخصه.

«سأكون صريحاً معه. وإن امتعض فليأكل من مؤخرته».

جفلَ لحظةَ مرقت سيارة بيك آب مسرعة خارجة من السوق كادت تصدمه.. صرخ: «حرامية، أولاد الكلاب». ورمى حصاةً صغيرة التقطها من الأرض نحو المصباحين الخلفيين للسيارة، وقد تضاءل توهّجهما بلونهما الأحمر الفاقع حتى اختفيا.

تحت سقيفة السوق القديم أشعل قدّاحته وتفحّص أبواب المتاجر..

عثر على بابين مشرعين وبضائع متناثرة على الأرض.. جلس على أريكة خشبية غير مفروشة بحصير ودخّن سيجارة أخرى.. همس: «سأقتل أحدهم إذا ما عادوا»، غير أن أحداً لم يعد في آخرة تلك الليلة.

في الليالي التالية واجه حكّو اللصوص، عصابات من اللصوص. تعرّف على كثرٍ منهم، لكن بعضهم كانوا أغراباً، ليسوا من سكان البلدة الذين يعرفهم، ومعظم الذين عرفهم ناداهم بأسمائهم، فرداً فردا. ولاسيما الأوغاد منهم؛ (الحرامية والسرسرية والقوّادون) كما سمّاهم.. قليل من هؤلاء هربوا لمّا فاجأهم حكمت، ومنهم منْ رآهم يبتعدون بحمولاتهم من المسروقات فلم يلحق بهم. وفي مرّة قيّده ثلاثة شبّان إلى ضلع أريكة خشبية بحبل.. كانوا ملثّمين.. تركوه وبقي يحكُّ الحبل بحافة الأريكة ساعات حتى انقطع، عندها كان ينزف من معصميه، ويشعر ثمة بألم حارق. وفي مرّة أخرى ضربوه ضرباً مبرّحاً، ولم يكونوا ملثّمين. كانوا أربعة حاول حكمت أن يحتفظ بملامحهم في زاوية حيوية من ذاكرته.. كسروا له سنّاً. وفي ضوء النهار أمام مرآة في بيت الحاج مرتضى بوغت بوجهه مملوءاً بالبقع القاتمة والبنفسجية.. كدمات وجروح صغيرة، وكانت شفتاه متورمتين، وحاجبه الأيمن مشقوقاً.

***

يسند ظهره إلى باب الألمونيوم المحزّز المقفل لدكان خدّوجة.. في يده عصا طويلة.. يصيح: «سأقتلكما».. يقترب منه الرجلان الملثّمان شاهرين سكينين طويلين ليخيفاه، فيلوِّح بالعصا.. يسبّانه، ويسبّهما، وعصاه تتخاطف، كما عينيه، بينهما.

تخرج خدّوجة من أيامه الراحلة شبحاً من سوادٍ حاقد ولسان سليط، تنهره بأقذع عبارات الشوارع، ويقذفه ولي عبود؛ زوجها العجوز، بأول حصاة يتناولها من تحت قدميه، لكن حكمت، الآن، لا يبالي.. «سأقتلكما».. يناور اللصّان، ويتقافز هو، كمن لم يشرب نصف زجاجة من عرق (هبهب) منذ الصباح. ويذكِّره أحدهما: «لم تكره خدّوجة أحداً مثلما كرهتك».

يتشرب ذهنه نبرة الصوت هذه، والعصا الطويلة تجلد الهواء بلا هوادة:

«حتى وأنت تدفع لها الفلوس لم تبع لك. وقبل أن تنتهي هذه الحرب ستفطس مع رجلها المسلول.. اتركنا حكّو.. سأعطيك ورقة خضراء أم الصورة... خمسة وعشرون ديناراً».

يشتم الورقة وصاحب الصورة ويشتمهما، ولا يتعرف على الرجل الذي يكلِّمه على الرغم من أن نبرة صوته ليست غريبة عليه.

«تشتم الريس»

«انعلبوك لابو الريس».

وكلما تحرّكا تهيج عصاه في الفراغ المتوتر بينهم، معانداً، مصمِّماً ألاّ يدع الرجلين يكسران القفل وينهبان الدكّان؛ دكّان خدّوجة التي طالما نعتته بالنجس السكّير، وأبت أن تبيع له حتى وهو يمدُّ لها يده بقطع النقد اللامعة طالباً علبة سجائر، أو لوح شوكولاتة يحلّي بها لعابه المرّ.

« صحيح أنت واحد ناقص ونجس ومعتوه».

يثب نحوهما بصرخة هائلة.. المفاجأة تصيبهما بالهلع، فيتقهقران.. يركضان، فيركض وراءهما.

لن تعرف خدّوجة هذه القصة أبداً.. وحين ستأتي بعد يومين، مع سيارة من نوع صلاح الدين، حمولة طنين، لتأخذ أغراض دكّانها، ستشتم حكّو.. تراه يقود حماراً إلى جهة ما، تصفِّق وتفتح راحتيها، تغمّه في وجهه: « أمّداك، نجس، مخبّل». فيما هو يفكِّر: «لِم خدّوجة وحدها.. أين ولي عبود؟».

في قيظ ساعة العصر تتناوشه دروب البساتين.. يبصرُ في طريقه أفعى مبقّعة بالأصفر الفاقع.. تهرب الأفعى متسلقةً الحائط الطيني لسياج بستان.. يلتقط حصاةً من الأرض الحصباء ليضربها، لكنها تكون، في لحظتي انحناءته ومن ثمّ وقوفه منتصباً، قد عبرت الحائط.. يقف غاضباً ويرجم الحائط بحصاته التي تزن ما يفوق الكيلو غرام الواحد، ويشتم خدّوجة.. يصفر حين تمر به ثلّة من الجنود يحدِّجونه بابتسامات غبية باهتة. ويظلُّ يصفر، ولا يبتسم.. يغيب صفّ الجنود في أقرب منعطف، فيطمئن إلى أن لا أحد يراه.. يستلُّ من جيبه قنينة الربعية من عرق (هبهب) ويكرع.. مازته بعض السيقان الذابلة من نبات الخبّاز، يقطعها ويلوك أوراقها. وإلى جانب مستعمرة حلفاء يبول واقفاً.

مع الغروب، وما يزال يمشي، يسحق حشرتي أم أربع وأربعين بنعاله (اللاستيك) ويدخِّن. حتى إذا ظهرت ثلاث مروحيّات فوق رؤوس النخيل، عائدةً من خط الجبهة، يرمي عقب سيجارته ويركض في أعقابها صائحاً، فتسقط من جيبه زجاجة ربعية العرق وتنكسر على

الأرض الحصباء، فيتوقف، يعاين بحسرة ما تبقى فيها من السائل الثمين وهو يندلق ويُسفح، وتشربه الحصى.

***

بعد أيام لم يبق في سوق البلدة ما يغري بسرقته.. جاء لصوص وبعض من الجنود وأخذوا ما قدروا على حمله.. فيما الجزء الآخر نقله أصحاب المتاجر المحظوظون أنفسهم، أولئك الذين وصلوا في الوقت المناسب ووجدوا أبواب متاجرهم لم تُمس. واكتشف حكمت أن لصوصاً يسرقون ما تبقى من أثاث وأغراض في المنازل أيضاً.. ما كان بوسعه سوى أن يقف ويصرخ في وجوههم.. في النهاية لم يعودوا يبالون به. وبات هو يكتفي بمراقبتهم وهم يحملون غنائمهم في سيارات صغيرة.. يشرب العرق ويدخِّن ويشتم آباء أجدادهم وهم يضحكون. ولم يأبهوا حتى حين راح يصفهم باللوطيين وأولاد الحرام واللقطاء.

«حكّو، لا عليك.. كل شيء مباح في الحرب.. هذه فرصتنا».

«اللعنة عليكم وعلى الحرب».

«اللعنات والشتائم لا تغيّر من الأمر شيئاً يا حكّو. العن كيفما شئت ومن شئت، فأنت مخبول ولن يحملوا كلامك على محمل الجد. سيقولون معتوه، مسكين لا يعرف بم يهذي».

«اللعنة على من أشعل الحرب».

«هم أشعلوا الحرب، ألا تسمع إذاعة بغداد؟».

«اللعنة عليهم».

«العن يا حكّو ونفِّس عن غضبك.. هذه المدينة لن ترجع إلى سابق عهدها مهما لعنت. وقد يجنِّدونك في الجيش الشعبي».

«اللعنة عليكم، اللعنة على القادة والقيادة والقوّادين».

لكنهم، عند هذا الحدّ حاولوا إسكاته.. قالوا له:

«للحيطان آذان يا حكّو.. لا تصدِّق أنهم لن يأبهوا بكلامك لأنك مجنون. سيسلخون جلدك.. سيعدّونك خائناً تخدم العدو».

«اللعنة عليهم وعليكم. على الأعداء.. على الرئيس والرؤساء».

أسرعوا إلى سياراتهم، ولم يكونوا قد انتهوا من سرقة كل ما جاؤوا من أجل سرقته.. كانوا خائفين. وهكذا وجد حكمت حلاً سحرياً لمشكلة السرقات.. كان يقترب من اللصوص ويبدأ بشتم الحرب والمتحاربين وقادتهم وقوّاديهم، والأصدقاء والأعداء، والرئيس والمرؤوسين، فيهربون.

قبل أسبوع من الحرب

في كل يوم، بعد استيقاظه وقت الضحى، يخرج من غرفته. وفي سوق بلدته (س) يتنقل بين باعة الأرصفة، وأصحاب الدكاكين، والمتسوّقين، والمتسكّعين، ورواد المقاهي، لينال حصته اليومية من النقود.. لا يمدّ يده إلا بعد أن يمدّوا أيديهم.. يقف إزاء الشخص، وليس كل شخص، فيضع الشخص يده في جيبه ويخرج قطعة نقدية، يأخذها حكمت ويذهب إلى غيره.. يجمع دينارين لا يزيد درهماً ولا ينقص.. نصف دينار لشراء قنينة كاملة من عرق هبهب.. نصف دينار مقابل ثلاث علب سجائر علامة سومر.. نصف دينار لوجبتين إحداها شطيرة كباب مشوي.. ربع دينار يتصرف به بطريقة ما هي بنت لحظتها.. وربع الدينار الأخير يعطيه لمتسولة عمياء في منتصف العمر تقتعد طرفاً من سوق البلدة (ب) اسمها رندة.. والعلاقة بين حكمت ورندة يجللها الغموض، وتثير تقوّلات، على الرغم من أن لا أحد اكتشف ما يريب في تلك العلاقة.. أما بقية حاجاته، وهي شحيحة، فسيجد من يلبِّيها له ساعة يطلب، أو لا يطلب.

حين يطمئن إلى الدينارين يخشخشان في جيبه، بالفئات المعدنية المختلفة، يمشي جزءاً من الطريق إلى البلدة (ب).. ودائماً تتوقف

سيارة إلى جانبه، ويجد من يقول له: «اصعد»... يصعد من غير أن يقول أي شيء، وينزل من غير كلمة شكر، ولن يدفع لقاء ركوبه فلساً أحمر. وهو قطعاً لن يجيب على الأسئلة المكرّرة التي يراها غبية: «ذاهب لتشتري عرق هبهب حكّو.. أليس كذلك؟». «وماذا عن رندة.. أصحيح أنك ستتزوجها؟». «أما زلت تكتفي بدينارين.. لماذا ديناران فقط، لا أكثر ولا أقل؟». «لماذا لا تستحم، رائحتك ليست طيبة؟». «أصحيح أنك متزوج من جنّية؟. ألها ما للمرأة الآدمية؟. أهو نفس الطعم أم هو شيء مختلف؟. كم مرّة في الليلة الواحدة؟».. يقهقهون وينوِّعون في تعليقاتهم التي يراها قبيحة، سمجة، ويتمادون، ويبقى هو صامتاً، متجهِّماً، مثل تمثال ملك قديم، معبود.

في هذا اليوم القائظ من نهايات الصيف أقلّه الدكتور راسم بسيارته.. والدكتور راسم من القلّة الذين يستمع إليهم حكمت ويبادلهم الكلام إذا ما كان في طوره الثالث..

أطوار حكمت تتقلّب لأسباب مجهولة.. في طوره الأول قد يسمع أو لا يسمع ما يقول محدِّثوه لكنه يظل ساكتاً.. سكوته عميق حد الإغاظة، لا ينبس ببنت شفة كما تقول العرب.. في طوره الثاني وهو طور الهذر لن يسمح لأحد بالكلام أو لن يأبه به.. سيتكلم طوال الوقت.. كلامٌ بعضه له معنى ومعظمه لا معنى له.. في طوره الثالث يكون أقرب إلى طبيعة الناس الاعتياديين، وهو أفضل أطواره حيث تغدو جملته، إلى حد كبير، واضحة. وأكثر إجاباته تكون لمّاحة صادمة، مع قليل من الشطط أحياناً.. قد يشطح في الحديث.. قد يأتي بكلمة لا تناسب السياق بيد أنه يمنح انطباعاً كونه عاقلاً مثل هؤلاء العقلاء الفضلاء الذين نراهم يدبون

على الأرض، يمشون في الأسواق ويأكلون الطعام.. وهذا ما يجعل بعضهم يتشكّك بخبله.

«لن يخدعني.. يدّعي الخبل كي يحصل على الدينارين من غير جهد.. ديناران في كل يوم.. ستون ديناراً في الشهر هو راتب عامل أو موظف صغير.. إنه محتال».

يقول عضوٌ في الحزب: «يمثِّل كي يتجنّب الخدمة العسكرية والبلد على أبواب حرب.. قولوا لي إن لم تكن هذه خيانة فكيف هو شكل الخيانة؟».

وحكمت يصغي لهذه التي يصفها بالترّهات، أو لا يصغي، وفي الأحوال كلها، لا يكترث.

هو الآن، كما قلنا، في طوره الثالث..

يناقشه الدكتور راسم كما لو كان صنواً له.. يعرفه منذ العام 1973، يوم كان طالب سنة أخيرة في كلية الطب، وحكمت طالب سنة ثانية في أكاديمية الفنون الجميلة.. حينها كانا يلتقيان مع شلّة من طلبة جامعيين من كليات مختلفة في مقهى البرازيلية أو البرلمان.. هذه معلومة لك عزيزي القارئ، فهي سرّية وخطيرة، لا يعلم بشأنها أي شخص من سكان البلدتين (س) و(ب). وسيحرص الدكتور راسم على أن لا يطلِّع عليها أيٌّ من شخصيات هذه الرواية، وحتى حصول أمر مفاجئ، لأسباب ستتكشف فيما بعد.

لم يتعرف الدكتور راسم على حكمت للوهلة الأولى لمّا التقاه مصادفة في السوق، قبل سنتين، بعد دخوله البلدة (س) قادماً من

المجهول.. استغرب الدكتور أن يناديه مجنون باسمه الصريح وهو بين الخلق.. امتعض قليلاً، وضحك في سرِّه، وفسّر الأمر بأن هذا المجنون لابد من أنه سمع باسمه يتردد على لسان شخص ما: «هذا الدكتور راسم». لكنه ذهل لمّا اقترب منه هذا الكائن ذو اللحية الشعثاء والوجه الشاحب، والذي تفوح منه رائحة العرق والسجائر، ليقول له بصوت مبحوح، نصف مخمور:

«كيفك راسم.. أما زلت تقرأ كتب سلامة موسى وعلي الوردي، وتكتب شعراً رديئاً؟».

تفرّس الدكتور راسم في وجه حكمت.. لمعة عين الرجل المجنون، وابتسامته الساخرة أعادتاه سنوات إلى الوراء، قال:

«من؟ عامر؟».

«لا، قايضت الشيطان باسمي.. منحته شيئاً وأعطاني اسماً آخر.. أنا حكمت يا راسم، وهنا يدعونني؛ حكّو»

ومشى تاركاً الدكتور راسم في حالة من الحيرة والارتباك والتشوّش.

الوقت هو الثالثة والربع عصراً، وهما الآن في سيارة الدكتور راسم الخارج من دوامه الاعتيادي في مستوصف البلدة (س)، ذاهبان إلى البلدة (ب) حيث يفتح الدكتور راسم عيادته الخاصة بعد الخامسة. أما حكمت فغرضه شراء قنينة من عرق (هبهب) وأشياء أُخر.. يقول الدكتور:

«من الجيّد أنك لم تعد مهتماً بالسياسة».

يكرِّر حكمت كأنه منوّم مغناطيسياً:

«سياسة».

«ولا أظنك تستمع إلى الأخبار».

«أخبار».

«والأخبار يا حكمت في هذه الأيام مقلقة».

«مقلقة»

«يبدو أننا مقبلون على حرب».

يلتفت حكمت كأنه خارج من حلم:

«حرب؟».

«إيْ، حرب».

«وسنحمل البنادق ونحارب؟»

«الجيش سيحارب».

«وأنا لن يأخذونني إلى الحرب».

«أنت في سجلّاتهم لست مؤهلاً، لكن الحرب ستأتيك برجليها، ستصل إلى غرفتك».

«وسنموت».

«من يعلم من سينجو.. البلدة (س) حدودية ومن لا يهرب سيموت».

«إلى أين سنهرب؟».

«إلى مكان آخر».

«أنا لا أقدر على الهرب.. حكّو لا يهرب».

«ستجد نفسك مجبراً».

«حكّو لا يهرب».

«لا أدري يا حكمت، لكل حادث حديث».

«لكل دجاجة ديك، لكل ديك مزبلة، لكل مزبلة بلدة».

يُباغت الدكتور راسم بهذا التنويع الغريب على عبارته ويضحك. يبتسم حكمت ويُكمل:

«لكل بلدة حاج مرتضى.. لكل مريض دكتور راسم».

ثم:

« لكل نهر غريق».

ثم:

«لكل عصفور بندقية».

ثم:

«لكل مخبول شجرة»

يجاريه الدكتور راسم:

«لكل شجرة عاشق».

يقول حكمت بإنكار:

«لكل شجرة حصّتان».

«حصّتان من ماذا؟».

«حصة من المطر، وحصة من الغبار».

«معقولة».

«لكل شجرة شمس، لكل شجرة هواء، لكل شجرة رسّام، لكل شجرة حصان».

يضحك الدكتور راسم: «ما هذا يا حكمت؟».

«لكل حصان ولي عبود، لكل ولي عبود خدّوجة، لكل خدّوجة عصا، لكل عصا زعاطيط».

يلتفت إليه الدكتور راسم وهو يضحك: «كفى، كفى».. يصفّق حكمت:

«خدّوجة يا هايفة، خدّوجة يا جايفة.. خدّوجة يا عالية، خدوجة يا ناصية، خدّوجة بنت الباشا، تلعب ويا الفرّاشة».

يغرق الدكتور راسم بالضحك ويوشك أن يفقد السيطرة على سيارته الآخذة بالتمايل وسط الشارع.. يطلق سائق سيارة الحمل الكبيرة الآتية من الجهة الأخرى صوت منبّه عالٍ وغاضب، وبالتأكيد راح يشتم كما تصوّر الدكتور راسم الذي دمعت عيناه من فرط الضحك.. يصيح:

«أرجوك يا حكمت، كفى كفى».

يسكت حكمت. يتأمل قطيع أغنام يسير على جانب الطريق.. ينظر إلى الخلف، إلى القطيع، يراه يبتعد عنه:

«تنظر إلى الأغنام يا حكمت».

«أنظر إلى ذبائح».

«ذات مرة رسمتَ كثراً من الأغنام، أتذكر؟ ما زلت أحتفظ بتلك الورقة».

«أغنام مهيأة...».

«أنت رسّام بارع يا حكمت وشاعر».

«شاعر أغنام مهيأة...».

«لو كنتَ في مكان آخر...»

يقاطعه: «لا أريد مكاناً آخر». ويُخرج قنينة عرق بحجم الربع يكرع منها جرعة كبيرة حتى تتساقط القطرات على لحيته وقميصه.

«اخفِ القنينة يا حكمت».

«من لا يعرف حكمت الشرّيب؟».

«لكنك معي».

«مَن مع مَن؟».

«أنا معك يا سيدي».

«ماع، ماع، ماع».

يضحك الدكتور راسم.

«والله يا حكمت أنت أفضل رفيق للطريق».

«لا تغلط، لست رفيقاً.. لست رفيقاً».

«أقصد صديقاً».

«لست زنديقاً».

«أنت طيب يا صديقي».

«متى ذقتني؟ خخخخخخخ».

يطلق الدكتور راسم ضحكة صاخبة: «وصلنا».

«عفية سايقنا الورد..».

«شكراً حكمت، سأعود بعد الثامنة، إذا بقيت حتى تلك الساعة فتعال إلى العيادة لنرجع معاً».

«أنت دكتور حلق، تشقُّ الحلوق».

«أنا أداوي الحلوق يا حكمت».

«حلقي يوجعني، شقّه وخلّصني منه».

«سأحجز لك عند السكرتيرة.. تعال بعد أن تشتري المقسوم، ولكن لا تفضحنا، ضعه في كيس نايلون أسود».

لا يعلّق حكمت، كأنه ليس المعني بكلام الدكتور.. يهز الدكتور رأسه وابتسامة إشفاق على محيّاه، ويتجه نحو عيادته.. في السوق تُحاصر الأصوات الممازحة واللئيمة المعتادة حكمت: «حكّو، اشلونك حكّو.. حكّو، ماكو عرق، عمّو ميخا عزّل».

لا يلتفت حكمت لمصادر تلكم الأصوات.. هدفه واضح؛ مخزن ميخائيل لبيع المشروبات الروحية.

«عمو ميخا، المقسوم».

يطل ميخائيل العجوز بنظارته الطبية السميكة من وراء الحاجز الخشبي العالي لمخزنه ويقول: «ها حكمت.. حاضر، قنينة من عرق هبهب».

«وقنينة ربع فارغة»

«كعادتك كسرت قنينة الربع الفارغة التي أخذتها أمس».

يناوله حكمت ما في جيبه من قطع النقد المعدنية.. يأخذ ميخائيل منها نصف دينار ويرد الباقي، ومعه قنينة العرق:

«ضعها في كيس نايلون أسود».

«صرت تستحي منها يا حكمت»

«حكمت لا يستحي، دكتور راسم يستحي».

يصل حكمت إلى دكان عوّاد أبو التتن.

«عمو أبو تتن، تلث باكيتات سومر».

«جيد حكّو.. سومر وعرق هبهب».

«لوز».

يبقى في جيبه ثلاثة أرباع الدينار.. يشتري بربع دينار من عربة شواء شطيرة كباب، يأكلها واقفاً، ثم يذهب ليلقي في طاسة رندة العمياء القاعدة في ظل حائط مقهى سلّوم ربع دينار آخر.

رندة، حيية، بيضاء، ناعمة، صوتها حلو، أرنبة أنفها متآكلة قليلاً كأنها

قضمت بأسنان فأرة، ووجنتاها ناتئتان.. في الثلاثين أو أكثر.. عيناها عسليتان واسعتان، ومطفأتان، ومن يتأملهما يعجب كيف أنهما بهذا الجمال ولا ترى صاحبتهما بهما أبداً.. حين يقترب منها حكّو، تحسّ وقع خطواته، تميّزها، فتنشرح قسماتها. تزحزح مؤخرتها قليلاً، وتبتسم.. يقول لها حكمت: «كيفِك رندة؟ زينة؟».. «زينة، ربي يحفظك».. «ديري بالِك على نفسِك».. «إن شاء الله، أنت همّاتين دير بالك على نفسك».. الكلمات نفسها، في كل يوم، قد تزداد كلمة أو تنقص، لكنها تظلّ هي هي.. يعطيها ربع الدينار ويمضي في شأنه.. تتجلى في عينيه لحظة يغادرها نظرة أسف وإشفاق. أما وجهها فيتفتح كوردة ويشعُّ منه ضوء الحب.. وحيث تجلس تبقى رندة حتى ساعة الغروب.. هو لا يعرف عنها شيئاً.. وهي تعرف عنه بعض الأشياء.. وقد لا يهتم أي منهما بما يعرف عن الآخر، وما لا يعرف.

يخطر له أن يشتري بربع الدينار الأخير لبّاً أبيض يقزقزه وهو يشرب، ونصف كيلو من التفاح.. هذه رحلة كل يوم.. يصل ساحة مركز البلدة.. يناديه شرطي المرور: «ها حكّو، هل أوقف لك سيارة؟».

«لا، رايح لعيادة الدكتور».

«مريض حكّو».

«لا، الدكتور راسم يشقّ حلوق».

يدخل حكمت صالة انتظار عيادة طبيب الأنف والأذن والحنجرة؛ الدكتور راسم لطيف حنتوش.. يشيع لغط بين المرضى الجالسين.. امرأة قروية يبين على وجهها الذعر.. فتاة صغيرة تشرع بالبكاء.. رجل

في الخمسين ينظر بريبة وحذر إلى هذا الكائن النحيل، الأشعث، رثّ الثياب، الذي يخفي كيساً أسود منتفخاً تحت إبطه.. شاب يضحك.. تقوم السكرتيرة من غير أن تظهر عليها علامة أنها فوجئت.. تدخل غرفة الطبيب.. تلبث بضع ثوانٍ، وتخرج.. تقول معتذرة للجالسين:

«الدور لحكمت.. حجز عند الدكتور منذ الصباح».

يغادرُ غرفة الطبيب اثنان؛ رجل وامرأة كلاهما في سن الكهولة. يخطو حكمت إلى الداخل:

«اجلس حكمت، يبدو أنك أكملت شغلك»

يجلس حكمت ولا يجيب، لعلّه لا يرى ضرورة للإجابة:

«اعطني كيسك، سأفحصك.. افتح فمك».

يفتح حكمت فمه ويبقى محتضناً كيسه.. يضع الطبيب على لسانه قضيباً صغيراً من البلاستك المعقّم ويضيء الجوف بمصباح يدوي يبدو مثل قلم حبر:

«لا مشكلة في الحنجرة لكن فمك ملتهب، وبعض أسنانك منخورة.. ألم أعطك فرشاة وعلبة معجون لتنظِّف أسنانك كل ليلة قبل أن تنام؟».

تدور عينا حكمت في محجريهما مثل طفل يقرُّ بذنبه ولا يعرف ماذا عليه أن يقول..

«سأنظِّف أذنيك، سترى كم فيهما من الوسخ».

رضخ حكمت لعملية التنظيف.. لم يعترض كما توقّع الطبيب الذي

وضع الدهون المتكلِّسة والشوائب على قطعة شاش، وقال مؤنِّباً: «انظر حكمت، هذا ما كنت تخبئ في أذنيك».

***

خلف بناية محلج القطن يجلس حكمت.. إلى يمينه دالية صغيرة وأمامه خلاء ساعة العصر، وبضع خرائب في الجوار.. تمرُّ في أذنيه الرهيفتين، الآن، هسهسة أوراق الأشجار، وزفير ريح متمهلة، وهدير سيارات تمرق في الشارع العام البعيد.. يُخرج زجاجة العرق، يفتح سدادتها بأصابع فيها رجفة خفيفة بادئاً بجرعة صغيرة.. يأخذ حبّات من اللب الأبيض ويقزقز.. جرعة ثانية أطول تجعله يتجشأ.. ويشعل سيجارة.

النهار يذبل وزجاجة العرق فرغ ربعها، وحوله ستة أو سبعة من أعقاب السجائر.. في المشهد أمامه يُباغت برجل دشداشته تميل للصفرة، يحث امرأة ترتدي عباءة سوداء على اللحاق به.. عينا حكمت تلتقيان بعيني المرأة.. المرأة تبدو محترسة مثل أرنب في أرض معادية.. الرجل لم يره بعد.. المرأة تجمد، والرجل نافد الصبر يشير لها بيده: «هيا»، فيرى حكمت الجالس مع زجاجته.. يقف هو الآخر، يلقي بذراعيه إلى جنبيه بخيبة أمل ويقول شيئاً للمرأة. سجالهما همس حاد.. المرأة على وشك أن تنسحب.. يمسكها الرجل من يدها.. لعلّه يقول لها: لا تبالي به، إنه مجنون.. يجرّها وتكاد تعثر.. تنزلق العباءة من فوق رأسها على كتفيها.. شعرها البنّي معقوص مشدود بشريط أبيض كما تلميذات المدارس، وعنقها طويل وأسمر.. تسقط العباءة.. يلتقطها الرجل.. ثوب المرأة

أخضر بأزهار صغيرة حمر.. يجرّها بقوة أكبر، تطاوعه، تلتفت لحكمت المحدِّق بهما.. تلقي عليه نظرة متوسِّلة، وجلة.. تبدو كأنها تود لو تبكي.. يدخلان الخرائب.

يشعل حكمت سيجارة أخرى، ينفث الدخان في الهواء الذي خمد منذ بعض الوقت.. يمد رجليه ويتكئ بظهره إلى الحائط.. ينهي سيجارته.. يأخذ جرعة أخرى من زجاجة العرق.. يقف.. يُنزل سحّاب بنطاله ويبول على الحائط الخلفي لبناية محلج القطن.. تهيج رائحة اليوريا ويتحدر السائل الأصفر الحار إلى حيث يضع أشياءه.. تغرق علبة السجائر المفتوحة.. يهرع إليها ثم يقذفها بعيداً.. تتبلل أصابعه، يمسحها بحصاة مدورة متربة، ويحكُّ بالتراب أسفل زجاجته التي تبللت كذلك ببوله الفائر. يشتم، ويتخذ لنفسه مجلساً يبعد عن الأول متراً واحداً، وعينه إلى الخرائب التي يراها عائمة في دخان أدكن.. يتمتم: «لا يريد أن يقتلها.. يريد شيئاً منها.. هي لا تريد.. هي تريد.. هي لا تريد أن يعرف حكمت.. حكمت هنا يرى ويعرف.. لن يتركها تفلت منه.. هناك، على العباءة، حَر وظلمة ودبق ورائحة خراء يابس، والخفافيش فوق.. ما شأن حكمت أو أي أحد لعين بهما.. حرّية.. القاضي راضي.. يللا».

يرفع الزجاجة.. فرغ ثلثها.. يؤرث سيجارة من علبته الثانية.. من بين الخرائب يظهر الرجل أولاً، يتلفت.. يعقف إصبعه الوسطى ويحركها ببذاءة بوجه حكمت، ويمضي مختفياً في المنعطف الذي تشكِّله الدالية مع الخلاء حيث تنتشر الأشواك والنباتات البرّية على مرمى النظر.

تخرج المرأة.. تشمل حكمت بنظرة واحدة منكسرة كأنها تعتذر.

وتعود بخطوات وئيدة من الطريق ذاتها التي جاءت منها مع الرجل قبل نصف ساعة.. ينهض حكمت، يحمل زجاجته ويتبعها.. تلتفت وراءها وتراه فتسرع الخطى:

«خائفة من حكمت؟».

تسَرع أكثر.. يسرع:

«حكمت لا يُخيف، حكمت ليس شيطاناً».

ثم:

«حكمت لا يريد.. فقط لو صحتِ لكسرتُ رأسه».

يبطئ حكمت من مشيته، مشيته الآن تشي بالوهن.. يتشوّش العالم أمام ناظريه.. تبتعد المرأة المذعورة، تدلف إلى زقاق قريب وتختفي.

يصل حكمت إلى عيادة الدكتور راسم.. بابها مغلق.. يقرع الجرس.. يفتح له الدكتور: «ادخل حكمت».

«تلك المرأة»

«من؟».

«أحدهم».

«من هو؟».

«رجل، في الخربة».

«ماذا جرى؟».

«كان يريد.. وهي خائفة من حكمت».

«فهمت.. لا عليك.. عادي، مثلما يحصل دائماً.. تعال».

يدير الدكتور راسم مفتاحاً في ثقب باب جانبي في عيادته ويفتحه.. يمدُّ يده ويشعل مصابيح غرفة مربعة، طول ضلعها خمسة أمتار.. يضع يده على كتف حكمت ويقوده إلى الداخل. يلقي حكمت نظرة ذاهلة متأملة على ستة رفوف طويلة اصطفت عليها الكتب، تغطي ثلاثة من الجدران.. ينقل نظره إلى أكوام من الكتب الأخرى على منضدة عريضة من خشب البلّوط، وعلى كرسيين، وعلى الأرض أيضاً. وإلى جهاز تلفزيون فيليبس 20 عقدة، في مضلّع خشبي أنيق، على الجدار المحاذي للباب، وتحته جهاز راديو وتسجيل نوع سوني.. يقول الدكتور راسم: «هذه صومعتي، أقضي فيها ساعات الفراغ، وهي قليلة كما تعرف، أقرأ وأستمع إلى الموسيقى وأكتب.. أكتب لنفسي.. لا أمتلك الموهبة».

تنشدُّ عينا حكمت إلى صورة مزجّجة، بورتريه كبيرة موضوعة في إطار، معلّقة أعلى الزاوية المقابلة لموضعِ مكتبٍ بمنضدةٍ متوسطة الحجم من شجر الجوز، وكرسي دوّار.. تشغله الصورة ولا يتنبه لدعوة الدكتور له بالجلوس على كرسيٍّ بعدما رفع الكتب التي كانت تتكدّس عليه. يتأمل حكمت الصورة؛ خصلة من شعر نافر على جبين عريض وتلك النظرة الماكرة، الواثقة، والمتعجرفة قليلاً.. إنه يبدو مثل إمبراطور يوشك على إصدار أمر ملزم لرعيته.. يشير حكمت بسبابته إلى البورتريه ويقول:

«هذا أعرفه.. نسيت اسمه، ما اسمه؟».

«هذا بيتهوفن يا حكمت.. كيف تنسى اسمه؟».

«بيتهوفن».

« الموسيقار».

«الذي لاحقه الرعاع والأطفال بالطماطم والبيض الفاسد».

«هو نفسه».

«كان مجنوناً»

«لم يكن كذلك».

«مثلي أنا».

«سوء الفهم نفسه يا حكمت، والغباء نفسه».

يحدِّق حكمت في وجه بيتهوفن. يضع كيسه في الفراغ إلى جانب التلفزيون، ثم يرفع يديه ويحركّهما بإيقاع هادئ مثل مايسترو حاذق يقف أمام فرقة من خمسين عازفاً: «ترن تتا ترن تتا تا ترن تتا».. يكفُّ عن أداء دور المايسترو.. يخلع نعليه ويرقِّص قدميه ببطء ثم يسرِّعهما شيئاً فشيئاً.. يرقص حكمت في المجال الخالي من الغرفة.. يزيح الدكتور راسم كومة من الكتب فيتساقط بعضها على الأرضية المفروشة بسجادة حمراء. ويأخذ بالنقر على البقعة التي فرغت من المنضدة وهو يضحك بانتشاء.. يتوقف حكمت عن الرقص لاهثاً ضاحكاً.. يجلس على الكرسي فتجذب انتباهه صورة ثانية/ بورتريه لفيروز مثبّتة في الزاوية المناظرة لتلك التي علقت عليها صورة بيتهوفن.. تستغرق حكمت عينا فيروز الوديعتان الذكيتان وظلُّ الابتسامة التي تكسي الشفتين الرقيقتين والوجنتين البارزتين بشحوب غامض. يشير إليها:

«أمّي، لو كانت أمّي».

يستدير ويشير لصورة بيتهوفن: «لو هذا أبي».

«أمنيتكَ مبالغِ فيها يا حكمت».

يعود لصورة فيروز:

«هذه تشبه تلك اللوحة الغالية، جيوكوندا».

«عال حكمت، ها أنت تتذكر جيداً».

ينهض حكمت من على كرسيّه ويسير باتجاه رفوف الكتب.. يقرِّب رأسه من صف منها ويشرع بشمشمتها مثل جروٍ جائع.. يقول:

«رائحتها طيبة».

«أنت مثلي تحبُّ رائحة الكتب».

«مثل رائحة البنت».

«أتعتقد بالشبه بينهما؟».

«رائحة عنق البنت وفروة رأسها».

يضحك الدكتور راسم.. يردف حكمت:

«مثل رائحة الشجر قبل شروق الشمس بقليل».

«الله، ما زلت شاعراً».

«مثل رائحة المقبرة في المطر».

«رائحة المقبرة؟! لا، لا، خرّبتها».

«ألم تشم رائحة المقبرة في المطر؟».

«العبارة صادمة.. يللا معقولة».

يجلس حكمت على السجادة.

«قم واجلس على الكرسي».

لا يتزحزح حكمت سنتيمتراً واحداً.

«حسناً، سأقول لك شيئاً.. سأريك شيئاً.. بضعة اسكتشات رسمتَها قبل يوم الشؤم ذاك، وقصائد لك.. ما زلتُ أحتفظ بها.. أنت لا تذكر متى أعطيتني إياها.. لكنني أتذكّر».

من أحد أدراج منضدة المكتب يسحب ملفاً كرتونياً لونه أزرق، يفتحه ويقلِّب بضع أوراق:

«وددتُ لو لم تكن سكراناً».

«لستُ سكراناً».

«شربت نصف قنينة».

«ثلث قنينة.. الثلث لا يُسكر».

«تعال انظر».

يتحامل حكمت على نفسه ويقف.

«هذا الاسكيتش حكيت لك عنه في السيارة».

يمدُّ حكمت رأسه.. تخطيط بقلم الرصاص لقطيع من الأغنام يتزاحم

عند حافة هاوية، وقد تساقط بعضها.. يصيح حكمت: «ماع، ماع، ماع».. يريه الدكتور راسم تخطيطات أخرى غير أنه يهزُّ رأسه: «هذه الرسمات لأحمق».

«لا، بل لراءٍ ذكي».

يجلس حكمت ثانية.. يقول الدكتور راسم:

«وهذه القصيدة، كتبتها قبل أربع أو خمس سنين ولو لم تكن معي لضاعت.. في الحقيقة هما قصيدتان قصيرتان أسميتهما (قصيدتان متقابلتان).. حاكيتَ بهما طريقة وليم بليك.. فيهما شيء جميل.. يتملّكني إحساس بالحزن كلما قرأتهما، ربما لأنك مؤلفهما.. اسمع، تقول في الأولى:

(مساء ذابل، أحجية تربكني، وترنيمة أغنية نسيت كلماتها؛ مؤونتي على رصيف مقهى.. تفلتت منك ما كان لك.. نوايا خجلت منها، أحلام ضيعتك في الطرقات، وأسماء لم تعد لها وجوه).

واسمع القصيدة المقابلة:

(صباح ذو هديل، معنى بين أصابعك، ولحن هداك إلى المرأة التي كانت، هذه أشياؤك على الطاولة، بقايا ما زالت لك، رغبات أطلقت سراحها، أمل احتملَ العاصفة، ووجوه تتعثر في رأسك بحثاً عن أسماء)».

صفن الدكتور راسم لحظات ينظر إلى حكمت الذي أغمض عينيه:

«ها، ما رأيك؟».

«كلام فارغ».

«كنت تمتلك موهبة الكتابة أيضاً يا حكمت».

«موهبة عرق هبهب».

«فقط لأنك لم تنل فرصتك».

«سرقتها بنات آوى».

«نعم، بنات آوى».

«لا شيء يهم».

«حقاً.. لا شيء».

«لا أحد يبصق».

«يبصق؟!».

«لا أحد على الباب».

ضحك الدكتور راسم وقال:

«سوى الريح».

شهق حكمت وقال:

«الريح كذّابة».

بعد أسبوع من بدء الحرب

حين يشتدُّ القصف ليلاً تظلُّ الكلاب تنبح لأنها خائفة، أو ربما احتجاجاً. وقد تكون تتساءل عن هذا الانقلاب السخيف في نظام الكون، لماذا حصل؟ ومن المسؤول عنه؟. وقد رآها حكمت كيف تتراكض لتلبد في الزوايا كلما انفلقت، في ساعات النهار، قذيفة، أو مرقت طائرة على انخفاض. الكلاب ليست شجاعة أمام القنابل والطائرات!! أما القطط فليس من السهل التكهّن بسلوكها.. هي تملك المرونة الكافية للاختباء والابتعاد عن مكامن الخطر. ولكن ماذا بشأن طعامها.. الكائنات كلها تسلك بذكاء وأحياناً بتهوّر بقدر تعلق الأمر بإسكات جوعها.. لا مطابخ عامرة في البلدة لتحتال القطط على ربات البيوت وتسرق منهن قطع اللحم المعدّة للطبخ. وأيضاً لا مزابل طازجة في الأزقة لتتزاحم الكلاب على الفضلات. هناك فقط العصافير والطيور الصغيرة الغافلة، وصيدها ليس بالمهمة اليسيرة على أية حال.

في اليوم السابع للحرب فكّر حكمت للمرة الأولى بحيوانات البلدة المتروكة.. فكّر بالحمير تحديداً وهي تتسكّع في الطرقات. كيف لها أن تتدبّر أمرها إذا ما استمرّت الحرب شهوراً طويلة. سيهلكها الجوع، وستنفق؛ الواحد تلو الآخر، لتكون وجبات شهية للكلاب والغربان

والنسور الصلعاء القبيحة. لن تفكِّر الحمير أبداً بمغادرة البلدة، لن يخطر على بالها الفقير أن هناك أمكنة أخرى لابد من أن يتوافر فيها الكلأ والماء.. ستستهلك ما بقي في المزارع التي راحت تيبس، والشتاء على الأبواب، «وموت يا حمار لمّن يجيك...».

فيما بعد انشغل ذهنُ حكمت بالكلاب كذلك.. بمصير الكلاب.. الكلاب تستطيع مشي المسافة إلى البلدة (ب) لتجد قوتها، وتستطيع أن تنتشر بين مواضع العسكر في الجبهة التي لا تبتعد عن البلدة أكثر من ميلين. الجنود أسخياء وطيبون.. الجنود مساكين.. هم لا يأكلون طعامهم كله، يتركون بعضه، لعلهم يفكِّرون به وبالكلاب.. تستطيع الكلاب المناورة والتكيّف، وأيضاً القطط.. الحمير ستستسلم.. ستموت.

في الليلة الفائتة راود حكمت حلمٌ غريب.. تذكّره جيداً لمّا استيقظ.. هو لا يتذكّر أحلامه غالباً، ولا يبالي بها. لكنّه في هذه المرّة يتذكّر حلمه بتفاصيله الرهيفة ويفكِّر به.. تكرّر مرور الحلم على شاشة رأسه من غير أن يبحث فيه عن مغزى ما أو إشارة. لم يرد، في البدء تفسيره.. كان مبهوراً بالحلم، بمشهديّته ذات الفخامة والجلال، والتي أعطته شعوراً دافئاً، مريحاً، ونشوة غمرته كالمطر.. كان هناك على مدّ البصر مئات الكلاب والحمير والقطط.. كلّها لونها أبيض كالثلج.. وكلّها تتطلّع إليه بوداعة ورجاء.. لا يدري لم دهمته فكرة الموت للحظة. فكرة سرعان ما تلاشت وحلّ محلّها سلامٌ عميق في الأحشاء.

أفراخ عصافير توصوص على شجرة التين، وفاختتان تتناغيان في مكانٍ ما قريب.. تنهض الريح؛ دوّامة صغيرة تهيّج الغبار والأوراق

وأكياس النايلون. تتجوّل في الأزقة والدروب المهجورة. تلطم الجدران. ترتدُّ وتندفع. فيما السماء ساكنة، طاعنة في الزرقة، حيادية. كأنها لا تأبه لما يجري تحتها في هذا الجزء من المعمورة.

الأسهل لإطعامها أن تجمع الحمير في مكان واحد.. اختار حكمت قاعة طويلة، لعلّها كانت مكاناً لاجتماعات أو دار ضيافة؛ مبنى واطئ، ضيّق، بعرض خمسة أمتار وطول يقرب من الثلاثين متراً. لعلّ حكمت كان يعرف أن هنا كان الأعيان ووجوه البلدة والمسؤولون والضيوف من ذوي المقام الرفيع يجلسون في صفين متقابلين على أرائك خشبية يتجاذبون أطراف الحديث ويخوضون في ماضيهم المجيد. يحتسون الشاي والقهوة المرّة والمرطّبات، ويتناولون أطعمة دسمة ويحمدون الخالق على نعمته. أما الآن فيمكن اتخاذه إسطبلاً للحمير التي تخلى عنها أصحابها. فبين الأرائك توجد مساحة كافية لحركتها. أما بخصوص الكلاب السائبة فيلزم اتخاذ مأوى آخر لها. لأن الكلاب، هكذا اعتقدَ، إذا ما وُضعت مع الحمير ستبقى تنبح طوال الوقت.

حَسِبَ حكمت أن الجدران ستحمي الحمير والكلاب من الشظايا، وأبعد عن ذهنه بعدما ومضت فيه للحظة، فكرة أن تسقط قنبلة على المبنى وتبيد القبيلة بأكملها.

كم حماراً سليماً ومعافى جمعها حكمت خلال نهار كامل من جولته بأكثر طرقات البلدة؟. لا يدري، وليس مهمّاً أن يدري.. صحيح أن بعضها يعرج، وبعضها مصاب بقروح، إلا أنها جميعاً مصمِّمَة كما يبدو على العيش، وقابلة بالشروط المستجدّة التي وضعها حكمت.

الحمير لا تهرب غالباً.. ومع اشتداد القصف تلبث في مكانها كأن

الأمر لا يعنيها.. يكفي أن تعطي الواحد منها قليلاً من الشعير حتى ينقاد لمشيئتك.. الحمير هنا شائخة أو تجاوزت منتصف العمر.. ليس بينها واحد فتي، لكن منها ما يمكن امتطاؤه.. اختار حكمت حماراً يميل لونه للأبيض.. هو أقوى من جماعته.. حين ركبه انتفض الحمار وألقاه أرضاً وكادت ساقه تنكسر لولا أنه كان محظوظاً وسقط في ساقية ما زال ماؤها يجري. فصرف النظر عن اتخاذ حمار وسيلة لتنقله.

***

خطّط حكمت طويلاً لكيفية استدراج الكلب الأشهب الفحل الشرس الذي تخافه الكلاب والبشر.. كلب عائلة الفحّام، من مزارعي القمح، بعدما فرّت العائلة ناسية كلبها في المزرعة.. كيف له استدراجه وحبسه وترويضه، قبل أن يغري بقيّة أبناء الفصيلة المتروكين في الديار.. لا يستطيع إلاّ إذا جوّعه، ولكن كيف يجوِّعه وهو حرٌ طليق.. وماذا لو أمسكه بوساطة شبكة كما كان الهنود الحمر يفعلون، في سالف الأزمان، في الغابات. ثمَّ من أين يأتي بالشبكة؟. وسرعان ما نسيَ هذه الفكرة.. بعد أيام، ويبدو أن كلب عائلة الفحّام كان يتضوّر جوعاً، وكان على حكمت أن يُريه قطعة لحم تُحفِّزُ حدّ الوجع شهيّته. وجاء باللحم من مطبخ الجنود، غير أن الكلب وقف باحتراس على مبعدة، ينبح برجاء أن يقذف له هذا الآدمي، الذي لا يُثق به، بقطعة اللحم الأحمر الهبر التي يمكن أن تغوي سَبْعاً في الفلاة. ولم يلق له اللحم بل سار وتبعه الكلب، وقال: «سأوقعكَ يا كلب». ونبح الكلب شاكياً، وحكمت مشى وهو يهزّ قطعة اللحم، وقفز ومثله فعل الكلب.. ضحك حكمت كاشفاً عن أسنان مصفرّة، بعضها منخور، وكشّر الكلب عن أنيابه.

«كج كج كج كج كج كج».. رغب أن يلعب بأعصاب الكلب.. ركض، وجرى الكلب في أعقابه. رمى قطعة اللحم عاليا وأراد أن يتلقفها فانفلتت من يده.. هجم الكلب، قذفه حكمت بحصاة أصابته ببطنه فعوى وتراجع بضع خطوات، وحصل حكمت على القطعة مرّة أخرى، وهذه المرّة كانت ممرّغة بالتراب. ركض ثانية، وعثر وكاد أن يقع فاستدار صائحاً ينهر الكلب: « كلب ابن الكلب». ثم: «كج كج كج كج».وقف الكلب حائراً لعابه يسيل. يبصر قطعة اللحم المتربة في يد الآدمي النزق فتعكس نظرته غمامة من الرجاء المذل.. دفع حكمت بباب دار ولبث ثمة يلوِّح بالقطعة الشهيّة. امتنع الكلب، في البدء، عن الاقتراب.. تردّد طويلاً، ثم رضخ وتبع حكمت إلى الداخل.

ألقى حكمت القطعة إلى نهاية غرفة فارغة مضاءة، يسقط شعاع الشمس، عبر زجاج نافذة عريضة، في وسطها.. بأربع وثبات أو خمس حصل الكلب على القطعة فيما أغلق حكمت الباب، وردَّ الترباس الحديدي حابساً الكلب. قال: «وقعت يا كلب»، وخرج إلى الطريق. سار وهو يتسمّع مبتهجاً إلى نباح الاحتجاج المحبط الذي راح الكلب يطلقه، بعد أن سدّ شيئاً من جوعه القاهر الطويل.

تحتاج جهداً أكبر للحصول على ثقة كلب.. الكلب/ ابن كلب كائن حرون، شكّاك، يتوقع الغدر دوماً. الكلب السائب الذي لا معيل له من بني آدم، الذي لم يتلق تربية ليكون أليفاً خنوعاً، صديقاً.. لا كلب في هذه البلدة لم يشبع من ضربات الحصى والعصي والركلات.. الكلب يتوقّع الأذى من كل من يمرّ به لاسيما الأطفال ممن تعدّوا السادسة من أعمارهم.. يدرك حكمت هذه الحقيقة الأليمة.. وكان عليه أن يمتلك

صبر نملة حتى يقنع الكلاب التي هي في سن الكهولة والعجائز منها بخططه. بيد أن بعض الكلاب الفتيّة رضخت له حين عضها الجوع بنابه، على حد تعبير الأستاذ خالد، مثلما تذكّر الآن، ولكن من هو الأستاذ خالد؟.. لم يصرف دقيقة أخرى في التفكير بهذا الأمر.. ومضى تتبعه صاغرة، بحكم قلّة خبرتها، الجراء الآخذة بالهزال.

***

هذا الموضع من الكون ليس أكيداً.. هذه الرشفة اللاذعة مؤكدة.. يرتجّ الكلب في الضياء. الشمس في النافذة. النخلة المخضوضرة هناك.. سعفها يقطر أقراص ماس.. ذلك الجدار أعزل، تهدّمَ ما حوله.. الجدار جاف، متقشّر، عتيق.. شيء ما واقف مثل متسوِّل ضخم أعمى.. لعله الجدار أو النخلة، يتثاءب في الظهيرة.. الكلب يغادر الضياء.. النافذة تشيح عن الشمس.. النخلة تنزف خيط دم أسود.. الجدار يرتفع، ينقضُّ على الكلب.. الكلب ينكمش، يصير دودة.. يصير ظلاً رفيعاً.. الظلُّ يأكله الجدار.. مع سبق الإصرار تعطس الشمس، يرتج الجدار في الضياء، يهرب الكلب، والمتسول الأعمى والنافذة والدم الأسود والظل.. ينحني الظلُّ على حكمت الذي موضعه من الكون ليس أكيداً، لكن المؤكد الرشفة الحارقة في بلعومه.. يغمض عينيه.. الصوت المريع الذي جعل الشمس تعطس ويهرب الكلب وكل شيء آخر لم يعرف حكمت أنها لقنبلة، لكن الكلب آمن ورديف المتسول الأعمى والظل والنافذة والشمس، وحكمت الغافي؛ لا يدري أين، وكم من الوقت.

مضى، يحكُّ ساعده بجدران الطين.. تمزّق القميص المتهرئ من

جهة الكتف، وترك الاحتكاك بقعة حمراء على رمانة الكتف ونقطة دم، وسار ولم يكف.. احتكاكه الملحاح بالجدار وهو يسرع الخطى يثير بعض الغبار، ولم يشعر بالألم إلا حين رأى حمارين ليسا مما يعرف.. شرع يسوقهما، يضربهما بجماع يديه على كفليهما، وصارا أسرع منه وهو يركض، يلهث ليجاريهما. أفلت منه أحد الحمارين، الأصغر عمراً، استدار وفر. وبقي هو مع الحمار الآخر، العجوز. هكذا، هكذا إلى أن بلغ المنعطف وكاد يفقد السيطرة عليه.. أمسكه من عنقه السمين الأملس وكان ما يزال يلهث، وأنفاسه الحارة تذوب على عنق الحمار.. دفع الباب وأدخل الحمار.. الحمير الآن في ظلمة القاعة، لابد من أن الليل قريب، وحاول أن يعرف عددها، أحصاها مرتين وثلاثاً ولم يجزم.. في كل مرة يختلف العدد؛ عشرة، ثمانية، سبعة، «لعل بعض الجن يسخر مني».. وخرج ونسي إغلاق الباب غير أن الحمير لم تخرج بسبب وفرة الجت والماء، بسبب الغروب الهابط، والظلام الذي يشتد في الداخل.. حمل للحمير الجت من مزرعة بعيدة، والماء من النهر.

أخذ رشفات من العرق، واقترب من موضع الجنود. كانوا غير أولئك. أين راحوا. رماه أحدهم بحصاة أوشكت أن تصيب جبينه. وقف متردِّداً وكان الجندي يشتم أحداً ما وطلب منه أن يبتعد ولم يبتعد، وسأله آخر إن كان يريد شيئاً فقال: «أكل». قال الجندي: «تعال خلِّصنا من لحم الكناغر اللعين هذا، يأتون به في أكفان من أستراليا ويخزنونه ثلاث سنوات في ثلاجات الموتى قبل أن يطبخوه للجنود أولاد الخايبة».. قال حكمت: «أريد صمّونا وخياراً».. قال رامي الحصاة وهو يقلِّد نبرة حكمت المتعبة المشروخة؛ «ألا ترغب بتفاحة لبنانية وموز صومالي». وأعطاه الجندي

الآخر صمونة وحبة طماطم وبرتقالة، وقال: «آسف، ليس عندنا خيار».. قال حكمت شيئاً لم يتبينه الجندي غير أنه لم يلح في الاستفسار. لكنه قال: «اذهب الآن وجد لك موضعاً شقّياً لتنام فيه، لا تنم في العراء، سيبدؤون القصف بعد قليل».. قال حكمت: «الطيور نامت».. ضحك الجنود.. أردف حكمت: «لكن الكلاب لن تنام.. الحمير تنام». قال الجندي رامي الحصاة: «وما شأنك أنت بالطيور والكلاب والحمير؟». قال جندي آخر ساخراً: «هم أخوته». قال حكمت: «وأنت أخي الصغير». لثوانٍ ران صمت ذاهل قبل أن يشرخه الجندي رامي الحصاة بقهقهة مدوّية، فيما كان حكمت يبتعد.

سمع حكمت صيحة طائر ما، وعواء ابن آوى، ولم يعد يسمع ضحك الجنود، ولم ير جدوى من الالتفات لمّا مرقت حصاة صغيرة قرب رأسه تصادى رفيفها في أذنه. وفي أول زقاق دخله تناهى له صوت قطرات ماء تتساقط.. لعلّه من خزّان ماء لم يُحكم سداد حنفيته.. دفع باب أقرب بيت إليه فانفتح.. ولج الظلمة وطغى على صوت قطرات الماء أزيز حشرات.. أشعل قدّاحته وجال في الغرف الخاوية.. في الباحة الوسطى وجد الخزّان، وعجب لأن حنفيته لا تنضح، «وإذاً صوت أي لعنة كنت أسمع؟». أدار الحنفية واضعاً حبّة الطماطم تحت دفق الماء.. جلس وراح يمضغ الصمّونة مع حبّة الطماطم.. الصمّونة كانت لينة على غير العادة.. وكان طعم الماء غريباً لمّا ملأ كفيه المضمومتين من الحنفية وشرب.. «ماء خائس»، قال، وكرع من زجاجة ربع العرق الثمالة وخرج.. نبحت في إثره الكلاب التي ما زالت سائبة، لكنها لم تلحق به، كانت تعرف رائحته. ولم يكترث لها، وظل يمشي في الدروب

الخالية تحت النجوم المتغامزة، في المهب البارد لهواء أواخر أيلول.. سقطت قنبلة ولم يتأكد في أية جهة. وشرعت بطرية المدفعية الرابضة جنوب البلدة تطلق قذائفها باتجاه الشرق.. أقبلت قذيفتان سقطتا معاً في البساتين.

وقف حكمت.. أخرج سيجارة، هي الأخيرة في العلبة.. أعاد العلبة الفارغة إلى جيبه وضغط بإبهامه وسبابته على بدن السيجارة الهش وأشعلها بعود ثقاب من علبة الثلاث نجوم، وسار وهو يدندن بكلمات ليست لأغنية، كلمات لا معنى لها ترد لخاطره فيلفظها، فيما القصف المتبادل بين العدوين اللدودين يشتدُّ في الجانب الآخر من عالمه.

***

نهارٌ آخر والشمس تطلع.. سبع فاختات على سلك الكهرباء، وعصافير الدوري تضجُّ في شجرة التوت.. الشجرة ترتعش في الهواء العذب.. الحرب هاجعة في هذه الساعة، والجنود وقد انتهوا من فترة الإنذار الصباحي يعدّون الشاي.. يراهم حكمت من فوق دار الحاج مرتضى.. إنهم بعيدون عنه لكنه يميّزهم، يتحرّكون بكسل بعد ليل مضن مزّقت عباءته عشرات القذائف الساقطة خلال الساعات العشر الأخيرة. كم قذيفة مدفع وكم صاروخاً وكم رصاصة؟. وكم يا ترى قُتل أو جُرح من الطرفين؟. نزل الدرج وغادر المنزل.. مشى باتجاه أول موضع للجنود بيده قدح من الفافون، ذو مقبض معقوف. طلب شاياً من أجل أن يدخِّن.. قال له العسكري الذي يضع على ساعده الأيسر خطّين أسودين متوازيين: «لكنك بدأت التدخين قبل أن تشرب الشاي». رمى

عقب السيجارة التي كانت عالقة بين شفتيه وقال: «شاي ليزيل طعم الزقنبوت». قال العسكري: «ثم لتدخِّن سيجارة ثانية». ملأ أحد الجنود قدحه من إبريق فافون اسْوَدَّ نصفه الأسفل..

«كم ملعقة سكّر؟».

«واحدة»

«بواحدة سيبقى مرّاً».

«واحدة».

وهو يجلس لفت انتباهه موقد الجنود؛ حفرة صغيرة في الأرض، على أطرافها ثلاث طابوقات.. قال: «أنتم تحرقون كتباً». قال الجندي: «وجدناها في أحد البيوت، تركوها فحملناها إلى هنا». كرّر حكمت: «أنتم تحرقون كتباً». قال العسكري ذو الخيطين الأسودين: «وما فائدة الكتب؟. إلى جهنم». قال حكمت: «451 فهرنهايت».. سأل الجندي: «ماذا؟». قال حكمت: «فهرنهايت». سأل الجندي: «ماذا تعني؟». قال العسكري ذو الخيطين الأسودين: «اتركه، عنده، في رأسه، فيوز محروق».. لم يحر حكمت جواباً، ولم يعرف من أين قفزت هذه العبارة (451 فهرنهايت) إلى لسانه.. من أي قاع من ذاكرته نطّت؟ وماذا تعني تحديداً؟، وتربّع جالساً على الأرض يشرب الشاي.. ناوله الجندي صمّونة عسكرية محشوّة بالجبن، أكل نصفها واحتسى ما في كأسه وأشعل سيجارة، ثم تناول ورقة من تلك المتناثرة حوله.. كان فيها صورة لوحة.. قال: «أنتم تحرقون بيكاسو». سأل العسكري ذو الخيطين الأسودين: «ومن يكون بيكاسو؟». قال الجندي: «ابن خالته».

واستغرقوا بالضحك.. أعاد حكمت ما قال: «أنتم تحرقون بيكاسو». قال الجندي: «الحرب هي التي ستحرقنا جميعاً». نهره العسكري ذو الخيطين الأسودين: «هم من سيحترقون، لا نحن». خرج جندي آخر من ملجأ محفور في الأرض وبيده جهاز راديو تنبعث منه موسيقى أغنية حماسية صاخبة وكلماتها.. سأل الجندي الأول: «ألا يتكلمون عن وقف إطلاق النار؟». قال الجندي الآخر: «هم رفضوا». جاء جنود آخرون وجلسوا ليتناولوا فطورهم.. تركهم حكمت وهو يصرّ على أسنانه: «هم يحرقون الكتب ليشربوا الشاي، يحرقون الكتب.. شاي وكتب، الكتب.. يحرقون الشاي، الكتب.. كتب، كتب، كتب».

أوّلُ صَحبه

لم يكن حكمت قد خطّط لولوج بيت رشيد سالم؛ كاتب العرائض أمام محكمة بداءة البلدة.. وجد الباب نصف موارب، دفعه ودخل.. كانت نزوة لا تفسير منطقي لها، ولعلّها المصادفة المحضة هي ما دفعته للدخول.. في الرواق المضاء بأشعة الشمس وجد بضعة أشياء؛ صحن بلاستك قذر، قدر ألمنيوم مثقوب، أكياس نايلون سود، دمية بلا رأس، مجلة قديمة مفتوحة تظهر منها صورة لفاتن حمامة.. مجلة أخرى مقلوبة على غلافها الأخير صورة كاوبوي وسيم وأنيق يمسك بلجام حصان أحمر ويضع في فمه سيجارة، وتعلو الزاوية اليمنى للصفحة علبة لسيجارة مارلبورو.. صحف ممزّقة.. كتاب الرياضيات للصف الرابع الابتدائي.. كتاب الجغرافية للصف الأول المتوسط.. دفاتر وأوراق مدرسية، أو غير مدرسية، متناثرة. وصورة كارتونية كبيرة ملوّنة من تلك التي تباع على الأرصفة لأم تسيل دمعة على خدِّها وفي حضنها طفل.. انحنى ليلتقط الصورة حين تهيأ له أنه يسمع صوتاً؛ غرغرة خافتة تنبعث من مكانٍ ما، من مجالٍ إنساني، أو حيوانيّ ربما.. انتصب واقفاً ومشى باتجاه باب مغلق.. أدار الأكرة بحذر ودفع لوح الباب الخشبي الذي كتب عليه الصغار بالطباشير عبارات مدرسية

شائعة، فهبّ في وجهه دفعة واحدة فيض من ظلمة، ورائحة زنخة، حادة، ووجه ملتح بعينين رماديتين زائغتين وأسنان صفر تصطك ويد حاولت الإمساك بزيقه.. تراجع خطوة، ثم استدار ليهرب وفي بدنه برودة الذعر. لكنه سرعان ما عاد لموضعه حيث كان، وقال: «راهي؟! تركوك لتموت وحيداً يا راهي».

خرج راهي متشبثاً بكمٍّ قميص حكمت:

«ماذا كنت تأكل طوال هذه الأيام؟».

غرغر راهي، كما لو أن فمه مملوءٌ بالماء، وبدا في نظرة عينيه توسّلٌ وعذاب.. خطا حكمت داخلاً الغرفة وما يزال راهي يتشبث بكمّ قميصه.

«وكنت تخرّي وتبول في الغرفة.. لم تخرج منها.. كنت تأكل من كيس تمر الزهدي هذا.. والماء؟!. هذه (الإنجانة) فارغة، شربت ما فيها كلها؟».

اتخذ راهي وضع الركوع وأمسك بساق حكمت وراح ينشج.

«لماذا لم تخرج، لم يكن الباب مقفلاً».

«قال لي؛ ابق هنا».

«قم، تعال، وجدها فرصة أخوك ذاك ليتخلص منك.. تركك للحرب، للجوع، للذئاب الجائعة.. يريدك أن تموت.. أقول لك؛ لا تمت.. دعه يمت غيظاً، ولا تمت.. لن أدعك تموت هكذا.. تعال معي، اخرج من هذا القبر.. البلدة لنا الآن.. لي ولك وللحمير والكلاب والطيور.. ليس هناك من أحد آخر، لا واحد من الخوّافين أولئك، تعال..».

قام راهي.. أمسكه حكمت من كتفه:

«جلد على عظم.. الحقير.. لكنك ستعيش.. هو يخاف الحرب.. الحرب ستدخل الشوارع والبيوت.. الغرف، أسرّة النوم، العظام والدم والأعصاب، وستحتل حتى الأحلام».

انعطف حكمت نحو النهر، وراهي يقبض بأصابع واهنة، لكن عنيدة، على طرف قميصه.. يسرع، يجاريه لاهثاً هذا المخلوق المهدّم، محني الظهر، ومحدودب الكتفين:

«سنسبح.. أنت أوسخ من بقرة مريضة.. سندخل النهر.. النهر لنا.. البلدة لنا».

راهي لا يتكلم، فقط يسمع إن كان يسمع، من يدري؟. شعره بلون الرماد المُبْيَض، طويل بخصلات تغطي أذنيه ورقبته، ولحيته كثة قذرة شعثاء تنحدر حتى نقرة الصدر، وصدره مشعر.. دشداشته بزيق مفتوح، قصيرة من قماش الكدري، مقلّمة، عتيقة، محكوكة، مثقوبة في أربعة مواضع أو خمسة، وعليها بقع دهنية متّسخة، تفوح منها رائحة البول.

نزل حكمت في النهر من غير أن يخلع قميصه وبنطاله، ونزل معه راهي بدشداشته، من غير تردّد.

«أتجيد السباحة؟. لنبق عند الحافة.. التيار قوي وعميق في المنتصف.. ستغرق هناك، وسيفرح بغرقك أخوك.. لا تغرق.. أبداً لا تغرق».

كان الماء يصل إلى مستوى منطقة البطن حيث يقفان، وراهي يرتجف:

«الماء بارد.. نحن في الخريف.. الشمس قوية.. بعد قليل لن تشعر بالبرد.. افعل مثلي».

هبط حكمت بجسمه في الماء حتى الرقبة، ومثله فعل راهي.

«والآن غطِّ رأسك في الماء».

أخفى حكمت رأسه في الماء، لكن راهي أبقى فمه وأنفه خارجاً ليتنفس.. أخرج حكمت رأسه وضغط على قمة رأس راهي بكفِّه القوية غامراً إياه كلياً في الماء... أبقاه على هذه الحال ثواني قليلة، وحين أخرجه راح راهي يشهق ويسعل، وقد مدّ لسانه خارج فمه وجحظت عيناه.

«لا تخف، لن تغرق.. من الجيد ألا تغرق كي لا يرتاح أخوك.. أخوك يريدك أن تموت.. لا تمت، فقط لا تمت.. أعرفه، كلب ابن (سطعش) كلب.. حقير.. صار بالحزب.. الحزب يلفّي مثل هذه الحثالة.. يلبس السفاري، والمسدس على طيزه.. لا يخيفني».

غطى حكمت رأسه ورأس راهي في الماء ثانية وأخرجهما، وراهي يشهق ويسعل ويبصق، وكأنه على وشك أن يتقيأ.

عاد به، بعد ساعة، إلى غرفته.. أعطاه رغيف خبز وعنقود عنب، التهمهما راهي في الحال.

«أنت جائع من عهد نوح».

من الكوميدينو الصغير أخرج زجاجتي عرق.. لحظ الارتجافة الخفيفة في يديه وهو يميّل الزجاجة الكبيرة ليملأ منها زجاجة الربع، وأسف لخسارته بضع قطرات سالت على طول القنينة وساحت على سطح المنضدة الخشبية.. اعتاد حمل زجاجة الربع دوماً، أو النصف أحياناً، في جيبه فهذا أسهل عند التنقل من مكان إلى مكان.

«لا تشرب عرق.. ضار بالصحة، ويطيّح حظك».

هزّ راهي رأسه، وقال:

«نعسان.. أريد أنام».

* * *

غادر غرفته مبكّراً تاركاً راهي نائماً فيها على حصيرٍ من خوص النخيل.. في الزقاق الخالي وثب مؤدياً سلسلة حركات راقصة.. بدا رشيقاً كما لو أنه يستمدُّ طاقة غريبة من موسيقى يستمع إليها لشوبان مثلاً.. حركات تشي بسيطرة حاذقة على الجسد.. ترك يده اليمنى متصلبة بموازاة جذعه قبل أن يمدّها باستقامة أمامه، واتّجه برأسه ناظراً إلى نقطة بعينها في قلب شجرة السدر الوارفة، خلف سياج بيتٍ حديقتُه واسعة. ومن ثم قوّس يده اليسرى على خاصرته وراح يجري ضارباً قدمه اليمنى باليسرى بتتابع موزون قبل أن يلتف على نفسه ويغيّر امتداد اليد وحركتها واتجاه النظر من اليمين إلى اليسار وتقوّس اليد على الخاصرة من اليسار إلى اليمين، ليجري خطوات في الاتجاه الآخر. ومن الزقاق إلى الشارع العام إلى الخلاء عند حافة البساتين تنقّل كما لو أنه غجري أسباني يؤدي الفلامنكو ويوشك على الطيران.. وأخيراً انحنى واضعاً راحة يده اليمنى على صدره يحييّ جمهوراً أرستقراطياً غفيراً متخيّلاً، في قاعة فارهة، وقف يصفق له. وفي هذه الآونة كان ثلة من الجنود يصفقون له ويصفرون.. ارتخى بدنه فوقف ينظر نحوهم.. رآهم في غلالة مضطربة، راعشة من الضياء القاسي. ولم يكد يصل إليهم حتى أقبلت سيارة جيب عسكرية، نوع واز، محمّلة بجرحى.. أنزلهم الجنود، وحكمت معهم،

ومدّدوهم برفق في ظل السيارة وكانوا ينزفون.. ضابط وجنديان.. قال الضابط الذي رافقهم؛ «اتصلنا باللواء.. سيارة الإسعاف في الطريق». وبقي الجنود الذين كانوا في المكان صامتين، وفي حيرة وخوف.. لم يقترب من المصابين أحد في البدء. الجنود بدوا مصدومين أمام أول منظر دموي حقيقي يشهدونه. طلب الضابط، الذي يحمل على كل كتف نجمتين، والذي جاء بالجرحى ماءً.. كان منهكاً، على وجنتيه الغائرتين شيء أبيض كالملح. وعيناه حمراوان كأنه لم ينم منذ أيام. قال بعدما انتهى من احتساء كأس الماء:

«هناك شهداء أيضاً، سيجلبونهم بعد قليل.. قصف العدو كان مركّزاً صباح اليوم».

أحد الجرحى يئن، والآخر فقد الوعي بعد أن غطّى صدره الدم، والثالث ينزف من ساقه، وكان في وعيه، يغالب ألمه شاداً بيديه السمراوين القويتين على أعلى موضع الجرح. ووقف حكمت يحدِّج بحيرةٍ وفزع في هؤلاء. سأل الملازم الأول عنه.. قال أحد الجنود: «سيدي، هذا حكّو.. هو مدني، لم يشأ أن يغادر البلدة».

قال الضابط: «أليس ممنوعاً تواجد المدنيين في مواضع القتال؟».

أقبلت سيارة واز أخرى أنزلوا منها قتيلين، تهيأ لحكمت أن أحدهما نائم ليس إلا، فلم تظهر على ملابسه أو رأسه قطرة دم واحدة، فيما كان الآخر غارقاً بدمه، وساقه تكاد تنفصل عن جسمه. وبعد دقيقة واحدة وصلت سيارة إسعاف عسكرية مسرعة حملت جثتي القتيلين، والجرحى الثلاثة، ومضت بسرعة هائلة إلى وحدة الميدان الطبية كما سمّاها العريف المضمِّد الجالس في صدر سيارة الإسعاف.

بعدما انجلى الغبار الذي خلّفته سيارة الإسعاف التفت الملازم الأول ثانية إلى حكمت يتملى هيأته من غير أن يقول شيئاً.. قال أحد الجنود: «إنه مخبول سيدي، يسكن البلدة وحده، يأتي مرتين في اليوم، من أجل الطعام والنقود».

«نقود؟!».

«نعم سيدي، يتنقل بين مواضع الجنود، يجمع ما يشتري به قنينة عرق، أو نصف قنينة».

«ومن أين يشتري العرق؟».

«من البلدة (ب) سيدي، يذهب إليها مشياً على الأقدام، وأحياناً بسيارة عسكرية.. نصف من في قاطع العمليات يعرفونه».

التفت إلى حكمت وقال: «أنت، تعال».

لم يتحرّك حكمت، قال: «تعال أنت».

لوى الضابط حنكه، وعضَّ على شفته السفلى، شاداً قبضته وكأنه يتهيأ لتوجيه لكمة.. غير أنه أرخى يده وضحك، مقترباً من هذا الأرعن الذي لو خاطب ضابطاً آخر لربما أشبعه ضرباً.

«ما اسمك؟».

«حنّون».

«قالوا لي؛ اسمك حكّو».

«ولماذا تسأل إذاً».

«لأتأكد».

«لن تتأكد أبداً.. مَنْ يعرف مَنْ هو أيُّ أحد».

«أتملك بطاقة هوية؟».

«أنا أنا، ما حاجتي للبطاقة؟».

«وكيف أثبت أنك أنت».

«لن تثبت.. لن تستطيع».

«إذاً وجودك غير قانوني».

«غير قانوني لا يعني العدم».

«ماذا؟!».

«ووجودك لا يعني عدمي».

ابتسم الضابط وقال: «الخوف من أن نكتشف فيما بعد أنك جاسوس، أو ماسوني.. كل شيء جائز». ثم أطلق ضحكة مجلجلة، قال حكمت:

«وأولئك، في سيارة الإسعاف؟».

«ما لهم؟».

هزّ حكمت رأسه، وفتح راحته أمام وجه الضابط:

«درهم».

«أنت مخبول حقاً».

«ليس بقدر ما في الحرب».

«ماذا؟. أنت تهذي.. كل ما تقول لا معنى له».

«ما المعنى في أن أصاب بإطلاقة».

«ما المعنى في أن تكون لحيتك قذرة».

«ما المعنى في أن تكون على كتفيك نجمتان، أين القمر؟».

تحامل الجنود على أنفسهم كي لا يضحكوا.. صاح الضابط:

«ابتعد، لو كانت وحدتي هنا لأعدمتك».

رفع حكمت قدمه اليسرى عالياً ودقّ بها الأرض مؤدياً التحية العسكرية بكلتا يديه.. استدار.. نزع نعليه، وانطلق يركض حافياً.. جرّحت قدميه الأشواك والحصى إلاّ أنه لم يبالِ.. وكانت قذيفة مدفع تسقط في مكان ما، ورأى الطيور تهيج، خارجة من قلب البساتين، وعرف أن عدداً آخر من النخيل، لا شك، قد نُحر الآن.

***

من سطح دار الحاج مرتضى العالي يطلُّ حكمت على قوس الحرب؛ على الأفق المنحور بمئات وآلاف القذائف وهي تمزِّق بصلافة سكينة الليل.. يرى نافورات الضوء تنبثق في مدى نظرته، ويسمع ما يشبه دمدمة الطبول. وطوال ساعة لن يكفَّ عن التدخين. يراقب فقط، ولا يتساءل. ولن يكترث لعواء بنات آوى في الأحراش القريبة. لن يخطر أيٌّ ممن يعرف على باله. ولن تذكِّره السدرة الساقطة في باحة البيت، وهو يراها من مكانه، بأرجوحة كميلة.. كما لن يسحق بظفره بقّة واحدة من تلك التي راحت تلسعه بلا هوادة. وأيضاً لن يتزحلق بذهنه في أية حكاية

حادثة أو متخيّلة. وسيجافيه الحلم والتفكير والرؤى، حتى ليحسّ كأنه اللاشيء في الزمن المحض، وفي المكان المجرد بأبعاده الثلاثة، لا غير.. لكنه سيستعيد عبارة واحدة قالها له في أول هذه الجائحة الدكتور راسم: «أنت يا حكمت، الشاهد الأصيل على ما يجري. لكنك للأسف الشاهد الذي لن يدلي بشهادته في أي محفل أو محكمة».

وحتى حين تهدأ الجبهة، ويتطامن الوجود ويهجع الجنود لن يكفّ عن التدخين، ولن يسحق بقّة واحدة على جلده، ولن يتذكّر. وسيعجز عن الحلم. ولن ينزل من فوق سطح دار الحاج مرتضى العالي إلا مع شعوره بالحاجة إلى احتساء ما يُسكت عطشه اللاظي.. وفي غرفته سيكتفي بجرعتين من قنينة العرق، وسيأكل قطعة صمّون عسكري، وحفنة من التمر. وسيفتح دفتره. وبقلم الجاف، في متاهة الصفحات البيض، سيضيع في فوضى أشكال غامضة.

قبل الحرب بثلاث سنوات وبضعة شهور

جاء بها القدر السعيد؛ الحظ الذي قلما يبزغ هكذا، ويومض في أفق العمر.. في قاعة الرسم كانوا سبعة؛ أربعة طلاب وطالبتان، وهي.. هي الفتاة الأخرى؛ صديقة واحدة من الطالبتين، وهذه، واسمها أريج، اقترحت عليها:

«نهلة، لو تجلسي هناك، نريدكِ موديلاً».

لم تمانع.. نهضت بثقة وجلست على الكرسي المرتفع كأنها دوقة شابّة من ممالك أوروبا القرن التاسع عشر. وشرعوا يرسمون.

مأخوذاً باستدارة وجهها. بعينيها اللوزيتين. بنعومة جلد الرقبة وشحوبه المبهر. بشعرها الولّادي الأسمر بالكاد يغطي أذنيها. بكتفيها الناحلتين. بالوهج السرّي المنبعث من فمها، من شفتيها اللتين تذكِّران بالعنب والتوت، وترسلان تلك الابتسامة الصافية الشفيفة التي سحرته تماماً، بدأ يرسم. ومع أوّل خطٍّ على الورقة العريضة أدرك أنه تحت وطأة إحساس بهيج نادر لم يخبره، من قبل، قط.. رغوة سارّة تصعد في صدره تختلط بالدم والأعصاب، وتُعلمه أن شيئاً ما، في هذه اللحظة، تبدّل في حياته، وإلى الأبد.. حدسٌ نقيٌّ غامض، مستحوذ تملّكه تماماً، وأصابعه ممعنة

في تحشيد الخطوط كما لو أن شخصاً آخر في داخله هو الذي يرسم؛ شبحه أو أناه الثانية. شخصٌ غريب لم يسبق أن تعرّف عليه إلّا الآن.

ما رسمه في النهاية كان جيداً، هذا ما قالته هي، وما أكّدته صديقتها أريج أيضاً.. كانت شخصيتها الخفيّة هناك، تطلُّ من قسماتها. وأهداها البورتريه، داعياً إياهما؛ نهلة وأريج، إلى كافتريا الأكاديمية، ليشربوا عصير البرتقال ويتحدّثوا.

تحلّقوا، في الكافتريا، حول منضدة في الزاوية.. تكلّم عن الوجوه المعبِّرة التي تغري أيَّ رسام، وتمنحه منشِّطاً كي يرسم، وأخبرها أنها تمتلك مثل هذا الوجه.. ليس هو جمال ملامحها وحده ما يميّزها، قال لها، بل ما يفصح عنه وجهها من غنى الروح وقوة الشخصية، وذلك الغموض الذي لابد من أن يوحي به وجه أي موديل ذي اعتبار.. وقال لها وقد شاب صوته قليل من الغرور والتبجح: «يوماً ما سأرسمك في لوحة كبيرة. ستكونين موناليزتي الخاصّة».. قالت أريج: «أواثق من أنك ستلتقيها ثانية». قال: «وثالثة وسابعة وعاشرة، وألفاً». ضحكت الفتاتان وتعجّب هو من جرأته الطارئة هذه، والتي يفتقر إليها، لاسيما مع النساء الفاتنات.. كان في هذه الساعة متحرِّراً، إلى حدٍّ بعيد، من خجله القروي، من تردّده وتحسّبه. كان يعيش فرح المغامرة وقلقها وإثارتها. مفعماً بالحيوية والطاقة، متفتح النفس مثل طائر فتي في وهج الصباح. واستغل بذكاء الدقائق الخمس التي غابت خلالها أريج في تواليت الطالبات.. قال لها: «عليكِ أن تأتي مرّة أخرى وأخرى». قالت: «أهذا أمر؟». ضحك وقال: «لا، لا.. أنت الأميرة التي تأمر وتُطاع». وبدت كالمسرنمة وهي تعطيه رقم هاتف منزلها.

«لم أسألكِ من أيِّ كليّة أنتِ».

«أنا طالبة آداب، مرحلة ثالثة، قسم الصحافة».

«كُليّتك قريبة جداً من هنا».

حين جاءت أريج، فهمت حالاً بحدسها الأنثوي، أن شيئاً ما قد حصل، في أثناء غيابها الوجيز، بين هذين الكائنين الجميلين. وانتابها، كما بان في نظرتها الحائرة، خيطٌ ضئيل من الغيرة، واكتفت بابتسامة.

في العاشرة من مساء اليوم نفسه، كما اتفقا، اتصل بها من كابينة الهواتف العمومية في باب المعظم، القريبة من القسم الداخلي حيث يقيم. وتحدّثا لنصف ساعة.. كان يمسك الحاكية بيد وباليد الأخرى حفنة من النقود المعدنية، يلقي بها قطعة إثر قطعة في فتحة صندوق الهاتف بانتظام كي لا ينقطع الخط.

في أول لقاء، وهما معاً، لوحدهما، في محل يقدِّم المرطّبات قال لها: «أنا شبه مفلس، في الغالب، لن آخذكِ إلى مطاعم وكافتريات غالية، ولن أرفض إن فعلتِ أنتِ، فلستُ من النوع الذي يشعر بالنقص.. لكني معكِ اليوم أشعر بالثراء في الداخل. وجودكِ يغنيني عن العالم كله.. أشكر القدر لأنكِ معي، هنا، في هذه الساعة، وأريدكِ دوماً، هكذا، طليقة مثل حمامة بريّة، فيكِ عنفوان الحياة، وعندكِ هذا القدر غير المعقول من الجمال».

«آه.. أنت تتخيّل.. لست جميلة إلى هذا الحد».

«المهم كيف تراكِ عيناي».

«أتريد إغوائي؟».

«أريد أن أعيد ابتكاركِ، في كل يوم، بالشعر والرسم والموسيقى، هذا حلمي الصعب».

«هل أنت شاعر أيضاً، وموسيقي؟».

«لا هذا ولا ذاك، وأتردد في أن أصف نفسي بالرسام، ربما بعد سنة، بعد سنتين، بشرط أن تكوني معي.. لن أبلغ فراديس الإبداع إلا معكِ، وعندها ربما سأكون شاعراً وموسيقياً ورسّاماً في الوقت نفسه».

«ألستَ تبالغ؟. لم يمض على تعارفنا أكثر من أسبوعين، وهذا لقاؤنا الحقيقي الأوّل، وبدأت تقول مثل هذا الكلام الكبير».

«أشعر أنّي أعرفكِ منذ سنوات بعيدة. منذ الأزل. مذ كنتِ جنيناً في رحم أمّكِ. مذ كنتِ إمكانية حياة جديدة في قلب الطبيعة. مذ كنتِ فكرة في دماغ الرب».

ضحكت، رنّت ضحكتها كجرسٍ رائقٍ عذب.. قال: «سأبقى أرسمكِ يا نهلة في ألف لوحة، ستكونين حتى في لوحاتي التجريدية، وفي تلك التي يسمّونها الطبيعة الصمّاء، سأسكب فيها كلها شيئاً من رائحتكِ، من بهاء روحكِ.. سأضعكِ في كل ما أقول وما أخط.. سأجعل العالم يراكِ في رسومي، في كلامي، في نظراتي».

ضحكت بارتباك.. قالت:

«أنت مجنون».

«وما الضير في أن أكون مجنوناً إذا كان معنى الجنون هو أن نحاول صياغة العالم في ضوء أحلامنا».

«ياه.. ماذا أقول؟. أنت لا تعيش الواقع».

«أحلامنا، وأنت كائنة، أمام عينيّ، هو الواقع».

«أتعرف؟ كلامك يحيّرني ويربكني.. تذهب بعيداً جداً، فيما يجب أن نكون هنا، لأننا هنا حقاً وليس في أيِّ مكان آخر. أظنّني أكثر واقعية منك بكثير.. أنت فنّان، ومن حقِّك أن تحلم كما تشاء. لكن أن يُغرقك الحلم في النهاية هكذا، ويُنسيك نفسك والعالم والظروف فهذا قد يؤذيك لاحقاً. ستستيقظ يوما ما وأنت محبط، لأن كل شيء لم يجرِ كما أردت، وكما حلمت».

«أعرف هذا يا نهلة، وأفهمه تماماً».

«لا يبدو أنك تعرفه جيداً وتفهمه جيداً.. الشيء الجميل في كلامك كله هو أنك تريد أن ترسم ألف لوحة.. الواقعية تتطلب أن تبدأ بالتخطيط للوحتك الأولى.. أن تعمل».

«أنتِ برغماتية يا نهلة».

«ما معنى برغماتية؟».

«برغماتية معناها؛ عملية، نفعية.. تقيسين نجاح الفكرة بنجاح تطبيقها».

«أنا برغماتية إذاً.. لأسجِّل معنى هذا الاصطلاح».

ومن حقيبتها استلت قلماً ومفكرة صغيرة دوّنت فيها جملتين وأعادتهما، ثم رفعت وجهها إليه وابتسمت.

«لتخطِّط، منذ الساعة هذه، للوحتك الأولى».

وكانا في زاوية مخفيّة، ظليلة، قبل حلول الغروب، بين أشجار كالبتوس عملاقة، في عزلة آسرة، في متنزه الزوراء. وضع يده تحت أذنها، أمالت رأسها وأطبقت على كفّه بين جيدها وكتفها. قرّب وجهه من وجهها وقبّل فمها قبلة سريعة ارتعشا على إثرها معاً، وألفى يده تطوِّقها، وشفتاها تنسحقان بين شفتيه. بحث عن لسانها بلسانه. اصطدمت أسنانهما. وملأته حلاوة ريقها بالنشوة، ونهداها ينعجنان على صدره، وهو يضمّها بقوة. وأخيراً حين أحسّت بشهوته تتضخم وتلمس جسدها هزّته برفق فانسحب، وجلسا صامتين على حافة ساقية جافّة على الأرض.. قال: «آسف». قالت: «لنذهب، تأخّرنا».

«تعرفين أنني أحبّك».

«لنذهب.. تأخّرت.. أبي قلق عليّ الآن».

قامت وهي تنفض التراب العالق بتنورتها، ونفض هو التراب العالق ببنطاله.. سارا من غير أن يتفوّها بكلمة واحدة. خرجا إلى الطريق والمصابيح تكوِّن جزراً مضيئة واسعة.. مرّا بعائلات تجلس على العشب وأطفال يلعبون. وصلا الشارع العام خارج بوابة المتنزه، وقبل أن تصعد الحافلة قال لها: «أنا آسف، أندفعُ أحياناً بشكل أخرق».

صعدت، وبقي على الرصيف يغمره إحساس بالندم والقلق. وحين جلست في الطابق الأعلى من جهة النافذة رآها تنظر إليه، من فوق، بتعابير حيادية بلبلته.. تحرّكت الحافلة.. لوّحت له وابتسمت، فاشتعل فرحاً.

* * *

جلستْ ليرسمها؛ هذه هي اللوحة الأولى من اللوحات الألف الموعودة.. قبّلها قبلات سريعة وهو يقترح عليها وضعية الجلوس على (الاستول).. قبّلها على العنق والحنجرة والحنك والفم والأنف والوجنتين والعينين والأذنين والجبين، كي تتورّد وتحمر، هذا ما قاله لها.. كانت قبلاته تتقافز مثل فراشة لاهية على حشد من الورود، فيما هي، لتداري شعورها بالإحراج، تكركر، وتقول: «كفى».. وأخيراً دفعته وقالت: «جئنا لنرسم وليس لأيِّ شيء آخر، ألا تخشى دخول أحدهم». «حسناً». وعدّل خصلات شعرها القصير، أمال جذعها ورقبتها قليلاً، طالباً منها أن تضع ساقاً على ساق، ثم كفاً فوق الأخرى، وأراح الكفّين على ركبتها، وقد ظهر جزءٌ منها عارياً لامعاً بعد انحسار الفستان الرصاصي عنها.. أحسَّ بنفسه منتشياً، سعيداً بوجودها معه وحيدين في قاعة الرسم بعد الساعة الثالثة من عصر ذلك اليوم الإبريلي الرائق. وانغمس في الرسم، ورأى حُبيبات عرق تتكوّن على جبهتها وصدغيها.. قال: «رجاءً لا تمسحيها». وكانت ملامحها قد بدأت تتوضّح على اللوحة حين فتح أحدهم باب القاعة وانتصب ثمة في اندفاع ضوء الشمس إلى الداخل ووجهه غارق في الظلّ المعتم.. توقّف عامر ونظر باتجاه الرجل الواقف.. أطالا النظر أحدهما إلى الآخر.. تراجع الرجل وأغلق الباب ثانية، وعاد هو إلى لوحته.. قال: «فضولي أحمق» فابتسمت هي. غير أن الباب انفتح كرّة أخرى بعد دقيقتين، ودخل رجال ثلاثة عرفهم حالاً؛ إنهم من لجنة أمن الأكاديمية.. سأله الأقصر قامة بينهم: «ماذا تفعلان هنا؟».

«كما ترون، أرسم».

«بعد ساعات الدوام الرسمي».

«غالباً ما نبقى بعد الدوام نرسم».

«نعم، ولكن ليس طالباً وطالبة، والشيطان بينهما».

ضحك الرجال الثلاثة، بينما قامت هي ووقفت على مبعدة وقد اعتراها الخجل والذهول.. قال:

«ماذا رأيتم سوى أنها جالسة على الاستول وأنا أرسم؟».

سألها القصير: «من أيِّ قسمٍ أنتِ؟».

«من كلية الآداب».

«ها.. يعني استوردكِ من بلاد أخرى».

واستأنفوا الضحك.. قال: «هي زميلتي، طلبتُ منها أن أرسمها.. سبق أن صارت موديلاً لمجموعة من الطلاب والطالبات هنا».

التفت القصير إليها: «بطاقة هويتكِ».

أرته بطاقة هويتها.. دوّن شيئاً في دفتره الصغير، وطلب منها أن تغادر.. رمقته وهي مضطربة، فأشار لها بعينيه أن تخرج، فخرجت:

«ما اسمك ومن أيِّ قسم؟».

«عامر حميد عباس من قسم الرسم».

دوّن المعلومة في دفتره أيضاَ مع ملاحظة ما.. وقال:

«اسمع عامر.. لا أريد أن يتكرّر الأمر.. أستطيع أن أكتب تقريراً بالحادث وأؤذيك، لكني لن أفعل في هذه المرّة. أما في المرّة القادمة فلن تلوم إلا نفسك. ولا أريد لهذه الفتاة دخول الأكاديمية ثانية».

«حسناً».

«يللا يا بطل، احمل لوحتك واترك القاعة».

لم يجدها حين خرج، وقبض على صدره الجزع والحنق حتى حلول ساعات الليل.. اشترى شطيرة كبد مشوي من عربة في منطقة الميدان، وجلس في مقهى صغير.. أكل الشطيرة وأحسّ في فمه بشيء من المرارة.. شرب الشاي ومكث على الأريكة نفسها ساعتين أو ثلاثاً من غير أن يفعل شيئاً.. وبين الفينة والفينة كان يرفع رأسه إلى التلفاز الموضوع فوق كومودينو عال: بدأت نشرة الأخبار الطويلة التي لم يركِّز عليها. أعقبتها أغنية وطنية صارخة، ومن ثمّ كامل الدباغ يقدّم برنامج (العلم للجميع)، يتحدث مع ضيفه عن ظاهرة الزلازل والانهيارات الأرضية. وحين أدار رقم هاتفها في الكابينة القريبة من المقهى لم تجب.. ظلَّ تلفون بيتها يرنُّ من دون جدوى. وحاول مراراً مع التلفون اللعين حتى يئس.. تابع شطراً من فيلم السهرة الأجنبي، وكان فرنسياً لم يعرف عنوانه، يحكي عن اختباء رجل من المقاومة، مطارد، خلال الحرب العالمية الثانية، في منزل امرأة.

أنعشه هواء منتصف الليل البارد وهو يسير نحو القسم الداخلي في حي الوزيرية.. صادف بعض المارّة، ومنهم سكارى. ولفت انتباهه شاب يصطحب امرأة ترتدي عباءة وقد ظنّ، للحظة، بهما سوءاً، لكنه سرعان ما نسيهما.. سيارات قليلة تمرق، وهو يمسك لوحته غير المنجزة، الملفوفة بورق حائط أسمر، وذهنه في أقصى حالات شروده.

ستردُّ عليه في الليلة التالية.. سيمضيان بضعة أسابيع، ودائماً خارج الأكاديمية، وهما يشعران كما لو كانا في فردوس.

***

للمرّة الثانية يلمسها. يختلج عصبٌ ما في وجهها. في زاوية فمها. تتوهّج. تتصادم في داخلها فيوضٌ من مشاعر مختلطة؛ ارتباك، بعضُ قلق، رشقات من غبطة.. تتقد في دمها متعة كاللهب.. تبدو مضطربة، ولمسته تنحدر الآن من خلف أذنها، على زغب رقبتها، تستدير إلى نحرها، تصعد إلى حنكها، تمر بغمازتها، على أرنبتي أنفها، تكون الآن بالسبابة والإبهام، تعصران برفقٍ شفتيها.. يخالها وكأنها على وشك فقدان التوازن، وفي عينيها لمعة عجيبة يلمحها ويتولاه السرور. إنه هو الآخر مضطرب في ما تحت جلده، داخل قفصه الصدري، ومعدته تتقلّص.. يتحلّب حلقه.. يتدفّق من تحت لسانه سائل حلو. فيما هي مهيأة بفمها الكرزي الصغير، بلعابها الذي تعسّل، باهتياج روحها، أن تذعن وتستسلم، وتذوب فيه.

هكذا انجرفا مع إغواءات قُبلهما.. قُبل قصيرة طائشة مرتبكة خرقاء، لكنها مشبعة أيضاً، مثقلة بما لم يخبراها من قبل، واعدة باللذائذ والفراديس. وألفاها، الآن، بين ذراعيه النشوانتين، وصدرها وقد سُحق على صدره.. كانا مغمورين بروائح بعضهما.. رائحته الذكورية اللافحة وهي تسطو عليها، تدوِّخها، ورائحتها الأنثوية الناعمة الدافئة تلقيه في بحران من الصفاء والعذوبة.. نهداها الصغيران الصلبان المتوثِّبان جعلاه يهدأ إلى حد، يستكين ويشعر بالامتلاء، بالرواء. مثلما كان ذاك إحساسها هي الأخرى مع خيطٍ غامضٍ رفيع من الشعور بالخوف والذنب والندم. بيد أنها لم تحاول أن تحرِّر جسدها منه، من احتضانه القويّ الراسخ. ولوهلة خطر لها أنها مطوّقة بقدرها، مع شيء من الخشية بأن ما يحصل، في هذه اللحظات، ربما ليس سوى حلم عابر، جميل، غير أنه آيلٌ إلى التبدد.

لم يفكِّر بأبعد من هذا. وعجب من نفسه لأن الشهوة لم تندلع في دمه، كما في المرّة السابقة، وتتزلق سفلاً، وتصيبه بذلك النوع من الجنون، حيث تتمادى الرغبة وتحمله على أن يضغط أكثر ويتحرى في جسدها عن زوايا وأشياء أُخر.. كان مكتفياً، في ذروة القناعة. وفهم أنه ببساطة تامة يحبّها، وأنها تحبّه، وأن العالم لن يعود بعد اليوم كما كان. فقد عثر على الجوهر، وإنْ لم يدرك بعد ما هو. وعلى المعنى وإنْ كان عصيّاً عليه أن يصوغه في جملٍ وكلام. وكان قد اقتنع، أو أقنع نفسه، أنه أقدر على أن يبثّ لها مدى افتتانه بها، سعة شغفه، ورؤياه، بالرسم، لا بالكلمات. أنْ يعبِّر لها بالخطوط والألوان..

خطوط اللوحة الثانية التي رسمها كانت دافئة حميمة مشرقة، مع شيء من الحيرة والهمّ الخفي والغموض على محيّا الوجه. حتى أنها تساءلت: «أهذا أنا؟». قال لها: «هذا أنتِ مع الشعاع».. علّقت ضاحكة: «مع الشعاع أم مع وهمك؟». وكانت هناك واقفة، تترامى وراءها الأرض المعشبة؛ الأخضر البرّاق الصاعد حتى حواف سماء تفيض بالضوء. لكنها رصدت، في عينيها هي، كما ظهرت في اللوحة، انتفاضةَ قلقٍ وحزناً بيّناً.. أخبرته عن هذا ولم ينكر.. قال: «لم أستطع أن ألفِّق ما لم يكن هناك ساعة رسمتك. أقصد؛ الفرح والأمان». قالت: «لكنك لفّقت ما حولي، خلفية المشهد».. قال: «أردت أن أكون حرّاً في حلمي». قالت: «أهذا ما تسمّونه؛ التناقض، التضاد.. أو ماذا؟». قال: «لا تهمّني التسميات، وربما غيّرتُ الخلفيّة».

بعد يومين أراها ما عمل بلوحته.. كانت، في هذه المرّة، واقفة على رصيف محطة خالية، في وحشة مساءٍ شتوي كامد.. قالت: «حقّقت

نوعاً من التوازن الآن.. هذه الوقفة، هذه النظرة، هذه التعبيرات لابد من أن تكون لامرأة على وشك الرحيل».

«أو ربما بعد رحيل القطار.. إنها نظرة ما بعد الوداع.. ربما كانت تسمع الهدير البعيد للقطار المغادر.. لقد رحل وتركها للانتظار».

«كأنها ستبكي».

«لا، إنها قويّة بما يكفي لتغالب دموعها، لتروِّض حزنها».

«من يدري ماذا سيحدث بعد ساعة.. بعد أيام وأسابيع».

«حقاً، من يدري».

في بارٍ بشارع الخيّام احتسى بضع كؤوس كبيرة من البيرة. كان يطيب له أن يرشف الزبد المتكثف على سطح السائل الذهبي المتدفق من براميل (درافت).. بيرة لذيذة مع حبّات قليلة من الفستق الحلبي وأم كلثوم تغني برتابة آسرة (أنا وأنت ظلمنا الحب).. كان على تخوم السكر.. روحه في مرمى ذلك المهب من الانفعالات والخواطر التي تجعل ذهنه حرّاً، وتتركه مستثاراً، متألقاً في الداخل.

استحضر نهلة أمام عين بصيرته، وتطوّحت أصابعه يرسمها في الهواء المشبع بدخان السجائر.. صار يفكِّر أن يرسمها وهي لا ترتدي أيّ شيء.. لوحة يطلق عليها مثلما فعل رينوار وبيكاسو عنوان (امرأة عارية).. يعيد جسدها وقد تخلى عمّا ألقت عليه الحضارة من حُجب وأقنعة إلى براءة الوجود ووحشيته. إلى حوّاء ما قبل واقعة التفّاحة. عندئذ ستسطع، عبر التكوين العاري الفذّ لنهديها وبطنها وفرجها ووركيها وفخذيها، روحُها غير المقيّدة بالمحرّمات، وهي في ذروة الطُهر والكمال. أما الخلفيّة

فستكون أمواجاً متلاطمة من النور. كان يرسم في الهواء، على قماشة لا مرئية.. الفرشاة يتخيّلها. يمسكها بثقة بين السبابة والإبهام والوسطى. يدخلها في باليت افتراضي. تمتزج فيه الألوان وتتغير مثلما يريد. بأروع ما يكون. ويخرجها وهي تلمع.. ويرسم.

لمح وجهاً على المائدة المقابلة يبتسم له. لم يكترث.. كان كهلاً في الخمسين أو يزيد.. رفع كأسه وقال: «في صحّة الإبداع والمبدعين».. هزّ عامر رأسه، وعلى وجهه تعبير خفيف من الاستياء والغضب.. لم يكن يريد لأي شيء، لأيّ كائن، أن يقاطعه، أن يزيح هذه الرؤية.. وقد فهم الرجل أن هذا الشاب، ذا السترة الزرقاء، لا يرغب بالصحبة، فرفع بصره يتأمل السقف الخشبي المزخرف للبار.. كان عامر في حضرة فتاته العارية، وهي الحقيقة التي لن يعرفها الرجل الكهل المستوحد أبداً.. مع نهلته التي تفيض أنوثة وقوّة روح.. ما كان يريد إلا أن يرسمها. أن يحيلها إلى صورة خالدة تتنقل بين متاحف العالم لقرون قادمة. ولم يعتوره أي ميل حسّي تجاهها.. لم يرد حتى أن يلمسها؛ يعانقها أو يقبِّلها.. كان يريد اللوحة. وفكّر إنْ كان من حقِّه أن يتصوّرها هكذا، عارية، من غير استئذان، ويرسمها كذلك، في ضوء المخيّلة.. فها هو الآن يراها، كما هي، بنعومة ورقّة بشرتها. بنظرتها الحلوة. بشعرها الولّادي القصير. بطلاقة صدرها وتوتر خصرها. وبساقيها المصقولتين مثل ساقي تمثال أفروديت.

حين انتهى من كأسه الخامسة كانت اللوحة قد غامت، وانسحبت نهلة إلى ما وراء خطِّ أفقه.. قام إلى المائدة المقابلة حيث يجلس الرجل الكهل.. لم يجده ثمة.. أخبره عامل البار أن الرجل غادر قبل ربع ساعة:

«أحببت أن اعتذر إليه».

«لِمَ؟ أتعرفه؟».

«لا عليك».

«فقد زوجته قبل شهر في حادث سيارة.. هو زبون دائم هنا».

«آسف.. قل له إن الرسام يعتذر إليك».

«الرسّام؟».

«نعم، وسيفهم».

* * *

«أنا أتحدّث عن المستقبل، حيث لن يبقى هناك فقير أو معوّز، وسنكون أحراراً».

«هذه الرومانتيكية يا عامر لا أراها تجدي، ويوماً ما ستكتشف أن العالم لا يسير بحسب أهوائك وأفكارك.. سيصدمك الواقع يوماً ما ويكسر رأسك كما يقول أبي».

«تتحدّثين كما لو أنكِ عجوز في الستين خبرت الحياة وخاضت التجارب الصعبة».

«أنقل لك، كما قلت، ما ظلّ أبي يردّده ليل نهار.. أبي اشتغل بالسياسة في الخمسينيات.. كان يسارياً مثلك، لكنه تحوّل بعد سنتي سجن لمعاداته انقلاب 1963 إلى تاجر.. ترك مهنة المحاماة والسياسة وصار تاجر أقمشة في الشورجة.. يقول إنه أحد الناجين، وقد حظي بوقتٍ إضافي».

ألفيا نفسيهما في الأعظمية.. اقترح أن يمشيا المسافة إلى ساحة عنتر، ومن ثم إلى الكسرة وشارع المغرب، ومن هناك يمكنها أن تستقل تاكسياً يوصلها إلى مسكنها في حي اليرموك.. اعترضت: «لا أريد العودة إلى البيت ليلاً.. ماذا سيقول عني الجيران؟».. ضحك بانتشاء.. عبرا الشارع وصعدا حافلة ذات طابقين.. تسلقا السلّم إلى الطابق الأعلى على الرغم من أن نصف مقاعد الطابق السفلي لم تكن مشغولة.. جلسا وقد تشابكت أصابعهما، فيما الحافلة تسير ببطء نحو باب المعظّم.

«لم تحكِ لي قط عن أبيك وأمّك، عن عائلتك».

«أبي عسكري متقاعد سكّير لم أره منذ سنة.. أمي ماتت وهي تلدني.. أخي عامل في شركة باتا.. أختي مطلّقة، تشتغل خيّاطة لتعيل نفسها وابنتيها في المدينة (ع).. كما ترين لست ابن حسب ونسب».

ركّزت نظرها بعينيه:

«عامر، هذا كلّه لا يهمّني.. تهمّني أنت.. لم أتوقّع منك هذه الدرجة من الصراحة».

«لم أتوقّعها من نفسي أيضاً.. ربما سأندم حين أفكّر بما أخبرتكِ به حين أستلقي الليلة على الفراش، وقد يجعلني أعاني الأرق.. أظن أنني تخلّصت، دفعة واحدة، مما أردت أن أخبرك به مذ تعارفنا قبل شهر».

هبطا عند مدخل شارع المغرب.. بخطوات متمهّلة قطعا الرصيف باتجاه الوزيرية.. وقفا تحت أشجار الكالبتوس العالية من غير أن يأبها لهدير السيارات، وصخب المارّة.. بديا وكأنهما الوحيدان الناجيان في

هذا العالم بعد زلزال كوني مدمِّر.. كان همسه ينفذ إلى جوهرها. إلى لبِّ جوارحها فيُحدث ثمة رعشةً وفرحاً.. كانت تتفتح له مثل جوريّة معافاة، وهو يخبرها بما يتمنى أن يفعل بحياته من أجل حياتيهما معاً، متحاشياً التطرق ثانيةً إلى تاريخه والتحدّث عن عائلته. عن طفولته العالقة على مشجب البؤس. عن بضع علاقات عابرة مع فتيات ساذجات كادت واحدة منهن تخرّب مصيره.. عن زياراته المتباعدة إلى منزل مومسات سرّي في منطقة الميدان.. عن عمله في العطل الصيفية تحت الشمس الشرسة لتموز وآب عاملَ بناء أو حفر.. دفع هذا كلّه إلى الزاوية المظلمة من ذاكرته ليكشف عن أحلامه اللاهثة.. قارن بين فان كوخ وبيكاسو.. قال إن رائده بيكاسو وليس فان كوخ.. يرغب بالشهرة والمجد والثراء في حياته وليس بعد أن يموت. قالت له: «بيكاسو كان زير نساء لم يكتفِ بامرأة واحدة».. قال: «تكفينني أنتِ.. أنتِ لستِ أية امرأة.. أنتِ نهلة التي ستجعلني أرسمها في ألف لوحة.. ستكونين أشهر مني.. سيقولون؛ هذه نهلة، ولكن الرسام من؟ ما اسمه، نسيت». ضحكتْ وقالتْ: «أخاف عليك من أحلامك». ردّ: «أحلامي سنحقِّقها معاً». «أنا برغماتية كما وصفتني».. ضحكا.

كانا يتّجهان الآن نحو تقاطع الوزيرية حيث يقع، على مسافة قريبة منه، القسم الداخلي الذي يسكنه.. توقفت وقالت: «وأنا.. ما دوري أنا في أحلامك.. لن أرضى بدور الملهمة.. لن أبقى مجرد موديل.. أنا لي أحلامي أيضاً.. لا تنس أنني أدرس الإعلام.. لن تحظى مني بأوقات فراغ كبيرة.. من أين سأجيء لك بالوقت لأقف أمامك فيما أنا مكلّفة بكتابة ريبورتاجات صحافية.. سأكون خارج البيت أغلب ساعات

النهار».. سكت قليلاً.. ابتسم.. قال: «سنحلُّ هذه المشكلة في حينها».. دركرت، أمسك يدها.. قالت: «نحن في الشارع، ويمكن أن يرانا أيّ أحد يعرفنا». غير أنه لم يفلت يدها.. فاجأته بالقول: «أنت تصف نفسك باليساري، لكن أحلامك تكشف عن برجوازي مؤصّل». أطلق ضحكة صاخبة لفتت انتباه المارّة القريبين منهما.. ابتسم بعضهم، وعلّق شاب: «يمعود، على كيفك». فيما رجل شيخ، ومن غير أن يلتفت نحوهما راح يهزُّ يده بإنكار.

***

خطواته على رصيف شارع الوزيرية كسلى.. يمسك بالراحة المتعرِّقة ليده اليمنى لوحة مغلّفة بجريدة عتيقة. تلك لوحته الثالثة التي لم يكملها بعد. وفي اليد اليسرى يحمل بضع فراشي بأحجام مختلفة.. يلقيه القيظ وضجيج السيارات والعطش في حالة من شبه الدوار.. قرّر أن يشرب زجاجة (مشن) عند الكشك القريب من الأكاديمية حالما يصل إلى هناك.. ربما هي القامة الرشيقة المرصوصة والعالية لطالبة جامعية، خطواتها متمهلة وتتقدّمه بأمتار قليلة، تجعله يتأنى في مشيه.. الظهيرة برّاقة ساخنة كما هي دأبها في أواخر آيار، والهواء ساكن أو يكاد. وأرداف الطالبة الجامعية مكوّرة باكتناز أليف، مرتفعة؛ قطبٌ ناشط من الإغراء والجمال. بيد أنه بدا غير معني بأي شيء يمكن أن يمنحه العالم له الآن.. كان مزاجه عكراً، ربما بسبب حلم سيئ استيقظ منه قبل ساعة.. هكذا يكون الأمر كلّما ذهب إلى الفراش متأخراً.. لم ينم حتى بزوغ الفجر بعدما استغرقه التفكير طويلاً بمستقبل علاقته مع نهلة.. موعد الامتحان الأخير بعد يومين، ومن ثم عليه أداء الخدمة العسكرية. هذا إذا

سار كل شيء على ما يرام.. سيضطر للابتعاد عن نهلة وعالمها، سنتين كاملتين، ربما باستثناء لقاءات قصيرة مرّة في كل شهر إذا ما أُتيحت الفرصة في أثناء إجازاته الدورية.. ولا يدري ما الذي سيحدث عندئذٍ. هل ستستمر علاقته معها بالقوّة ذاتها، أم سيتدخل عاملٌ غير محسوب ويقلب المعادلة؟.

ثوانيَ قليلة، يلبث تحت مظلة في موقفٍ لمصلحة نقل الركاب، ماسحاً حبيبات العرق على جبينه بظاهر كفّه الأيسر، ثم يخطو وما يزال في الجانب الآخر من أكاديمية الفنون.. الطالبة الجامعية ذات القوام الرشيق العالي تعبر الشارع نحو الأكاديمية ويتبعها من غير أن يشغل نفسه بالنظر إلى قوامها.. تدخل الأكاديمية ويقرِّر أن يشرب الـ(مشن) في كافتريا ألأكاديمية وليس واقفاً عند الكشك.. يعترض طريقه رجلٌ ببدلة سفاري نصف كم، عضلاته مفتولة، وخلفه رجلان آخران، والثلاثة أوساطهم منتفخة بمسدّسات: «تسمح».

يجمد في مكانه.. يلتفت غريزياً نحو الكشك، كما لو أنه فهم الأمر تماماً، ويبحث عن شهود إثبات لغيبته المرتقبة.. طالبتان غارقتان بالثرثرة، والبائع صاحب الكشك يعد رزمة من النقود.. زميل له يقف على مبعدة يراقب المشهد بوجه شاحب وعينين قلقتين. يعود لينظر في الوجه الأسمر المجدور للرجل الذي خاطبه: «نعم». يقولها ويكاد يغصُّ بها.. يشير الرجل بحركة من رأسه إلى سيارة صالون نوع لاندكروز بيضاء مركونة إلى جانب الرصيف، على بُعد أمتار قليلة:

«بضعة أسئلة وندعك ترجع لكلّيتك»

«من أنتم، وماذا تريدون منّي؟».

«لا تسأل، وبلا عنتريات لمصلحتك».

يحسُّ بالبرودة تسري في عموده الفقري، وبمعدته تتقلّص، وبارتجاف خفيف في اليد التي تمسك بلوحته غير المنجزة، وبعطشٍ حارق:

«هل أستطيع أن أخابر.. فقط».

الارتجاف في صوته أيضاً.. وعجب من طلبه، إذ يخابر من؟. نهلة، أم أيّاً من أصدقائه الذين من العسير أن يتذكّر أرقام هواتفهم الآن؟. ثم ما الذي يمكنه أن يقول لهم؟. قال الرجل الأسمر، مفتول العضل.

«لا، آسف.. لا تستطيع».

يرضخ، يخطو ببطء باتجاه سيارة اللاندكروز البيضاء وذهنه آخذ بالتشوّش، وعيناه تغيمان في طوفان الضوء القاسي للظهيرة.

أجلسوه بين اثنين، أخذوا منه اللوحة والفراشي، وشدّوا عينيه بعصّابة سوداء، فولج في الظلمة والقهر. أما هم فراحوا يتكلّمون كما لو أنه غير موجود بينهم. كما لو أنه اللا شيء. استأنفوا حديثاً عن مطعم سيرتادونه لتناول وجبة الغداء بعد تسليمهم البضاعة (هو)، وعن امرأة اتصلت بأحدهم تعرض له جسدها بلا مقابل. واغتابوا زميلاً لهم يضرط وهو نائم، وضحكوا بصخب. وتحدّث السائق عن ابنه الذي لا يطيق المدرسة، وزوجه التي وعدها مُكرهاً باصطحابها إلى السوق عصراً لتشتري فستاناً وحذاء.

نبضاته تتسارع، وبرودة الخوف تملأ تجاويف عظامه كلّها.. لا يقدر

أن يفكِّر بانتظام ورويّة. كلماتهم تختلط بالصور وهي تنهال في رأسه؛ مِزق من صور تخطف على صفحة ذهنه، صور حادّة، كثيفة، وأخرى باهتة، تعبر بسرعة؛ نهلة، أمّه الميتة، أبوه السكير، أخته المطلّقة بعد زواج تعيس من نائب ضابط ماجن.. أخوه العامل في معمل لصناعة الأحذية.. صديقه ياسر الذي تركه لتوِّه في القسم الداخلي.. صديقه الدكتور راسم الذي التقاه مصادفة، قبل أسابيع، في شارع الرشيد، وقدّم له نهلة.. الامتحان الأخير الذي ينبغي أن يؤديه بعد غد ويتخرج في الجامعة. وكانت اللاندكروز تسرع، تغرقه في العماء.

في التيه

لا يعرف أين هو الآن.. في أيٍّ مكان من بغداد.. داروا به في الشوارع نصف ساعة ثم ألقوه هنا.. الزنزانة الضيّقة التي وضعوه فيها قبل ساعتين وأوصدوا بابها عليه والمضاءة بمصباح مئة واط، حارّة، خانقة.. لمْ يودعونه الزنزانة هكذا؛ تفضل ادخل. بل بركلة مضبوطة على إليتيه دحرجته أرضاً، صاحبتها العبارة القطرية المألوفة: ابن القحبة. ثم سمع القرقرة المعدنية للقفل الحاد تسلِّمه للرعبِ والمجهول.

ومذ وجد نفسه في هذا الجب اللعين الخانق والعرق يتحبب على جبينه، على وجهه ورقبته، على ظهره وصدره، على ساقيه، وينحدر.. حلقه جاف، لسانه قطعة جلد يابس، وعطشه لا يُطاق.. حاول أن يبلل لسانه بقطرات من عرقه.. كانت مالحة، زادته عطشاً، وألماً في البلعوم. وظلَّ يفكر بالماء، يحلم بالماء، بالنهر السريع تلتمُّ على ضفتيه بيوت مدينته، بالماء المتجمع قطرة قطرة في إناء معدني أسفل (الحِب) بعد ظهيرة صيف بعيد.. بزجاجة (مشن) مثلّجة يشتريها من الكشك القريب من الأكاديمية. بدورق ماء بارد يُخرجه من ثلاجة القسم الداخلي.. بزجاجة بيرة (فريدة) يكرعها ببار في شارع الخيّام.. كانت الصور الضاجة بالماء، بالسوائل الباردة الصالحة للشرب، تزيح أية صور أخرى

في رأسه.. كانت رغبته في الظفر بكأس ماء بارد تتغلب تماماً على خوفه وقلقه، وحتى على توقه للخلاص من ورطته المميتة هذه. ووَدَّ لو كان يحلم، لو كان هذا الذي هو فيه الآن كابوساً محضاً لابد من أن يغادره عاجلاً.. لو أنه تهيؤات مضطربة ليس إلاّ، هلوسات بسبب إصابته بالحمّى.

يجلس ممدد الساقين على الأرضية الإسمنتية سانداً ظهره إلى جدار خشن، عكر.. وأمامه الباب الحديدي بكوّته الصغيرة في الأعلى، والوجع من أثر الركلة ما يزال في عظام وركيه، وفي فتحة شرجه.. خطر له أن يقوم وينظر من الكوّة، لكنه تردّد وخاف؛ خوفه من أن يراه أحد الحرّاس يتلصّص على الجهة الأخرى التي يبدو أنها ممر لزنازين عديدة.. خوفه من أن يفتح هذا الذي سيراهُ البابَ وينهال عليه بالضرب والشتائم. يشتم أمّه، أمّه التي ماتت ساعة ولدته. أمّه التي لا أحد يحتفظ بأيّة صورة لها.. أمّه التي رسمها في ضوء وصف الآخرين لها، وبعين مخيّلته البنوية، أكثر من عشرين مرّة؛ طفلة، وفي عمر المراهقة، وشابة. وفي ثوب العرس. وهي في المطبخ. وفي غرفة النوم. وهي تعجن وتغنّي. وهي تخبز بتنور الطين. وهي تحمل أخته الكبرى وأخوه يتشبث بثوبها. وهي حامل به. وهي ميّتة في نعش. وهي تصعد روحاً بيضاء إلى السماء. وهي في الفردوس مع ملائكة تحرسها. ورسمها وكأنه يمارس تعزيماً سحرياً وهي ترضعه، وهي تحضنه، وهي ترقص في عرسه الافتراضي.. وطفق يبكي.

تزاحمه وجوه، وجوه كثيرة، وجوه تتلاحق، أمام باصرته الداخلية، في شريط سريع.. بات يتصوّر الذاكرة وجوهاً ومقبرة.. يتمهل عند وجه

أبيه. يتملى الملامح المتعبة لذلك الرجل الذي نادراً ما ناداه «بابا» بعد سنّ المراهقة.. تجتاحه شفقة جارحة فيبعد صورة الأب، فتنطُّ، لتحلّ محلّها، صورة الأخ.. أخوه «حامد» الذي تحمّل قناطير من العذاب والذل، حتى تحرّر بعد خدمته العسكرية من سطوة العائلة ليعمل في شركة (باتا) ببغداد، وقيل أنه تزوّج وسكن داراً مؤجرة في مدينة (الثورة).. لم يره منذ وقت طويل.. لم تكن علاقته به سيئة. أو.. لم تكن ثمة ممرٍ لتواصلٍ بينهما من أيٍّ نوع. كانا كغريبين سكنا معاً في نزل واحد بالمصادفة لبعض الوقت، قبل أن يفترقا، وإلى الأبد.

يمّحي وجه أخيه، فتطلُّ وجه (علياء) أخته.. علياء الصافية كقلب قدّيسة.. علياء التي كانت تطير فرحاً كلما رأته يدخل البيت.. هو لم يولها الاهتمام الذي تستحق.. لم يجلس خمس دقائق ليصغي إليها. لكنه صار، على الرغم منه، ولم يعرف لماذا، ما تفتخر به حين الثرثرة مع صديقاتها، وتقول هذا له، ولا يبالي، وقد ينزعج.. وما اعترض لمّا وجدها تبكي لأن أباها أصرّ على تزويجها من نائب الضابط مشاة آلي (عبد خضير مولان) المعروف في بلدته، بقضاء معظم أيام إجازاته الدورية في مخيّمات الغجر. وفي يوم عرسها، بعدما فتق عذريتها، غاب عن البيت حتى منتصف الليل.

تخنقه الشفقة أكثر فتتحدر دموعه.

في الليل، في هزيعٍ ما متأخر من الليل سحبوه من الزنزانة وهو في الرمق الحرج. قدماه ضعيفتان، نصف أعمى ونصف ميت، وعطشه حارق.. أجلسوه على كرسي خشبي في غرفة مبرّدة وناولوه كأس ماء

فاتر.. شرب ويده ترتجف فيما قطرات ثمينة لا تعوّض سقطت على ذقنه وصدره ولم يرتوِ.. باغته صوتٌ رجولي دسم:

«اسمك؟»

بنبرة رفيعة متكسِّرة قال:

«عامر حميد عباس».

«مهنتك؟».

«طالب سنة أخيرة في أكاديمية الفنون».

«أيُّ قسم؟».

«الرسم».

«من أي مدينة أنت؟».

«من المدينة (ع) جنوب بغداد».

«لماذا تعلمني أن مدينتك تقع جنوب بغداد.. ألا أعرف بلدي؟. أجاهلٌ أنا في الجغرافية؟».

«آسف، لم أقصد».

«اتجاهك السياسي؟».

«مستقل».

«بدأنا نكذب».

«لم أنتمِ لأيِّ حزب».

«معلوماتي أنك مثقف، وليست لديّ رغبة بتعذيبك.. تعرف نستطيع أن نشوي جسمك بالكيبل، وأشياء أخرى نستطيع أن نفعلها بك، وبعد ذلك ستموت مثل أي كلب أجرب. فلماذا؟.. كن صريحاً معي، لأكون لطيفاً معك».

«والله، لست في أيِّ حزب؟».

«والكتب التي تقرأها؟».

«أقرأ كل شيء».

عيناه ترمشان وأسنانه تصطك.. الوجه الذي أمامه سمين، أسمر، بشارب ثخين، لا يستطيع تحديد ملامحه بوضوح.

«مثلاً؟».

«الروايات.. الشعر.. كتب فنون وفكر».

«أيُّ نوع من الفكر؟».

«سارتر، طه حسين، غارودي، كامو، وآخرون».

«مثلاً؛ ماركس، ماو، ريجيس دوبريه».

«نعم، أحياناً».

«لِمَ لمْ تذكرهم».

«قرأت أكثر لمن ذكرتهم أولاً».

«كنتَ تلفّ لوحتك بقطعة من جريدة الجمهورية».

«هذا ما وجدته في القسم الداخلي».

«لماذا ليس من جريدة أخرى: طريق الشعب مثلاً».

«لا يدخل القسم غير جريدتا الثورة والجمهورية».

«ماذا تعني بلفِّك للوحتك بصفحات جريدة الجمهورية، وهي صادرة من الدولة».

«لا أعني شيئاً، لم أفكِّر بهذا».

«أنت المثقف قارئ سارتر وماركس لم تفكِّر بهذا».

«لست سيئ النيّة، هي قطعة قديمة وليست من الصفحة الأولى».

«أية جريدة تقرأ».

«غالباً لا أقرأ الصحف».

«وحين تقرأ؟».

«أية صحيفة أجدها في المكان».

«أيُّ مكان؟».

«الذي أكون فيه».

«لم تقر بعد بأنك شيوعي، ولا تنس أن هذا ليس تهمة، نحن في جبهة معهم كما تعلم».

«لأني لست شيوعياً حقاً».

«تقرأ ماركس ولينين».

«قرأت بعض كتب ماركس ولم أقرأ للينين سوى كتابه؛ الدولة والثورة».

«ربما أنت ماوي، أو من خط تروتسكي.. أم تراك من جماعة القيادة المركزية».

«لا هذا ولا ذاك، ولا أي شيء.. فقط أميل إلى اليسار».

«ما معنى يسار في نظرك؟».

«أن تكون مع الفقراء، وأن تدعو لتحوّلات اجتماعية تقدّمية».

«وحكومة الثورة أليست مع الفقراء؟ ألم تحقِّق تحوّلات اجتماعية تقدّمية؟».

«بلى».

«إذاً؟».

«لستُ ضد الحكومة».

«لكنك تحرِّض عليها».

أحسَّ بصعقة ترجُّ جسده، وفكّر للحظة أنه في ورطة حقيقية ربما.. قال وهو يبلع ريقه:

«لم أحرِّض قط.. لا أتكلّم في السياسة».

ضرب المحقق الأسمر ذو الشارب الكث والصوت الدسم سطح المنضدة أمامه بقوّة اختضّ كيان عامر الجسماني وانكمش، وصاح:

«كذّاب، منيوك.. اسمع..».

وانحنى ليُخرج من جرار المنضدة التي يجلس إليها آلة تسجيل صغيرة وضعها أمامه وضغط على زر التشغيل فانساب صوته هو

(عامر).. هو صوته حقاً وهذه كلماته.. وتذكّر أنهم كانوا في غرفة صديق له في القسم الداخلي، قبل أيام، وكان هو نصف سكران، مع أصدقاء آخرين، وضيفان لم يلتق بهما من قبل، وكلهم سكارى أو أنصاف سكارى.. والمائدة عامرة بالعرق والبيرة ومازات متنوعة شهيّة، وصوت أم كلثوم يصدح بعذوبة في جهاز الراديو (أغداً ألقاك، يا خوف فؤادي من غدي).. فانساق للحديث تحت تأثير النشوة عن الفن الذي سيغيّر العالم، عن التخلّف الذي نحن فيه، عن الحريّة التي هي مسعى كل البشر وأسّ السعادة والكمال، عن السعادة الحقيقية وسلام الروح حيث يشعر الإنسان بالامتلاء ويبدع.

قطع المحقق الصوت، وضرب بقبضته على المنضدة الخشبية العريضة ثانية وقام:

«يا حقير.. نحن متخلِّفون، وأنت بفنّك السخيف ستغيّر العالم وتغيّرنا وتحقِّق السعادة والحرّية.. يا نغل، يا سافل، بفنّك التافه ستواجه بنادقنا ودباباتنا وطائراتنا، يا ابن القحاب حتى عاشر ظهر».

عصبوا عينيه. شدّوه إلى عتلة ورفعوه ورأسه إلى أسفل. وفرقع شيء مخيف، منذر في فضاء حجرة التحقيق.. الضربة الأولى على كتفه كانت لاهبة، قاسية، جعلت أعضاءه التي سرى فيها تيّار الوجع الرهيب ترتجُّ، تتقلّص. وصرخ، توالت صرخاته فيما الضربات التالية على رأسه ووجهه وظهرهِ ويديه وقدميه ومؤخّرته وما بين فخذيه صاعقة، حاقدة، أليمة إلى حدٍ لا يحتمله آدمي.. كان يصرخ مثل حيوان معذّب، يشهق ويعوي. وفي لحظة ضعف كاد أن يطلب الرحمة والعفو والمغفرة، ويدعو الله أن

يحفظهم، هم وقادتهم، لو لا أن وازعاً فيه كان يلجمه فيكتفي بالصراخ فيما الزبد يتكثّف في حلقه، يغطّي فمه، يختلط بالدم النازف من شفتيه. وتهيأ له أن الموت يقترب، وتمنّى لو يموت، وكانت أشد الكلمات بذاءة في العالم تجلد أذنيه، مع ضحكات قصيرة، سفيهة.

ثم، بعد لا يدري كم من الوقت، تضاءل الألم، وتخدّر فكّه، وسرى الخدر في وجهه، ورأسه، ولم يعد باستطاعته سوى أن يغرغر. وراحت مساحة الضوء في دماغه تصغر شيئاً فشيئاً وتبهت.. وعيه يتذبذب، ينحسر، يطغي عليه دخان أشهب، ضباب أدكن، قبل أن يهبط ظلام كثيف.

نهلة، بعدئذٍ

انتظرتْ نهلة حتى الثانية عشرة ليلاً ولم يتّصل.. وبقيت تحدِّق في جهاز التلفون الأحمر في الزاوية من صالة المنزل، وقد رنّ مرّتين. وفي المرّتين لم يكن الشخص الذي في الطرف الثاني من تتمنّى. بعدها صعدت السلّم الرخامي بخطوات متمهِّلة كسولة إلى غرفتها.. كانت شبه يائسة، فهو لن يهاتفها بعد هذا الوقت، على الأرجح، لأنه يعرف موعد نومها.. في غرفتها لم تستطع أن تغفو حتى ساعة متأخرة.. كانت غاضبة، لكنها تساءلت فيما إذا لم يحدث له مكروه. أو إنْ لم يكن هناك سبب حقيقي قاهر حال دون تمكّنه من المخابرة. لم يسبق له أن أخلّ بموعد معها طوال الأشهر الثلاثة التي عرفته فيها سوى مرّات قليلة. ومع سكون الليل الذي جثم خالجها قلقٌ غريب. وتوجّست من احتمالات شتى، فلعلّه مريض جداً، أو ربما صدمته سيارة، ومن يدري فقد يكون تشاجر مع أحدهم وألقت عليه الشرطة القبض وهو الآن في غرفة التوقيف في مركز شرطةٍ ما. ولثانية خطر لها أنه قد يكون... لا، لا.. وامتلأت بالرعب.. أبعدت عن ذهنها فكرة الثرثرة بالسياسة ونقد الدولة والاعتقال وما شابه.

التقطت مجلة (الصيّاد) التي يجلبها والدها بانتظام كل أسبوع.. قرأت العنوانات من غير أن تعيها.. كان بالها مشغولاً بأمر آخر.. وعادت صورة

عامر وهو يُجرْجر بالضرب إلى زنزانة تستحوذ عليها فانقبض صدرها.. وقفت عند النافذة، ونظرت إلى الحديقة المضاءة بمصابيح ملوّنة.. صفوف شجيرات الآس والورد منسّقة بصرامة وجمال، وثمة شجيرات صبّار ومتسلقات الشبّوي والرازقي، وأشجار نارنج وبرتقال.. فتحت النافذة فهبَّ بوجهها هواءٌ دافئ متخم بروائح مختلطة ثقيلة. استنشقت منها بعمق. وما كان بمستطاعها أن تحدس كم من الوقت مضى وهي واقفة هكذا تتأمل حديقة الليل وتشمّ شذاها، لكن الإحساس بالضيق لم يغادرها. وخُيّل إليها أن رجلاً ما يراقبها من نافذة بعيدة معتمة طالما هي واقفة في مسقط ضوءٍ صارخ.

أغلقت النافذة وأسدلت الستارة.. وضعت شريطاً في جهاز تسجيل فخم وعريض فانساب لحن هادئ لم ينعشها كما كان يحصل في الليالي السابقة.. سحبت مجرة من الكوميدينو والتقطت علبة سجائر نوع (كنت). تدخِّن سيجارة واحدة، في كل ليلة، بعد انتهاء مخابرتها مع عامر، وتغرق في تيار الموسيقى وهي منتشية، وروحها مفعمة بالجذل والرضا.. هذه المرّة لم تكن كذلك.. أطفأت المكيّف وأبقت على المروحة السقفية شغّالة ريثما تنتهي من تدخين سيجارتها، ورجعت إلى النافذة وفتحتها بمقدار عشرة إنجات كي يخرج الدخان، وكي لا تكتشف أم يعقوب الخدّامة سرّها.. وأم يعقوب لن تخبر والدها بأية حال، بل ستكتفي بتهديدها ونهرها. وحتى لو عرف أبوها فهو لن يقلب الدنيا على رأسها.. ربما ابتسم وحدّثها عن مضار التدخين والأسنان الصفر المنخورة التي لا تليق بشابة جميلة نضرة مثلها، فيما هي يكاد يُغمى عليها من الخجل أمامه.

أنهت سيجارتها الأولى، ومن غير أن تدرك أشعلت سيجارة ثانية بعد خمس دقائق.. رغبت بفنجان شاي أو قهوة، ولم تنزل إلى المطبخ لأنها لا تريد أن تبقى يقظة حتى الصباح. وبعد أقلّ من ساعة كانت قد أتت على السجائر الست في العلبة... أخفت الأعقاب والعلبة الفارغة في كيس نايلون ورمته في سلّة الأوساخ. وشربت من ثلاجتها الصغيرة كأس ماء بارد.. أطفأت المصابيح.. طغى ظلام كثيف قبل أن يتسلل بعض الضوء من الحديقة ومن مصابيح الأعمدة في الشارع.. فتحت النافذة لتطرد الدخان، وحين أغلقتها بعد دقائق شغّلت المكيّف.. استلقت على ظهرها وما يزال عامر في ذهنها. وما تزال التساؤلات والهواجس تسلِّمها للأرق. وأخيراً غفت بضع ساعات متقلِّبة في فراشها مع أحلام خاطفة مبتورة مزعجة لم تتذكر تفاصيلها لمّا استيقظت على هديل فاختات وضجّة عصافير.. وأوّل ما وقع عليه بصرها كان لوحته الأولى (بورتريتها) التي أهداها لها فزجّجتها بإطارٍ من خشب الجوز، وعلّقتها على الحائط المواجه لسريرها.. المرارة في فمها مع رائحة غير طيّبة أزعجتها.. دخلت الحمّام الملحق بغرفتها.. هالتها وهي تنظر في المرآة تقاطيع وجهها الكدر، وعيناها الحمراوان.

قالت لها أم يعقوب وهي تصبّ لها الشاي في المطبخ: «يبدو أنكِ لم تنامي بشكل جيد».

«أصابني الأرق، هل خرج أبي؟».

«نعم، قبل نصف ساعة».

«سأخرج أنا الأخرى إلى بيت خالتي عاتكة وأعود عصراً».

لم تكن لديها أدنى رغبة للذهاب إلى أيّما مكان، لكنها وعدت ابنة خالتها سوسن بزيارتهم يوم الجمعة.. اليوم هو الجمعة، وهي تحسُّ بثقل في روحها. وقبل أن تخرج هاتفت صديقتها أريج، لعلّ لديها أيّ خبر عن عامر.. صوت أريج النعسان أنبأها أنها أفاقت من نومها تواً على رنين جرس الهاتف:

«ألووووووووووو».

«صباح الخير».

«صباح الحب والغرام.. ماذا هناك؟. لِمّ تخابرين فجر يوم الجمعة؟».

«ليس الفجر يا أريج.. إنها الثامنة والنصف».

«نهار الجمعة يبدأ في العاشرة.. قولي ما عندكِ».

«لا شيء، أحببت أن أسمع صوتكِ».

«كذّابة، خبيثة».

«لا، لست كذّابة.. هل ذهبتِ إلى الكليّة أمس؟».

«وماذا أفعل في الكليّة أمس.. كان يوم استراحة، والامتحان الأخير غداً السبت، ثم لماذا تسألين؟».

«لا لشيء، هو كلام».

«أتريدين أن تعرفي فيما إذا رأيتُ عامراً هناك أو لا؟ يبدو أنه لم يخابركِ البارحة».

تسارع نبضها، وأحسّت برعشة خفيفة في يدها كادت بسببها أن تفلت السماعة، صاحت:

«ماذا عن عامر؟ ماذا به؟».

«لا شيء أيتها المخبولة.. لم أذهب ولم أره.. أتغارين؟ أتخشين أن يكون بصحبة جديدة، مع فتاة أجمل منك؟».

«أنتِ تُخرّفين».

«لا سبب سوى الحب الأعمى ما يجعل واحدة معتوهة تخابر صديقتها فجر يوم الجمعة لتسألها عن حبيب القلب».

«لم أسالكِ.. أنتِ التي تكلّمت عنه أولاً يا مفتريّة.. اسمعي، أتأتين معي إلى بيت سوسن».

«طبعاً لا، لست مستعدّة ليأكلني ذلك المنغولي السمين ابن خالتك بنظراته.. ما اسمه؟».

«قلت لكِ ألف مرة ليس منغولياً.. هو فقط يتأتئ في الكلام، لديه نقص في النمو».

«نقص في النمو؟ هذا العفريت.. لا شك هو نقص في النمو العقلي، مخبول يعني».

«ألا يفرحكِ أن يعجب بكِ أحدهم؟».

«أحدهم؟. يا لحظّي، فوق شوك نثروه.. كيف هو ذلك الشعر؟».

«أي شعر؟. تأخرت، ترافقينني أم أذهب وحدي؟».

«سآتي، لكن خابريهم أن يطبخوا دولمة.. خالتك عتيكة ماهرة في طبخها».

«عاتكة، عاتكة».

«جديدة يا سيدتي.. لكن لن أكون جاهزة قبل العاشرة».

«ولماذا قبل العاشرة، أتريدين العودة إلى الفراش، أم ستذهبين لصالون التجميل قبل اللقاء بخلدون».

«نعم، ذلك هو اسم المنغولي التحفة ابن خالتك؛ خلدون البزّون، هو هرّ مطابخ، الله يعطيه العافية».

ضحكت نهلة، وقالت: «طيب، سأمرُّ عليكِ في العاشرة».

على بعد زقاقين يقع منزل أريج.. كانتا زميلتين طوال سنوات الدراسة الست في ثانوية اليرموك للبنات، وتمتّنت علاقتهما في سنة البكالوريا بعدما دخلتا معاً، ومع أخريات، في دورات تقوية بمادتي اللغتين العربية والإنكليزية، وتلقتا دروساً خصوصية وحدهما في مادة الرياضيات.. يومها تقرّب المدرس الوسيم من أريج، وتودّد إليها، فتبين لها فيما بعد أن قصده، وكما وصفته هي، لم يكن شريفاً. فأوقفته عند حدّه، فتضامنت نهلة معها وانسحبتا معاً.. في تلك السنة نجحت أريج وقبلت في أكاديمية الفنون، وأجّلت نهلة سنتها الدراسية وقبلت في السنة التالية في كلية الآداب ـ قسم الصحافة. وبقيتا صديقتين مقرّبتين.

في سيارة التاكسي حيث جلستا في المقعد الخلفي سألت أريج:

«بالمناسبة، خلدون طبعاً لم يكمل دراسته».

«لا، وصل الرابع الابتدائي واستقال».

«شاطر، كم عمره؟».

«يصغرنا بسنة».

«ولماذا لم يخدم في الجيش؟».

«أبوه متنفذ في الدولة.. توسّط لإعفائه من الخدمة».

«لا أصدِّق.. هم أعفوه بعدما اكتشفوا أنه غير صالح.. اطلبي دفتر خدمته، ستجدين هذه العبارة: يعفى لأنه مختل عقلياً.. يبدو أنكم عشيرة مجانين».

«نحن أعقل منكم.. تزوّجيه لتخلِّفا فريقاً رائعاً».

«نعم، نعم، ونؤجر بيتاً في الشمّاعية».

أطلقت نهلة ضحكة عالية، وابتسم السائق الكهل.. قالت أريج: «فضحتِنا».

وصلنا بيت الخالة عاتكة في المنصور في الحادية عشرة إلا ربعاً.. شهق خلدون حين رآهما تنزلان من السيارة وارتسم على وجهه الشوندري المنتفخ ابتسامة بلهاء، عريضة.. همست أريج: «انظري، خلدون ينتظرنا في الشارع».

«ينتظركِ أنتِ يا أميرة الحسن.. فهو يعرف أنك آتية لأنني أعلمتهم بمجيئكِ معي».

«إن حظّي طحين..».

«إن حظّي كدقيقٍ».

صاح خلدون وهو يهزُّ رأسه، ولعابه يتجمع على شفتيه: «أهـ.. أهـ.. أهلاً».

قالت أريج منغِّمةً كلماتها: «صباح الخير يا أهل المحلة».

«صـ، صـ، صـ، صباح الخي». وأطلق رذاذاً من اللعاب في وجه أريج التي أشرقت بالضحك.. قالت نهلة: «أهلاً خلدون، أين ماما والبنات؟».

«فـ، فـ، فـ، في البيت».

دُهشت نهلة من نفسها لأنها كانت منشرحة ونسيت عامراً مؤقتاً، متخلِّصة من مشاعر الإحباط.. هكذا هي أريج دائماً، قادرة على إخراجها من دائرة كآبتها في اللحظة المناسبة.

استقبلتهما الخالة عاتكة وابنتاها؛ سوسن وسندس، ببهجة ودفء. وطوال خمس ساعات ثرثرن، ومازحن بعضهن وضحكن فيما كان خلدون يجلس قبالتهن وابتسامته المرتسمة على محيّاه مشرقة، فرحة، ومبللة باللعاب. لم يعلِّق بكلمة إلا في النادر، ومن غير أن يثير انتباههن. ولم يزح نظره عن وجه أريج الوردي المنمّش طوال الوقت. لكنّها تجاهلته عامدة بعد أن نبّهتها نهلة بأن عليها أن لا تعطيه أملاً زائفاً، وأن تتجنب رشقه بالابتسامات والغمزات كما اقترحت، من أجل الضحك والمرح ليس إلاّ. قالت نهلة: «أرجوكِ، لا تملئي رأسه بالأوهام، خطيّة». وأردفت ضاحكة: «وإلا زوّجناك منه غصباً».

«وما المانع إذا كنّا سنملأ مستشفى الشماعية بجوقة مخبولين».

«أحكي بجد يا أريج، أرجوكِ، قلبه ضعيف، وقد يتسبب بمشاكل لعائلته».

قالت ضاحكة: «oK.. لن أوقعه بحبي».

وهكذا فعلت، لم تلتفت إليه وكأنه غير موجود بالمرّة. ولم يصدر منه ما يؤكد أن الأمر يزعجه، فطالما هي جالسة ثمة فهو يشعر بالزهو والسرور والاكتفاء. وحين خرجتا إلى الشارع في الرابعة عصراً، قالت نهلة:

«أريج، أنا قلقة بشأن عامر، لم يخابر أمس».

«ربما كان مشغولاً لأيٍّ سبب».

«لست مرتاحة، هل تستطيعين الاتصال بأيٍّ كان من زملائك».

«قد يتصل بكِ اليوم، وإن لم يتصل سأراه غداً في الامتحان».

لم يتصل عامر في تلك الليلة، ولم يظهر في الأكاديمية في اليوم التالي، وحين استعلمت أريج عنه مواربة من صديقات لها مباشرةً، ومن ثم عبر الهاتف، من الزملاء والزميلات وما جرى في الأكاديمية نهار الخميس لم يظهر أنهم يعرفون شيئاً. لكن واحدة من صديقاتها المقرّبات حين التقتها مصادفة بعد أسبوع في سوق الأعظمية همست في أذنها: «أسمعتِ.. يقولون أن الجماعة اعتقلوا عامراً.. جاءت سيارة للأمن وأخذته من أمام باب الأكاديمية».

قضت نهلة ذلك الأسبوع وهي في أشدِّ حالات الجزع والخوف والقلق، وتمنّت في قرارتها أن يكون عامر قد التقى بفتاة أخرى وتركها هي. فهذا أهون عليها، وهي تؤكد لأريج، من احتمالات مشؤومة راحت صورها تترى على ذهنها: «هذا أفضل من أن يكون قد حصل ما أخشاه».

عند الغروب جاءت أريج من دون سابق موعد وصعدت حالاً إلى

غرفة نهلة ولم ترض بالجلوس في الصالة وانتظار نزول صديقتها بحسب دعوة أم يعقوب.. ومن النظرة الأولى لوجه أريج الشاحب والمكفهر حدست نهلة بأن شيئاً غاية في السوء قد حصل بالفعل.

«أقول لكِ نهلة.. تمالكي أعصابك.. عامر معتقل.. صار هذا من الأشياء المألوفة.. ونأمل أن يطلقوا سراحه قريباً».

علا الوجوم وجه نهلة.. تيبّس حلقها، وأحست بألم في معدتها.. وبدت كأنها على وشك أن يغمى عليها.. ولدقائق بقيت الصديقتان ساكتتين، ليس في جعبتهما ما تقولانه.. ثم انخرطت نهلة في بكاء حارق، ودموعها تجري راحت تشتم الحكومة والمخابرات.. صاحت أريج:

«أششششش.. اخفضي صوتكِ.. ماذا دهاكِ، حتى العصافير والأشجار جنّدوها وكلاء أمن لهم.. قلت تمالكي أعصابكِ.. ليس بأيدينا ما يمكننا فعله سوى أن ننتظر وندعو الله».

«ولكن ما الذي فعله حتى يعتقلوه، هو ليس في أي حزب؟».

«هو شيوعي يا نهلة. هذا ما يعرفه كل من في الأكاديمية».

«عامر ليس شيوعياً.. لم ينتم قط.. لديه خليط من أفكار ماركسية ووجودية وعبثية.. ودائماً يقول إنه فنان، وعليه أن يكون مستقلاً وحرّاً».

«هذا ما لا يفهمه رجال الأمن.. أعتقد أن صاحبكِ ضحيّة وشاية حقيرة من أحد أولئك الفاشلين. فهو فنان موهوب، وهناك من يحسده».

«إلى درجة أن يلقوه في الجحيم».

«أجل، فنصف الناس في هذا البلد مخبرون، ونصفهم الثاني خائفون.. ثم لا يكفي أن يكون المرء شيوعياً ليعتقلوه، فهم معاً في جبهة حتى وإن كانت شكلية.. تخميني مثلما أخبرتكِ أنه ثرثر بكلام ضد السلطة وهناك من سمعه ووشى به، أو استغفله وسجّل له كاسيتاً».

استجواب آخر

«أنت ترتاد مقاهي حسن عجمي والبرازيلية والمعقّدين».

«نعم».

«ودائماً مع كتاب».

«نعم».

« تثرثر مع أصدقائك بالسياسة».

«بقضايا الثقافة والفن».

«الثقافة والفن سياسة».

«في وجهٍ ما».

«أنت مثقف».

«لا أدري».

«مثقف».

«نعم».

«إذاً أنت سياسي».

«لا أشتغل بالسياسة».

«قرأت (ثورة في الثورة) لريجيس دوبريه».

«نعم، يُباع في المكتبات».

«نضال مسلّح وعنف ثوري».

«ينظِّر لوضع أمريكا اللاتينية».

«لوضع حركات المقاومة المسلّحة في أمريكا اللاتينية».

«نعم».

«هذا الكتاب يمكن أن يكون إنجيل الثوّار في كلِّ مكان».

أحسّ عامر بانقباضٍ في أحشائه.. رمش بعينيه ولم يحر جواباً.. لم يجد جملة الردّ المناسبة.

«ها.. سكت.. كما ترى نحن نعرف كل شيء».

«هذه وجهة نظر».

«وجهة نظرك».

«لم أقل هذا».

ابتسم المحقِّق.. كشّر عن أسنان بيض كبيرة، وظهرت لثّته حمراء تحت الشارب الأسود المصبوغ الكثّ الممشّط بعناية وقد غطى الشفة العليا وأخفاها.

«بل قلت هذا يا عامر.. هذه عبارتك».

«لا أتذكّر».

«جئتَ سكراناً إلى القسم الداخلي مساء 16 شباط، بعد العطلة الربيعية.. أدرت عينيك في وجوه الطلاب الجالسين في الصالة وكانوا يشاهدون فلم السهرة.. رفعت بوجوههم الكتاب وهززته، وسألت: هل قرأتم هذا الكتاب.. من لم يقرأه فليقرأه.. هذا الكتاب يمكن أن يكون إنجيل الثوار في كل مكان.. أتريد أن أنشِّط ذاكرتك أكثر».

«مثلما قلتَ كنتُ سكراناً.. السكارى يهذرون.. حقاً لا أتذكّر».

«بل تتذكر يا عامر حميد حقير، وواحد من زملائك قال: تفاهات، فهجمت عليه لتضربه لولا أن البقية أمسكوا بك فصحت: تافه من يقول هذا الكتاب تافه».

«شطحات سكران».

«لا يا تافه».

واختضّ عامر على أثر لسعة ضربة سوط مباغتة على وجهه.. وتوالت الضربات سريعة وهو يحاول درأها بيديه المقيّدتين بجامعة تشدّ حلقتيهما على معصميه. وأمسك به اثنان وهو ينتفض ويصيح. وقيّدوه نائماً على بطنه إلى سرير حديدي لا فراش عليه.. كشفوا ظهره وألهبوه بكيبل نصف إنج. وهذه المرّة كان اثنان يضربان بإيقاع منتظم، ومن ثمّ نزعوا سرواله ولباسه الداخلي معاً وتوالت الضربات على مؤخرته الضامرة.

قال أحد الاثنين ممن يضربانه: «سيدي، عضوي انتصب».

رد المحقق: «نكه».

صاح عامر بنبرة متحشرجة: «لا.. أنا قلت هذا وفعلت هذا».

توقفت الضربات.. سأل المحقِّق: «وماذا بعد.. أفكّرت بضمِّهم إلى تنظيمك الثوري؟».

«واللهِ، لا سيدي».

«نكه يا خلف».

«أرجوك سيدي، سأعترف بما تريد».

«من هو مسؤولك؟».

«لا مسؤول لديّ واللهِ، أنا مسؤول نفسي».

«نكه يا خلف».

وأحس بأصابع غليظة تقبض، وتعصر أحد ردفيه المحمرتين من ضرب السياط.

«الله يخليك سيدي.. أنا مسؤول.. فكرت أن أكون أنا المسؤول».

«وتنظِّم الجماعة؟».

«نعم».

«لتعملوا انقلاباُ».

«لا سيدي، لا، لا».

وانخرط في بكاء يائس.. وتكرّرت ضربات السياط على رأسه وظهره ومؤخرته وساقيه، وهو يصرخ بصوتٍ أقرب إلى العواء، ويبكي..

حين ألقوه في الزنزانة وأقفلوا وراءه الباب كان الألم يحرقه في كل سنتمتر من جسمه.. تمنّى لو ينام، ومرّت نهلة بخاطره.. تراءت أمام ناظريه لوحة بيضاء، وبدا كأنه يحلم، بيده فرشاة لا يستطيع رفعها.. كانت نهلة هناك أيضاً. ارتسمت له هيأتها تجلس قبالته، شعثاء، وجهها متورِّم ومملوء بالكدمات، شفتها السفلى مشقوقة وتبكي: «اغتصبوني يا عامر». لكن ما كان بمقدوره تحريك أي من أعضاء جسمه، حتى لسانه كان مشلولاً في فمه ويابساً.. كان مترعاً بالصراخ ولا يستطيع أن يصرخ، راغباً بالبكاء وتخذله الدموع.

في رأسه ومضات من ألم؛ فجوات تخرقها ريح مظلمة. والوخز في عينيه؛ عيناه وقد شبّت فيهما نار لم يُطقها.. يغلقهما بقوة.. رشقة حادة كالطلقات تضرب مؤخرة جمجمته.. يرغب في أن تهمد الأشياء هناك، فيه، لينام، أو حتى ليموت.. الموت يراه شبحاً على مسافة قريبة منه. فوهة كهف على سفح يجلله الدخان وهو يتسلق نحوه.. تدفعه طاقة مبهمة لا سيطرة له عليها؛ طاقة نصف خاملة، بيد أنها فاعلة بعناد، تجعله يزحف على بطنه فوق السفح الصخري نحو الكهف الفاغر فاه.. الكهف يناديه بلغة غريبة، كما لو أنها لغة الإنسان البدائي، غير أنه يفهم ما يقول.. ما يقوله الكهف بتكرار لا يكل.. ما يعنيه؛ تعال، تعال، تعااااال.. تعااااااااااااال.. تعـ.........، وهو يصعد، تتجرّح ركبتاه ومرفقاه، بطنه، فخذاه، أصابع قدميه، باطن كفيه.. في أحشائه كرة من لهب تتدحرج به ببطء أليم، نحو الأعلى، نحو الفوهة.. ينقلب على جنبه، تتلاشى رؤيا الكهف على حين فجأة، ويرى صورة أمِّه في تخطيط قديم، ربما كان تخطيطه الأول لها وهي تنظر إليه بوداعة وحزن.. هكذا تخيّل نظرتها

إليه ورسمها.. الصورة واضحة الآن على صفحة ذهنه.. أكثر وضوحاً من أي محاولة سابقة له لتصوّرها، كأن فناناً بارعاً رسمها لتوِّه وهي واقفة إزاءه. ومن ثم يتهيأ له أن مخطط الوجه كائن على أرض رملية والصورة صورتها. ما زالت واضحة وبمقدوره تبيّنها؛ الأنف الدقيق، والخدّان الضامران وغمّازة الذقن، والشفاه الرقيقة، والشعر الأسود القصير.. أيمكن أن تكون صورة مرسومة على الرمل بهذا الوضوح وهذه الدقّة.. تقترب دفقة ماء، يمد يده ليتّقي لطمتها ويفشل، تغمر الدفقة نصف الوجه وتُبقي نصفاً، ويحسّ بالبلل في أصابعه.. يفتح عينيه.. يتساءل فيما إذا كان يحلم؟. يرى جرحا كان قد اندمل قليلاً على ظاهر كفِّه عاد ينزف الآن.. لابد من أن الجرح انفتح ثانية على إثر احتكاك جلده بالأرض الإسمنتية الباردة للزنزانة. وترك يده ملقاة على الأرضية الخشنة الملطّخة بقطرات من دمه.. لم يكترث لنزف الجرح.. وبزغت أسئلة، في هذه اللحظة، من مكان ما في دماغه؛ كيف للبشر أن يكونوا على هذه الدرجة المريعة من القسوة والنذالة؟ أترى لهم عائلات؛ زوجات وأبناء وآباء وأمّهات وأخوة؟. ألهم أصدقاء وأحبّة؟. ثم ما الجدوى من هذا الذي يفعلون؟ ماذا يستفيد العالم من ألمه؟ أيسعون لإرضاء نزوة ما؟. أيسكتون في دمهم غريزة مجنونة؟ أهذه هي الساديّة؟......

لعلّه نام...

يستيقظ مغموراً بظلمة ثقيلة دبقة.. يعتقد أنه الموت؛ الموت الذي تخيّله منذ سني المراهقة عدماً محضاً.. الغياب الشامل والأبدي للوعي، وتحلّل الجسد إلى عناصره التي ستعود إلى الطبيعة الأم.. كان يقول: ليس الموت سوى تغيّر في شكل المادة.. فكّر إنْ كان هذا الذي هو فيه

الآن ما يسمّونه الموت؟ عليه إذاً أن يغيّر رأيه.. سيكون ثمة زوّار في غاية الفظاظة. ستكون ثمة محاكمة من نوع ما. تصفية حساب، وعليه أن يدفع ثمن عيشه.. ولم يدرِ كم مقدار ذلك الثمن ونوعه.. ثم ما الجدوى من أن يدفع المرء مثل هذا الثمن، ولمن، وما الذي سيجنيه من يُدفع له؟.. وظنّ أنه يهلوس، وعقله مشوّش.. وتساءل في ما إذا كان ما يزال يتمتع بعقل سليم؟. وأقنع نفسه أنه بمجرد أن يخطر له مثل هذا السؤال فهذا يعني أنه لم يفقد عقله بعد، أو أنه يحتفظ بجزءٍ حيوي منه.. وارتسم وجه نهله أمامه حائراً متهكِّماً؛ «أنت رومانسي.. مثل هذه الروح معرّضة للعطب، للجنون». وتجلّى له مشهد حضورها بقميص أبيض ذي أكمام قصيرة، وياقة مفتوحة حتى نقرة النهدين.. قالت له: «ارسمني إلى جانبك».

«سأرسمكِ إلى جانب أمّي».

«أمّك؟.. ألم تخبرني أنك لم ترها».

«لم أرها قط».

«إذاً تعرف شكلها من صورها».

«لم أعثر لها على أية صورة، ربما لم يُلتقط لها أية صورة.. حتى بطاقة جنسيتها ضاعت، أو سحبتها الحكومة بعد وفاتها».

«كيف إذاً سترسمها؟».

«أعرف شكلها، ولكن كيف.. لا أدري.. هكذا.. حسب ما وصفوها لي.. طالما تخيّلتها ورسمتها».

دار هذا الحوار في ذهنه بسلاسة.. لعلّه استعاده كاملاً من حدث حقيقي مطبوع في الذاكرة، أو لعلّه اختلقه في دوّامة هلوسة.

عادت واستحوذت عليه فكرة الموت ثانية.. قال: قد يكون هذا هو الموت. لعلّ سارتر في مسرحية (جلسة سرّية) كان على حق.. هو ميّت ربما، في الجحيم، ولكن هل يمكن لميّت التحدّث مع نفسه عن سارتر؟.. همس: أنا ميّت، والجحيم هي هذه طالما أنني لست خائفاً على الإطلاق. والألم وقد فارقني. ولست أشعر بجوع أو عطش، وأنني وحيد إلى الأبد، وأن العالم في مكان آخر، لن يكون في متناولي غداً.. لن يكون هناك غدٌ أبداً. بيد أن بمقدوري أن أحلم، وأن أتذكّر.. يغمض عينيه، ويشهق.

أقبلت نحوه تسرع بابتسامة نديّة منشرحة، متلهفة، كأنها ستلقي نفسها بين ذراعيه في زحام الساعة التاسعة والنصف صباحاً أمام مبنى الأوروزدي باك في شارع الرشيد.. هذه هي المرّة الأولى التي يراها فيها ترتدي شيئاً آخر غير الزيّ الجامعي؛ القميص الأبيض والتنّورة الرصاصية.. تنّورتها الآن بنفسجية تغطّي ركبتيها، وقميصها مشجّر صاخب يشتعل فيه البنفسجي، الأصفر والأحمر.. تيّار سار من الألوان الناريّة يخفِّف جموحها رشقات من الأبيض والأخضر هنا وهناك.. قميص بكمٍّ قصير يستر كتفيها وقليلاً من ذراعيها.. كان كل ما فيها مضيئاً، واعداً.. مدّت ذراعها تصافحه فبان أسفلها حتى عتمة إبطها وردياً بفعل الانعكاس الخاطف للضوء والألوان.

«هلو، كيف الحال؟».

سارَ حالاً كأنه على عجلة من أمره، وهي إلى جانبه، لم يدعها تقف سوى للحظة.. اتّخذا اتجاه الباب الشرقي.

«شكراً لأنكِ جئتِ».

«تشكرني؟!».

«أشكركِ لأنك هنا، ولدتِ في هذا القرن، في هذه المدينة.. أشكركِ لأنكِ موجودة حيث أوجد أنا».

زقزقة ضحكتها جعلته يتمهّل. كانت تمشي بإيقاعه هو.. تباطأت معه.. أضحيا قريبين من بعضهما حتى كاد أحدهما يكون لصق الآخر، وصارا يرغمان أيّ اثنين قادمين، أو أكثر، من الاتجاه المعاكس، على الافتراق ليبقيا هكذا، إلى جانب بعضهما بعضاً، شبه ملتصقين.. قال: «قلّلي من درجة روعتكِ كي لا أجن».

«كم أنت رومانسي؟».

«كم نحن بحاجة إلى الرومانسية».

«فعلاً، الروح الرومانسية، كما قرأت ذات مرة، تكون مهيأة للجنون أكثر من غيرها».

«ما له الجنون؟. لست أخشاه.. ما أخشاه حقاً هو أن أفقدك ولا أجنّ بما فيه الكفاية».

«أتقول إنك مخيّر بيني وبين الجنون؟».

«لا خيار آخر».

في نفق التحرير سألته: «إلى أين تأخذني؟».

«سنأخذ تاكسياً من أول شارع السعدون.. سيُفتتح معرض للرسم لمجموعة فنانين في العاشرة في قاعة الوردة في الكرادة».

«ألم تشترك فيه؟».

قال ضاحكاً: «لا، لم يعترفوا بي بعد، يعدّونني مبتدئاً».

«ألم تفكِّر بإقامة معرض خاص بك؟».

«ما يزال الوقت مبكِّراً.. معرضي الأول سيكون بعد تخرّجي وإنهاء خدمتي العسكرية.. سأطلق عليه اسماً رائعاً؛ نهلة.. سأدير رؤوسهم بجمالكِ».

«ها، ألم أقل لك إنكَ رومانسي حالم؟. ما أخشاه هو أن تجنَّ قبل أن تقيم معرضك الأول».

ضحك بصوته العالي المعتاد: «تعرفين نهلة، اكتشفتُ الآن أنكِ تتمتعين بروح دعابة حلوة».

«هذا ما يقوله أبي دائماً، لكن أريج صديقتي تفوقني في هذا».

«سنجلس في كافتريا، ثم نتغدى».

«شرط أن أدفع أنا».

«مستحيل يا نهلة.. أمس قبضت أجرتي عن أعمالي.. تعرفين، أنفِّذ صور إعلانات تجارية».

«بالمناسبة، مثل هذه الأعمال ألا تؤثر على إبداعك».

«وكيف أعيش؟ كيف أنهي دراستي بالعشرين ديناراً التي أقبضها من القسم الداخلي.. حين أتوظف، حين يبدؤون بشراء لوحاتي لن أرسم إلا ما أريد».

فتحوا الباب الحديدي الثقيل وأدخلوا له صحناً فيه سائل عكر، مع صمّونة عسكرية.. أيقن الآن أين هو حقاً..

شعر عامر كما لو أنه يمنح عري روحه للشفق الحزين، فيما بدا الشفق بغلالته الدامية وكأنه يمنح عامراً سريره ليستلقي عليه كي يتأمل ويحلم ودجلة تجري أمامه متهاديةً تلوك أولى الأضواء التي راحت تتناثر على جهتيها..

في ظهيرة ذلك اليوم كان موعدهما في كافتريا يرتادها الطلبة في الوزيرية. جلسا يتناولان طعام غدائهما.. بان عليها الاستغراب لأنه بقي صامتاً على غير العادة، قبل أن يباغتها وهو نصف صاحٍ ونصف مكتئب ونصف يائس:

«سأعترف لك بشيء آخر يجب أن تعرفيه».

«أتعتقد أن هذا هو الوقت المناسب والمكان المناسب للاعتراف؟».

هزّ رأسه، وشفتاه مزمومتان.. قالت: «طيب، اعترف أيها المشتبه به».

«همممممم» نفثها حسرةً وقد علا وجهه ظلّ ابتسامة لم يخفِ مدّ اضطرابه.

«تعتقدين أنكِ عرفتِ عنّي كل شيء.. في الحقيقة، لا.. يجب أن تعلمي من أية عائلة أنا».

ظهر الاهتمام على محيّا نهلة فكفّت عن الأكل ولم تقل شيئاً.. استدرك عامر:

«قلت لك أن أمي ماتت لحظة ولدتني، وهذا صحيح، وبسببه أعيش شعوراً مستديماً بالذنب.. هذا صحيح، والصحيح أيضاً أن أبي هو من قتلها».

«قتلها؟».

«ليس بالمعنى المباشر الصريح.. لكنه أذاقها الويل طوال سبع سنين، وهو عمر زواجهما، وقبل يوم من ولادتي جلدها بنطاقه العسكري».

«أكان أبوك ضابطاً؟».

أخبرها أن أباه لم يكن ضابطاً، كان رئيس عرفاء بائس يقضي أيام إجازته سكراناً، وفي المواخير، وفي النهاية تقاعد براتب ضئيل.. ولولا خالاته الأربعة لتشرّد هو وأخوه حامد الذي يكبره بسنتين، وأخته علياء التي تكبره بخمس سنين: «لولا خالتي فضيلة لما أكملت دراستي، ولما كنتِ عرفتِني أصلاً، وربما ما كنت اليوم على قيد الحياة.. خالتي هذه كانت متزوِّجة من رجل يعمل سائق شاحنة صغيرة.. كانت في السادسة عشرة حين زفّوها له.. أراد أن يكون رب أسرة جيداً لكنه بدماغه الثخين خلق فوضى في حياتها.. أنجبت منه ستة من البنين والبنات وفي النهاية تعوّق بحادث سير. وصارت هي التي تعيله مع أولادهما.. ومن ثم جئتُ أنا.. أما أختي فلم تكمل تعليمها.. تعرفين البقيّة».

«وأنت، كم طفلاً تخطِّط أن تنجب؟».

«يا لبرودة أعصابكِ، نهلة».

« وماذا تريدني أن أفعل.. أبكي؟».

وراح يحدِّثها عن الفارق الطبقي بين عائلتيهما.. هي ابنة تاجر أقمشة ميسور الحال، ترك مهنة المحاماة ومعها طلّق السياسة مبكِّرا، ويعيش برغد مع ابنته الوحيدة.. لم يتزوج ثانية بعد وفاة أم نهلة بالسرطان قبل

خمس سنين، واكتفى بوجود مربية خادمة في قصره. وربما كانت له حياته السرّية الخاصة التي يحذر من انكشافها.. أما هو فابن رئيس عرفاء متقاعد سكّير بقي يعيش حياة فاضحة مع المومسات قبل أن تدركه الشيخوخة.. الشيخوخة التي زادته فظاظة وقسوة قلب.

نقرت نهلة على المنضدة بإبهامها وكأنها تريد إيقاظه من استغراقه، وقالت إنها لا تحب فيه شيئين، أو هي ثلاثة أشياء: «تهويلك لمسائل بلا أي داع، ورومانسيتك المبالغ فيها.. ثم هذا التناقض الذي فيك.. ادِّعاءاتك اليسارية وكلامك عن الاشتراكية وفي مقابلهما تولي الفارق الطبقي أهمية كبيرة في علاقات الحب مثل أي ارستقراطي رجعي كما تسمّونهم».

«لا أدري.. كنت أخشى أن تكوني أنتِ.....».

«أنا ماذا يا عامر؟. أنا أعرفك أنت ولا علاقة لي بعائلتك أو بغيرهم.. أعرف فيك الفنّان المثقّف الطموح الوسيم».

قال ساخرا وهو يلوي طرف فمه: «أترينني أشبه ألان ديلون أو ماستريو ماستروياني».

«المهم أن تشبه نفسك.. ثم ما حكاية القصر الذي أسكنه؟».

«أحب روح الدعابة التي فيكِ».

«ما حكاية القصر؟».

«وكل شيء آخر».

«قل لي».

«بيت بطابقين مساحته ألف متر، وحديقته جنّة من الورود، لها فلاح متفرِّغ، وهناك خادمة.. أنت التي تحدّثتِ عنها.. المربية».

أدارت نهلة رأسها جانباً بفم مفتوح ولم تعقِّب.

«حصل الأمر بالمصادفة».

«بالمصادفة؟!!».

«لما أوصلتك الأسبوع الفائت قريبا من منزلكم، نزلت بعدك من الحافلة وتبعتكِ»

«آه».

«نزوة.. كنت مفتوناً.. أبقيت بيننا مسافة أربعين متراً، وخشيت أن تلتفتي لكنكِ لم تفعلي لحسن الحظ، ودخلتِ البيت وكان الباب مفتوحاً، أكملتُ مسيري ورأيت الحديقة».

بلع ريقه وهي تحدِّق فيه:

«وتوقفت عند المتجر القريب، شربت زجاجة بيبسي، وقلت شيئا عن الحديقة.. حدّثني صاحب المتجر عن الفلاح.. كان ثرثاراً، وقال شيئاً عن أبيكِ.. لم يشر إليكِ».

سكت وراح يهزُّ رجله بعصبية.. قالت: «وبعد».

«قررت أن أنهي علاقتي بكِ.. شعرتُ بالفارق.. كنت أفكِّر».

«لهذا تجنّبت لقائي يومين».

حملت حقيبتها وقامت.. ظل جالساً يعضعض شفتيه.. مشت ولم

تقل مع السلامة.. عند باب الكافتريا وقفت والتفتت.. قالت بصوت عال تنبّه له العمال والرواد: «عامر، كالعادة خابرني عند العاشرة».. هزّ عامر رأسه وسيجارته ترتعش بين أصابعه، لم يكن قد أشعلها بعد..

هام على غير هدى في الشوارع.. وجد نفسه قريباً من النهر واستبعد فكرة أن يذهب ويجلس عند الشاطئ.. كانت بناية القشلة وراءه.. أمعن النظر في ساعتها المتوقفة، واجتاز شارعاً فرعياً معتماً قبل أن يألف نفسه في زحام شارع الرشيد.. دخل مكتبة وقلب بضعة عنوانات ولم يشترِ.. سار جنوباً.. دخل مقهى البرازيلية.. جلس بعيداً عن الواجهة، وطلب فنجان قهوة.. أسف لأنه لم يقتنِ كتاباً يقضي معه الساعتين اللتين تفصلانه عن الاتصال بنهلة.

سأل نفسه إن كان هذا قد حدث حقيقةً في مكان ما وزمان ما، أم أنه يهلوس.. انفتح الباب الحديدي الثقيل، وسمع كلمة «انهض، كلب». انصاع للأمر.. شدّوا عينيه بعصّابة فاظلمّ العالم.. أمسك أحدهم بساعده النحيف.. شتم أمّه وجرّه خارج الزنزانة.

أيام ثقيلة

توالت الأيام ثقيلة مقبضة على نهلة. ولاحظ كل من في البيت تبدّل أحوالها. فأسبوعاً بعد آخر يتعكّر مزاجها أكثر، ويزداد وجهها شحوباً، ويرهقها الأرق والحيرة والتفكير السوداوي.. وبدءاً من الساعة العاشرة، وقت اتصاله المعتاد في الأيام السعيدة، وحتى الثانية عشرة، من كل ليلة، تجلس قريبة من الهاتف، تحدّق إلى كتلته الصمّاء بضراعة وتوق، علّه يرن ويكون المتصل هو، غير أن الهاتف يظلّ صامتاً بلؤم، فتقوم لترتقي الدرج إلى غرفتها، وتقف متأملة لوحته المعلّقة على الحائط، بضع دقائق، قبل أن تدخل فراشها وتستأنف فصلاً آخر مترعاً بالوساوس والصور القاتمة وومضات من أملٍ سرعان ما تنطفئ، فتغفو وهي تتوجّس من كوابيس ترتاد عالم منامها. كوابيس تكتم على نَفَسها فتستيقظ على هلع. وتودُّ لو تبكي لكنّها تكتشف أنها فقدت القدرة على نيل هذا العزاء أيضاً.

سألتها أم يعقوب ألف مرّة لماذا هي ليست على ما يرام، وما هذا الذي سلبها نضارتها وطلاقة روحها، ولم تفصح.. وسألها أبوها مرّة واحدة.. صعد إلى غرفتها بعد العاشرة مساءً، في الوقت الذي تبقى فيه لساعتين تحدّق في جهاز الهاتف الذي باتت تحمله إلى غرفتها بدل الانتظار في

الصالة.. جلس إلى جانبها على السرير، وطرح عليها سؤالاً مباشراً في ما إذا كانت واقعة في الحب.. انهمرت دموعها ولم تفه بكلمة:

«لست ضد أن تحبّي شخصاً ما، ولكن يظهر أن الأمور لا تجري معكِ بشكل جيد».

«نعم بابا.. اعتقلوه».

صمت الأب ثواني قليلة، وتساءلت هي في سرِّها إنْ لم تكن أخطأت باعترافها هذا.. قال الأب:

«لماذا؟ من يكون؟ ولماذا اعتقلوه؟».

«لا أدري لماذا؟ هو طالب سنة أخيرة فنون».

ران صمت خانق. قام الأب إلى النافذة. أزاح الستارة ووقف يرنو إلى الخارج. وكانت هي مرتبكة، خجلانة، وحزينة.. استدار وقال لها فجأة:

«نهلة، بابا.. عليكِ أن تكوني حذرة.. فكِّري بنفسكِ ومستقبلكِ وعائلتكِ.. ليس بمقدورنا أن نفعل شيئاً.. أنا في يومٍ ما كنت محامياً معروفاً وصارت لي علاقات مع متنفذين في الدولة، ولكن في مثل هذه الحالات ليس من الذكاء أن أتورّط وأسأل.. لسنا في الغرب، لسنا دولة ديمقراطية تمنح حقّ الرأي واستقلالية للقضاء. وهذه من الأسباب التي جعلتني أهجر المحاماة وأعمل في التجارة.. عودي إلى حياتكِ، لا أقول لك انسيه، وإنما تكيّفي مع الوضع، وتجنّبي السؤال عنه. ليس من الحكمة أن تدمّري نفسكِ ومستقبلكِ.. دعي كل شيء للزمن. فليس في يدنا حيلة».

استلقت، بعد خروج أبيها، لوقت لم تستطع تحديده، على سريرها وعيونها مغلقة، تصغي لتكتكة ساعة الحائط.. تلك التكتكة المنتظمة الرتيبة، المتبددة في أفق هواجسها، أخذتها إلى زنزانة نائية ما وراء خطوط الزمان والمكان كما لو أنه الحلم. وخطر لها أنها ربما تحلم. وكان هناك متقنفذاً، قاعداً على الأرضية الإسمنتية العارية، ذقنه على ركبتيه المضمومتين وذراعاه تحضنان ساقيه. وذراعاه نحيلتان وساقاه كذلك، وقد تضاءل فيه كل جزء، وكل عضو.. يجلس في الزاوية والضوء شحيح، شبه عارٍ، نظرته خاوية، على جسده آثار جراح لا تعد، وعلى قسماته الرعب والعذاب. وفكّرت أنها ربما استقدمت هذه الصورة من مشهد فلمٍ ما شاهدته ونسيت تفاصيله.. رغبت أن تتكلم معه، أن تحدِّثه عن شجنها وألمها وشوقها إليه.. أن تواسيه وتؤكد له أنها ستبقى في انتظاره إلى أبد الآبدين.

شغلها التفكير به عن تكتكة الساعة، ثم تخيّلته مصغياً هو الآخر لتكتكة خفيّة يستشعرها مع النبض الخافت لدمه. وطافا معاً على سحابة الزمن، وحدهما في فراغ الكون، في الصفاء الأجرد ما قبل الخطايا كلها، وبعيداً عن الحقد والأذى. وألفت نفسها تبكي، تسيل دموعها على جانبي أنفها وعلى وجنتيها، تنزل إلى شفتيها وحنكها، تسقط قطرة على صدرها. تشهق وتعود تتسمّع لتكتكة الساعة اللامكترثة، اللامجدية، المنهمرة، وصورته في وضعه التراجيدي اليائس تثبت، تتجمّد في ذهنها.

تعيدها التكتكة التي تنفلق عن اثنتي عشرة دقّة حارقة إلى ذاتها، وإلى الليل اللانهائي، العميق والهادئ.

تقوم، تدخل الحمام، تغسل وجهها، تنشّفه، تخرج، تلتقط مجموعة (بدر شاكر السياب) الشعرية الكاملة بغلافها الأحمر وكتلتها الغليظة.. تغادر غرفتها، تهبط الدرج، تفتح باب الكليدور وتقطع الممر الموزائيكي إلى الحديقة.. تتلقى أولى نسمات الخريف المثقلة بعطر النباتات.. تقعد في الأرجوحة العريضة وضوء النيون فوقها كاف لتفتح الكتاب وتقرأ من غير أن تتجمع حول الضوء حشرات دقيقة تتساقط عليها وتزعجها.. إنه منتصف أيلول، وبعد أسبوعين سيبدأ دوام الجامعات. وكانت كلما فكّرت بالكليّة والدوام انقبضت أحشاؤها.

قرأت صفحة من دون أن تفهم شيئاً.. ذهنها ما يزال شارداً في صقعٍ آخر.. نزعت نعليها وأحست بالبرودة العذبة للحشائش على باطنِ قدميها. أعادت قراءة الصفحة عينها بتركيز أعلى، وخلال ساعة قرأت كل قصيدة (المومس العمياء).. كانت تتشرب الكلمات والصور.. تصعد مع مدّ الإيقاع ومن ثم تهبط في دوامة شجيّة تثير فيها أعمق الانفعالات.. في الثانية بعد منتصف الليل كان بمقدورها أن تغفو، أن تستغرق للمرّة الأولى منذ ذلك اليوم المشؤوم، في نوم عميق، ومن غير أن تدهمها الكوابيس.

غاب اسم عامر عن كرّاسة الخريجين فهو لم يؤدِ الامتحان الأخير، على الرغم من أنه نجح في معظم المواد المقرّرة بدرجة جيد جداً.. تأكدت أريج من هذا الأمر واتصلت بنهلة لتُعلمها.

«وما فائدة التخرّج في الكلية إذا كان مطموراً في زنزانة، أو مدفوناً في قبر».

«فال الله ولا فالك.. أتعرفين، أنت بحاجة إلى الإيمان».

«ليتني أستطيع، على الأقل كنت سأحظى بسلام النفس».

«ستشغلكِ الدراسة.. ستجعلك تنسين».

«لا أعتقد».

وطوال السنة الدراسية الأخيرة وحتى يوم تخرّجها لم يرد عن مصير عامر أي خبر، وكأنه لم يكن في أي يوم.. وكأنه كان خرافة أو طيفاً عابراً.

شهادتها الجامعية ستؤهلها للعمل في مجال الصحافة، وقد استطاعت أن تنشر في الجريدة الشهرية الخاصة بقسمها تقارير خبرية صغيرة وتحقيقين. وكتبت في غضون الأشهر اللاحقة على تخرّجها عشرات الصفحات، مزّقت معظمها.. كانت نهلة تعدُّ نفسها لتكون صحافية ذات شأن.

في زمن يصعب تحديده

تحسّس وجهه، جبهته، رقبته، بلعومه.. مرّت أصابعه الواهنة المرتجفة على ندوب وشروخ وأورام. في هذه المواضع التي تلتهب ألماً ثمة خطبٌ ما.. صعّد تلكم الأصابع إلى قمّة رأسه. أليس من الطبيعي أن يكون هنا شَعر؟. ولم يعثر على شعرة واحدة، بل على تكويرة تمتلئ بقشور رخوة. وتساءل إن لم يكن ذلك دماً متيبساً. وكان من العسير عليه أن يعرف لماذا هو هنا؟ وما الذي أوصله إلى هذه الحال؟.

كأنه في فاصلة حلم.. مدّ يديه وتلمّس الجدران الضيّقة المتقاربة من حوله، وأدرك أن الملمس الخشن في هذه الجهة هو للوح معدني، وإذن هو باب حديدي صدئ مغلق.. رفع عينيه إلى كوّة عالية وأبصر حزمة ضوء شاحبة تتسلّل، وتترك ثلاثة مستطيلات طولية متجاورة، باهتة على الجدار المقابل.. حين وقف أخيراً، بعد جهدٍ مضنٍ وموجع، فهم أن الجروح والأورام تنتشر في كل جزء من جسمه. ورأى أنه لا يستطيع الوصول إلى علو الكوّة المقطّعة بقضبان.. تراجع قليلاً ونظر باتجاهها.. كان ما وراءها رمادياً، وحسب أنه وقت الغروب أو الفجر، وربما يكون النهار مغبرّاً أو غائماً.. وللحظة تهيأ له أنه يستيقظ من نوم طويل. نوم امتد لمئة عام أو مئتين، كما حدث لبعضهم في زمان ومكان وظرف لم يكن

بمقدوره الآن تذكّر ملابساته.. ورغب أن يتذكّر أي شيء آخر.. كانت ذاكرته صحراء مترامية خاوية.. الأمس وما قبله؛ كأنه لم يكن.. هو؛ كأنه بُعث في هذه الساعة، أو لعلّه أُلقي به بعد موتٍ في هذا الموئل/ البرزخ لينال عقاب عيشه الذي لم يعد يعلم عنه شيئاً.. وكان من المستحيل أن يستعيد شكل موته وطريقته؛ أين ومتى ولماذا وكيف؟ إنْ كان ميتاً حقاً.

بدأت عيناه تميّزان ما حوله، تريان الأشياء بفعل الضوء الساقط من الكوّة.. بطانية يجلس عليها تبدو سوداء، ومخدّة لم تعد بيضاء، وبطانية أخرى مكوّمة. وسلّة صغيرة أمامه فيها نصف صمّونة جلدها السميك تيبّس قليلاً، ودورق بلاستيكي فارغ، ودلو معدني صغير تفوح منه رائحة يوريا كريهة نبّهته إلى أن مثانته ممتلئة.. أنزل بيجامته فاندفع منه شلال بول حارق أصدر وهو يضرب جانب الدلو وقاعه صوت قرقعة كان الوحيد الذي راح يخدش صمت المكان. واطمأن إلى حقيقة أنه ليس ميّتاً، فمن غير المعقول، مثلما فكّر، أن يبول الموتى.

جلس ولاكَ نصف الصمّونة فآلمته لثته وأسنانه، وأحسَّ بالعطش.. شال الدورق. كان فارغاً. هزّه أمام فمه المفتوح علّه يحظى ببضع قطرات من ماء قديم.. ربما سقطت قطرتان أو ثلاث على لسانه لم تفعل سوى مفاقمة عذاب عطشه. وفي شق مضبّب من رأسه تراءت له صورة فارس جدّ عطشان، ينهال عليه ألف سهم.. أراح ظهره وقفا رأسه على الحائط، كان بارداً، ولأول مرّة فطن إلى أنه بردان؛ وكانت الظلمة تشتد، تسلِّمه لليل الشتاء.

سمع صليل انفتاح قفل، وصرير حركة الباب وهو يُفتح، ولطمة من

ضوء غشت عينيه، فوضع يده أمامهما ليخفِّف من وطأة الحرقة التي نفذت إلى جذور رأسه.

«يللا، اطلع».

صرخ بوجهه حامل المصباح اليدوي.. قام وأخذ دلو البول كما لو أنه يعرف ما عليه أن يفعل.. كما لو أنه مبرمج على هذا الفعل، وخرج من زنزانته إلى الممر الذي لا ينيره سوى مصباح أصفر خافت، معلّق في نهايته بالسقف.. صاح حامل المصباح اليدوي: «اركض، هرول».

لم يستطع، وكاد ينزلق على أرض الممر البليلة ويُسقط الدلو. عندها كان سيُضرب بلا رحمة.. كان يفهم هذا بشكل ما، فتحاشى ما أمكنه السقوط. ومضى عارفاً وجهته. حثّه الصوت العسكري الخشن ثانية:

«هرول وإلا ركلتك».

تحامل على نفسه ولم يستطع. ولحسن الحظ لم ينفِّذ العسكري وعيده.. وخطر له أنه يؤدّي مشهداً تكرّر مئات المرات: ينفتح الباب.. يحمل دلو البول.. يسير نحو المراحيض.. يقلب الدلو في المقعد القذر ويغسله بماء الحنفية الدافق.. ثم ينزل بيجامته ويجلس على المقعد ضاغطاً على أمعائه ليتغوط أمام آخرين يجلسون بعيون فارغة على مقاعد قذرة ويتغوطون في الصمت الذي لا يقطعه سوى فرقعات الهواء المضغوط الخارج من أمعائهم.

في ثلاث دقائق عليه أن ينتهي، يشطف مؤخرته ويغسل يده ووجهه بماء بارد جداً أو حار جداً ويعود القهقرى إلى زنزانته.

تأكد الآن، آسفاً، وهو مقرفص على المقعد الطافح بخراء المساجين وبولهم، أنه ليس ميّتاً.

***

اقتحموا عليه زنزانته الانفرادية في وقت متأخر.. كان نائماً.. قد يكون منتصف الليل أو ما بعده بساعة.. أحكموا شدّ العصّابة على عينيه وأمسكته أصابع قويّة من ساعده الرخو الدقيق وجرّته.. أسرعوا به في الممر البارد.. أوقفوه في موضع ما، وقالوا له: «اجلس، لا تتحرك».

انقضى زمن ثقيل؛ ساعة، أو ساعتان ربما.. ساقاه ترتجفان، وقلبه ينتفض كطير ذبُح لتوِّه. وذهنه عراء مجلل بالدخان. كان إزاء أفق من الوحشة والترقّب والخوف، كما لو أن قطيع ذئاب تتربّص به في جهة منه، يخفق في تعيينها. سمع ضربات موقّعة وصراخاً غاضباً وعواء كائن يعاني بإفراط.. معاناة لا تليق إلاّ بنبي مخذول.. وسُكب دلو ماء متجمّد على بدنٍ جالسٍ بالقرب منه، ورشقه بعض الرذاذ فشهق.. كانت شهقة هلع فسبّه أحدهم وهدّده بدلو أكبر.. تهيأ له أن هذا ليس سوى كابوس مكرّر.. واقعة حصلت قبل هذا مرّات ومرّات.. أقاموه أخيراً ودفعوه إلى مكان مغلق.. حدس ذلك من الرائحة الزنخة الدافئة التي لم تكن غريبة على أنفه، بيد أنه لم يتبين حقيقتها.. وعرف أنه، الآن، في غرفة ما.. أتاه من جحر عميق صوتٌ نصف ساخر: «ها عامر، اشتقنا لك». تساءل في سرِّه إن كان المقصود هو.. أهذا يعني أن اسمه عامر.. نزعوا العصّابة عن عينيه وأجلسوه على كرسي خشبي.. رمش قليلاً واتّضحت أمام ناظريه الأشياء.. تطلّع إلى الرجل الأمهق الجالس وراء منضدة معدنية بلون

التراب، بيده سوط يضرب بمقبضه خفيفاً على راحة يده اليسرى، وخلفه حائط تبنيٌّ عارٍ إلا من صورة مزججة متوسطة الحجم، وبإطارٍ عاجيٍّ اصطناعي، للسيد الرئيس في زيه العسكري الرسمي.

«كيف حالك؟».

«جيد».

قهقه المحقق الأمهق الذي كان يرتدي بلوزة خفيفة، زرّاها العلويان مفتوحان.

«أنت جيد إذاً. ولكن مهمّتنا كانت طوال سنة كاملة أن نجعلك غير جيد.. يبدو أننا فشلنا حتى الآن».

«ماذا تريدون منّي؟. لماذا تجعلونني غير جيد؟».

«لأنك كلب ابن كلب ابن قحاب حتى عاشر ظهر».

«من أنتم؟».

فرقع السوط في الهواء، ونهض الرجل حانقاً.. كان قصير القامة مربوعاً:

«ماذا تريدون منّي؟ وكيف جئت إلى هنا؟».

فرقعة السوط الثانية تركت خطاً مشتعلاً على عنقه وكتفه فصاح: «ما الذي يحدث؟ أهذا حلم أم حقيقة؟».

«حلم؟ أتضحك علينا يا قوّاد، يا ابن المنيوكة؟».

انهالت عليه ضربات السوط فرفع يديه لاتقائها، وكل ضربة، كانت

تفتح فيه جرحاً قديماً لم يكن قد اندمل تماماً.. وما كانت لتلك الضربات أن تطيح بالسكون البارد لذاكرته.. ذاكرته التي بدت له بحراً من الوحشة والبياض وقد اكتظّ بأرخبيلات معتمة.

«تركناك شهراً في زنزانة انفرادية وترجع لتسألنا؛ من أنتم؟ وماذا تريدون؟ يا سافل، يا ابن القحبة».

راح يئن، ونزلت دموعه لتلهب جروح وجهه المفتوحة لتوِّها.. عاد الرجل وجلس خلف المنضدة وهو يلهث ويشتم.

«سأجعلك تتذكر كل شيء».

«ماذا أتذكر؟ أين أنا؟».

«في.... أختك».

«من هي أختي؟ أتعرف أختي؟».

«تسع سنوات محقِّق في الاستخبارات وتفكِّر أن تضحك عليّ، أن تلعب بي».

«استخبارات؟! هل ارتكبت جريمة؟ أقتلت أحداً؟».

«يا ليت، إذن لما كنت هنا.. أنت ارتكبت جريمة بحق الوطن.. خنت الثورة».

«خنت ماذا؟ الوطن، ثورة؟ من هي ثورة؟ كيف؟».

بدا الرجل مكشِّراً، وصرف على أسنانه:

«أتريد إرجاعنا إلى نقطة الصفر؟ سأنصحك لوجه الله للمرّة الأخيرة،

ليس من صالحك العودة إلى..... أمك الذي سأدخلك فيه.. ما تبقّى منك لن يتحمل ما سأفعله بك».

«اقتلني».

«هذا ما سأتجنبه لشهر كامل.. سأجري عليك تجارب تعذيب لا تعرفها حتى جمهورية ألمانيا الديمقراطية التي علّمتني، قبل أن أدعك تلفظ آخر نفس.. سأطعمك لكلاب أجوِّعها أسبوعاً كاملاً».

«قل لي ماذا تريد منّي وسأنفِّذه لك؟. هات أوراقاً ودوِّن عليها جرائم الكون كلها من قابيل وهابيل وحتى يوم القيامة لأوقِّع عليها وأنا الممنون».

«أصبحت وقحاً.. لا بأس.. سأتحمّلك قليلاً.. سأمنحك فرصة أخيرة.. لنعد إلى حيث انتهينا».

«متى انتهينا؟. وممَّ؟».

«من نيكتك ابن القحبة».

صرخة المحقق المهولة جعلته ينكمش على كرسيه، وقال متوسلاً:

«والله لا أعرف، لا أعرف».

صاح المحقق:

«محسن».

دخل محسن بقامته العالية وصدره المرصوص العريض ووجهه الأدكن وشاربه الكث. واستعدّ بضربة من قدمه اليمنى على الأرض:

«نعم سيدي».

«بُطل سفن آب».

من وراء الباب التقط محسن قنينة خضراء فارغة لمشروب سفن آب وناولها للرجل الغاضب. ثم حمل هذا الكائن الضئيل الجالس على الكرسي وقلبه على المنضدة وأنزل بيجامته المقلّمة كاشفاً عن مؤخرته العجفاء ومباعداً ما بين إليتيه:

«هات سيدي».

«لا أنا من سأدفعه فيه».

صرخة عامر كانت متحشرجة ممزّقة حيوانية.. كان الوجع الذي أحسّه في مستقيمه، وحتى جذور دماغه، لن تحتمله حتى الفيلة.. استبد الوجع وانتشر، صعد إلى بطنه، إلى كامل بدنه، وفي رأسه حدث انفلاق عظيم سرعان ما خمد، وغاب العالم.

***

«ما اسمك؟».

« أعتقد عامر».

«تعتقد..».

«هذا ما سمعته منهم.. ينادونني عامراً».

«ما كان عملك قبل الاعتقال؟».

«اعتقال؟.. لماذا أنا معتقل؟».

«أجب عن السؤال».

«لا أعرف».

«ماذا تتذكر عن عائلتك؟».

«لا شيء، لا شيء بالمرّة».

«حسناً قبل دخولك الزنزانة الانفرادية أين كنت؟».

«لابد من أنهم نقلوني إليها من مكان ما».

«كنت في زنزانة مكتظّة، مع جماعة.. كان معك أكثر من عشرين سجيناً.. أتتذكر أيّاً منهم، أسماءهم، أشكالهم؟».

«لا أحد».

«ماذا في ذهنك الآن؟».

«صور.. أحلام بعيدة».

«أحلام؟ احك لي واحداً منها».

«أعبر شارعاً، وهناك فتاة تسبقني.. جسمها جميل».

«تعرفها».

«لا.. لم أر وجهها».

«وماذا حصل بعد ذلك؟».

«أحاول أن أتذكّر، لكن هناك قطع، فراغ».

«وماذا بعد؟ احك لي حلماً آخر».

«في ساحة لكرة القدم، وقعت وجرحت ركبتي».

ضرب جبينه براحة يده:

«حملوني.. لا أعرف إلى أين.. أعرف فقط أنهم حملوني».

«سأنعش ذاكرتك قليلاً.. ماذا عن الكليّة؟. أية صور في ذهنك عن أكاديمية الفنون؟».

«فتاة جالسة، وأنا مع آخرين نرسمها».

«من هي؟».

«فتاة غريبة، شفّافة، كانت تبتسم طوال الوقت».

«كنتم في قاعة الرسم في الأكاديمية».

«لست متأكداً.. كنّا في مكان واسع ومغلق».

«والآخرون الذين معك، أتذكر أيا منهم؟».

«لا».

«قراءاتك.. أخبروني أنك كنت تلتهم الكتب».

«كنت أقرأ.. يتهيأ لي أنني كنت أقرأ كثيراً».

«ماذا تذكر من قراءاتك؟».

«ذات مرة وأنا على درّاجة، أمسك جهة من المقود بيد وأحمل كتاباً باليد الأخرى.. طار الكتاب في الريح.. تفككت الأوراق وحلّقت مثل سرب من الطيور الخائفة».

«ولماذا تصفها بالخائفة؟».

«لم تطر بانتظام».

«في هذا المشهد.. كم كان عمرك؟».

«كنت صغيراً.. مراهقاً.. ربما في الخامسة عشرة، أو السادسة عشرة».

«ما عنوان ذلك الكتاب؟».

«لا أدري، لا أذكر».

«ما عنوان أي كتاب سبق وأن قرأته».

«لست موقناً.. تراودني دوماً كلمة؛ الحرافيش.. أهناك كتاب بهذا العنوان؟».

«أترى أن ذهنك مشوش؟».

«ليس تشويشاً.. هناك بقع ضوء ومستنقعات ظلام».

«لماذا اخترت كلمة مستنقع؟».

«هكذا.. قفزت إلى لساني.. لا أدري».

«أسبق وأن قرأت كتاباً عنوانه؛ مستنقعات ضوئية».

«أحقاً هناك كتاب بهذا العنوان؟.. جائز أن أكون قرأته».

«حسناً، أتذكر أية امرأة مرّت في حياتك.. أية امرأة صادقتها».

«لا أتذكّر».

«أسماء نساء تخطر على بالك».

«رددت هذا الصباح كلمة؛ هديّة.. ربما كانت اسم امرأة».

قلب الرجل الأصلع، ذو البدلة الكحلية والربطة الحمراء بعض الأوراق.. قال:

«هدية قاسم منشد.. أيوحي لك هذا الاسم بأي شيء؟».

«لا».

«هذا اسم أمّك».

«أمّي؟!».

«التي ماتت وهي تلدك».

«........».

«أي اسم آخر؟».

«لا اسم آخر».

«حميد عباس غضبان».

«من هو؟».

«هذا اسم أبيك».

«أبي؟!».

«نهلة.. أيوحي لك هذا الاسم بشيء».

«أحسّه مألوفاً، قريباً جداً من نفسي».

«كيف؟».

«لست أدري.. حين نطقت به تفجّر نورٌ في صدري».

«أهي الفتاة نفسها التي كنت ترسمها مع آخرين؟».

«ها؟».

وهزّ رأسه حائراً.. همس:

«أرجوك.. أكاد أبكي».

أسند الرجل الأصلع كوعه إلى منضدة الساج أمامه، واضعاً خده على راحته.. كانت أصابعه غليظة، وفي بنصره خاتم فضي بشذرة فيروزية كبيرة، وظل يحدّق بهذا الكائن الضئيل، المجرّح الوجه أمامه.

«سأسألك سؤالاً مهمّاً.. بيني وبينك».

«نعم».

«في داخلك، في الأعماق، أتشعر، ولو بشكل غامض، أنك ربما ارتكبت أيّ ذنبٍ كبير، أيّ فعلٍ مشين».

«لست أدري، الحقيقة لا أشعر بأيّ ذنب».

«حالتك هذه شاذة.. ذاكرتك مخرّبة.. أنت تصلح مثالاً، أو عيّنة لاختبارات لا يوجد هنا من باستطاعته القيام بها.. لا توجد البيئة العلمية اللازمة».

«تقصد أن أصير فأر تجارب».

«لم لا؟. كلنا فئران تجارب بشكل أو بآخر.. المهم.. سأكتب شيئاً في صالحك، ولا أعلم إن كان سيفيدك أو لا».

«من أنت.. ما صفتك؟».

«لا عليك.. لو سألت أيّاً منهم مثل هذا السؤال تعرف ماذا سيحدث؟. ليس مهماً أن تعرف من أنا.. المهم أن تعرف من أنت.. أو بصراحة، بيني وبينك، ابق كما أنت، هكذا. لعلّ هذه الحالة ستنقذك بأية طريقة في النهاية.. لعلك تنجو».

***

ثلاث جولات من التعذيب بالعصا الكهربائية لم تُرجع له ذاكرته، لم تُعد ترتيب وتشكيل مناطق الضوء والظل في رأسه كما كانت في سابق عهدها. وهذا ما جعل المحقِّق يفقد صوابه:

«سأرغمك على التذكّر يا ابن العاهرة».

عاط عامر وتوسّل وغاب عن الوعي مرّات. وفي كل مرّة كان المحقِّق يزداد غيظاً وغضباً. وأقسم بتربة أمّه أنه لن يدعه يفلت بفعلته، ولابد من أن ينال عقابه كاملاً.

«أقلّه أتركك تتعفن في الانفرادي حتى تخرج أنفاسك من جحرك».

وذات ليلة أدخلوا عليه شخصاً غريباً.. كان يرتدي هو الآخر بيجامة مقلّمة من القماش البازة مثله.. خطر له، للوهلة الأولى، أن هذا الشاب المورد الخدود سجين جديد لم يذق، بعد، طعم الهوان والألم والجوع المذل.. حدّق الشاب طويلاً في وجهه قبل أن يسأل:

«ماذا فعلوا بك.. الظَلَمَة؟».

«ما تراه».

«حوّلوك إلى خرقة متهرئة.. ما قضيتك؟».

«ليتني أعرف».

«بم اتهموك؟».

«يريدونني أن أتذكّر».

«تتذكّر ماذا؟».

«جريمة خيانة».

«يا ستّار».

«هذا ما يقولونه».

«وأنت، ابق هكذا، لا تعطهم فرصة».

«لأيّ شيء؟».

«أن يجبروك على الاعتراف بأن ذاكرتك سليمة».

«ولكنها ليست سليمة.. لست أكذب عليهم. وخلال الأسبوع الفائت أخضعوا رأسي لضربات عصا كهربائية».

«وكيف تتذكّر هذا؟».

«أتذكّر ما يحصل منذ أيام، أسابيع، شهر. والمشكلة هي ما قبل ذلك».

«هل أكملت دراستك؟».

«لا أعلم شيئاً عن أية دراسة.. أوحى لي محقّق، أظنه طبيباً، بأنني كنت طالباً في أكاديمية الفنون».

«متى؟، وهل تخرّجت؟».

«كأنك لا تفهم».

«ولكن فقدان الذاكرة؟ لا أستطيع استيعاب هذه الحالة».

«وأنت ما تهمتك؟».

«أفكار هدّامة».

«وما هذه؟».

«تهمة جاهزة لأي منتم إلى حزب آخر غير حزبهم».

«وهل أنت منتم إلى حزب آخر؟».

«أنا منتم إلى جماعة المثقفين الثرثارين مثلك».

«مثلي؟!».

«يتهيأ لي أنك الآخر لا ذنب لك سوى الأفكار الهدّامة».

«وما هي الأفكار الهدّامة؟».

«هذا أمرٌ يطول شرحه».

بعد ساعتين أخرجوا الشاب المورد الخدود. وما كان يبدو عليه الخوف.

ألفى عامر جسمه يرتجف.. التحف ببطانيته، وكان يشعر بضيق في صدره، وبالوحشة، وكأنه للمرة الأولى يكتشف كم هو وحيد، وكم هو بعيد عن عالمه.. عالمه الذي يومض بخفوت وسط هوّة من الظلام، تلمع فيه نقطة واحدة مثل لؤلؤة مطمورة معظم كتلتها في الطين. أو مثل

كتاب ممزق لم تبق منه سوى قصاصات من أوراق قليلة؛ كلمات وجمل مبعثرة مقطوعة عن سياقها.

بعد يومين أوقفه المحقق وسط الممر، شبه عارٍ، وكان سكراناً، يحمل بيده عصا الكهرباء، وقال بانتشاء:

«اليوم سأجعلك ترقص مثل سهير زكي».

مدّ العصا نحو ساق عامر ومسّها قريباً من خصيتيه. انتفض عامر من أثر الصعقة المباغتة.. قرّب المحقق العصا من رأسه، ثم من عنقه، وظهره. ومع كل لمسه سريعة كان عامر يقفز وهو يصيح. غير أن مسّاً آخر في مؤخرة الرأس لبث أطول من سابقاتها أحدث صدعاً فادحاً داخل الجمجمة وألماً لم يتحمل حجمه فراح يخور مثل حيوان بدأوا لتوّهم بذبحه.. قفز عالياً حتى أن المحقق تراجع مذعوراً وقد طار نصف سكرته.. واستمر عامر يقفز ويخور حتى استسلم أخيراً بعد أن طوّقته ست سواعد مفتولة أشبعته ضرباً وركلاً، وصاح المحقق:

«هاتوه».

داخل غرفة التحقيق شدّوا قدميه ويديه وأحنوا جذعه. وبعد ثماني جلدات بالكيبل على ظهره فقد صوابه فراح يشتم بصوت منهك، مشروخ.. قال لهم إن قافلة من الشياطين في طريقها إلى هنا. وإن الكلاب فرحانة لأن الأبقار تلعب الشطرنج، وإن اللون الأحمر صار مثل الأزرق، وإن الرمال تحنُّ أيضاً للقمر. قال المحقق:

«أي خراء هذا الذي تأكله».

«آكل العصافير».

«لا تفكر بالشمّاعية.. لن تخدعنا بادعاء الجنون. ولن تحصل على شيء، والليلة سأغتصب أختك على صدرك».

حلّوا وثاقه وبدا المحقق وكأنه على وشك أن يأمر مساعديه بأخذه إلى زنزانته حين راح عامر يرقص.. يضرب بقدميه الأرض مثل راقصي الفلامنكو ويصفر.. وانهالت عليه السياط فانهار ووقع وكان يلهث. وأطلق ضحكة متعبة وهو يردد «هيْ، هيْ مخبّل.. هيْ هيْ مخبّل».

خمس أو ست ضربات سريعة أخرى بالسوط كانت كافية لتُسكت عامراً وتقذفه لساعات إلى ما وراء المحسوس والمُدرَك.

***

سحلوه من الزنزانة وهو يضحك.. ضحكه أقرب ما يكون إلى الهدير، تقطعه فواصل من همهمات ساخرة، أو باكية. كأنه يتنقل بين أقصى الجذل وأقصى الشجن من غير المرور بمنطقة وسطى. ركله العسكري ذو البدلة الزيتونية على رقبته فتلوى.. أقامه وصفعه على وجهه فعثر، إلا أن يد العسكري حالت دون سقوطه ثانية على الأرض. أجلسوه في غرفة راح يجيل النظر بين جدرانها وسأل عن صاحب الصورة الكبيرة المارشال ذي النياشين الملوّنة الكثيرة فوق رأس الرجل الأصلع ذي البدلة الكحلية والرباط الأحمر، القاعد وراء المنضدة من خشب الساج، العريضة. قال له الرجل الأصلع:

«لا عليك بالصورة.. انظر في وجهي، أتعرفني؟».

«أنت الرجل الأقرع».

«أين التقينا، ومتى؟».

«في علاوي الحلة، العام الماضي».

«طيب، وأنا ماذا كنت أفعل في علاوي الحلة؟».

«تركب موتور سايكل».

«وأنت ماذا كنت تفعل هناك؟».

«أركب موتور سايكل.. هن، هن، هن، هنننننن، ترب ترب، ترب، بب، خلّصت بنزين، عندك بنزين».

«اسمع عامر.. دعك من الموتور سايكل.. هذا لا ينطلي علينا.. ليس من مصلحتك ادِّعاء الخبل».

«هِيْ هِيْ مخبّل، هِيْ هِيْ مخبّل».

ضحك الرجل الأصلع، وسأل على حين فجأة:

«ما هذا الذي تضعه على رأسك؟».

كشّر عامر عن أسنان صفر وقال:

«فوق رأسي تاج الملك».

«لا ليس تاج الملك».

« من الجائز قبّعة».

«لا أرى قبّعة».

«ماذا ترى؟».

«لا شيء».

«نسيته في البيت إذاً».

«ماذا نسيت في البيت؟».

«التاج».

«هل أنت ملك، أتشعر أنك ملك؟».

«أشعر أنك جاسوس».

«ما كان فطورك هذا الصباح؟».

«جاسوووووووسسسسسسسس».

«قل لي...».

«جاسوووووووسسسسسسسس».

وأشار إلى صورة الرجل ذي النياشين، وبقي يردد:

«جاسوس جاسوس جاسوس جاسوووووووسسسسسسسسس».

صاح به الرجل الأصلع، وهو يقوم رافعاً يداً ثقيلة مفتوحة:

«اسكت وإلا كسرت أسنانك».

«جاسووووووووسسسسسسسس».

نادى الرجل الأصلع بصوت عالٍ:

«حرس».

دخل اثنان من الحرس بالزي الزيتوني وأمسكا عامراً بإحكام فيما

حقنه الرجل الأصلع بإبرة في الوريد، ولم ينقطع عن تكرار كلمة «جاسوس». ولمّا دفعوه إلى الزنزانة وأغلقوا عليه الباب استلقى على بطنه وحرف السين يستطيل بخفوت خارجاً من طرف فمه مع اللعاب والزبد حتى تلاشى.

في الزنزانة، بعد ساعات، جلس قبالته الشخص الغريب، يرنو إليه بمزيج من الإشفاق والمكر.

«ها عامر، ما بك؟».

«من أنت؟».

«أنا كنت هنا قبل أيام، ألا تتذكّرني؟».

«ماذا تريد؟».

«لا أريد شيئاً، أنا هنا معك، مسجون مثلك».

«جاسسسسسسسس».

«لستُ جاسوساً يا عامر، أسبوع وهم يسلخون ظهر جلدي بالسياط.. انظر».

استدار ورفع قميص بيجامته المقلمة.

«هل أنت حصان؟».

«يا ليت».

«إذن أنت حمار».

«أنا من أنا.. الظاهر أنهم قسوا معك، تبدو بقيّة إنسان».

«أنتَ بقيّة فنجان، ولكَ أذن».

«أذن؟، لي أذنان».

«اقطع واحدة وارسلها لحبيبتك».

ضحك الشاب الغريب.. قال عامر:

«أريد أن أبول».

«ذلك هو الدلو».

«سأبول على الحائط».

«لا عامر، في الدلو».

«على الباب».

«في الدلو كي لا تدوِّخنا الرائحة».

جعله الشخص الغريب وهو يمسكه بقوة أن يبول في الدلو.. لم يستطع الإفلات فجسمه كان هشاً، واهناً، في أشد حالات الضعف والاستسلام.

«أتراك تعمل على خداعهم؟».

«أخدع أباك».

«أبي، أبي ميت».

«جاسوووووسسسسسس».

«ما حكايتك مع هذه الكلمة اللعينة؟».

«جاسوس ابن جاموس».

«أي جاموس؟».

«صورته على الحائط».

«هششششش».

«هش أمّك».

«لا تقل سوءاً عن أمّي».

«أمّك أمّي، ماما بابا، دادا دادا».

«قلبتها إلى مدرسة ابتدائية».

«نار نور، قدري قاد جاموسنا».

«تتذكر القراءة الخلدونية».

«لا أتذكّر أمّي».

وأطلق ضحكة مجلجلة. حدّجه الشاب وكأنه يقول؛ من العجيب أن تكون مثل هذه الضحكة صادرة من حنجرة كائن جسمه في غاية الوهن، ومتداع إلى درجة مخيفة.

«مكانك في الشمّاعية».

«أنت شمّاعية».

«مستقبلنا هناك.. كلّنا، كلّنا».

« وماذا نفعل هناك؟».

«نعيش مع المعتوهين أمثالنا».

«حلوة».

«وما هي الحلوة».

«نعيش مع الفريق».

«أجل، سنشكّل فريقاً من المخبولين ونصعد في الدوري الممتاز»

«فريق ركن»

«هششششششششش»

«نصعد في الأمانة.. أنا أجلس في الطابق العلوي، وأنت تسوق»، وراح يهز رأسه: «أمانة مانة، أمانة مانة، أمانة مانة»

سكت قليلاً قبل أن يصرخ بقوة:

«جاسووووووووسسسسسسسسسس».

شتاء الحرب

عرّج إلى عيادة الدكتور راسم.. فوجئ بخلو قاعة الانتظار من المراجعين المرضى.. كان ثمة عمّال يحملون الأغراض إلى سيارة شحن كبيرة نوع فولفو، والسكرتيرة واقفة تراقبهم بصمتٍ كئيب.. لمح الدكتور وهو يعطي أوامره للحمّالين. كان الدكتور يرتدي قمصلة جلدية بنّية، وبنطال جينز تبني اللون. ولمّا أبصر حكمت قال:

«من الجيّد أنك هنا.. كنت أرغب في أن أراك.. سأنتقل إلى بغداد.. عُيّنت تدريسياً في كليّة الطب، وستكون عيادتي في ساحة النصر.. إذا جئت...»

قاطعه حكمت: «لن أجيء».

«طيّب يا حكمت، أقول احتمال.. اسأل عنّي في شارع المشجّر، في الفرع القريب من الساحة».

«ماكو احتمال».

«خذ هذا مبلغ خمسة عشر ديناراً. وهذه حبوب مهدئة».

وضع حكمت الخمسة عشر ديناراً وعلبتي الحبوب الزجاجيتين في جيبه.. خاطبه الدكتور وعينه على أغراضه المرفوعة على أكتاف الحمّالين:

«ابلع واحدة كلّما شعرت أنك لست على ما يرام.. مَن هناك ليحقنك بإبر؟ أدر بالك على نفسك، وادخل في موضعٍ شقي حين يبدأ القصف».

استدار حكمت خارجاً من العيادة من غير أن يرد على الدكتور راسم، وتجاهله لمّا سمع عبارته: «على الأقل تعال وصافحني»، ولم ير يد الدكتور التي بقيت ممدودة بضع ثوانٍ.

تولّاه حزن كاسح، واجتاحه غضبٌ جعل جسمه يختض.. رمى عمود نورٍ بحصاة وجدها عند قدميه، فأصدر المعدن صوتاً تصادى رنينه ولفت أنظار المارّة.. جلس على حافة رصيف الشارع العام وفتح إحدى العلبتين وبلع حبة من غير ماء.

كان الغروب قد حلّ.. استلم من سلّوم صاحب المقهى ما أمّنه عنده قبل نصف ساعة؛ كيس جنفاص يحوي قناني عرق وخبزاً وفاكهة وأشياء أُخر.. سار في الطريق المصمّت، القاحل، البارد، والظلام يهبط، باتجاه البلدة (س).. كان ذهنه مشوّشاً، ولم يسأل نفسه كيف تذكّر كلمات ولحن أغنية (أروح وياه للمكير أودعنه) وراح يغنيها المرّة بعد الأخرى. ولم يخطر له أن يتوقّف ويرتاح، ولو لمرّة واحدة.

* * *

غفا لوقتٍ لم يُعن بتحديده تحت شجرة التين.. سقطت عليه بعض أوراقها اليابسة ولم يهتم.. في رأسه خيط صداع وقد غادره السُكر، وفي عينيه بقية من نعاس، فيما جسمه نصف المخدّر يشجِّعه على البقاء هكذا في وضعه مستلقياً يصغي لريح أواخر الخريف، وقد تهيأ له أن أشجار النخل بعدما أثخنتها شظايا القنابل بالجراح راحت تنوح. وكانت أذنه

على الأرض الباردة حين تناهى إليه وقع خطوات بشريّة قادمة. حسب أنهم جنودٌ جاؤوا ليقطفوا البرتقال الأخضر والرمان، والتقط عبارة طائرة في الهواء، نصف مذعورة: «هذا حكّو». لكنّه لم يتحرك قيد إصبع. ولمّا فتح عيناً واحدة أبصر الجزء الأسفل من دشداشتين وساقين في بنطال أزرق باهت اللون من ذلك النوع الذي يرتديه عمّال مصلّحي السيارات. رفع رأسه قليلاً، وفي هذه المرّة كانت عيناه مفتوحتين على سعتهما.. رآهم وظهورهم إليه، يبتعدون بخطوات حذرة يحملون صناديق بلاستيكية.. عرف واحداً منهم في الأقل؛ صاحب الدشداشة الصفراء بعرجه الخفيف (قحطان الحرامي)، وتمتم: (حرامية). وجعلهم يختفون عن ناظريه قبل أن ينهض، ومن غير أن ينفض التراب العالق على ملابسه.. مشى في أعقابهم، ولمّا صار في قلب البستان اختبأ وراء بعض الدغل ورآهم وقد تلثموا بيشاميغ يقطفون الليمون الحامض واليوسفي ويضعونها في صناديقهم..

انسلّ متقهقراً بحذر.. أحسّ بقطرات باردة تسقط على رأسه.. لم يبالِ بالغيم الذي اكفهر الآن وتماسك فوقه في هذا الوقت الذي لا يدري إن كان ساعة الظهيرة أو ساعة ما قبل الغروب.. تنبّه لصوت دويّ بعيد.. لم يميّز إنْ كان دويّ قنبلة انفجرت أو هو قصف الرعد.. رأى البرق يخطف في الأفق، وسمع دويّاً آخر، أعقبه دويّ أقوى. وفكّر إنْ كان ثمة تواطؤ بين قصفي المدفعية والسماء. واسترجع صورة الثلاثة الملثّمين.. ألفى نفسه يهرول تحت نثيث المطر.. خرج من البستان وبدا كأنه يبحث عن شيء ما.. صار عند آخر سياج البساتين قريباً من مدخل السوق المسقّف القديم.. أبصر في العتمة الهابطة سيارة بيك آب مركونة، فيها خمسة أو

ستة صناديق مملوءة بالليمون الحامض الأخضر واليوسفي الذي لم ينضج تماماً بعد، وقال بصوت واضح: «حرامية».

تراجع قليلاً، وراح ينقل بصره في الأنحاء كمن أضاع شيئاً ما.. شيءٌ سوف يعينه في ما خطر على باله أن يفعله.. عثر على مفك رفيع صدئ بلا مقبض، أخذه واستلقى إلى جوار السيارة وبدأ بتفريغ الإطارات من الهواء. وكان عند الإطار الثالث حين سمع لغواً ووقع خطوات سريعة فكفّ عن الضغط على إبرة الهواء. وهنا عرف واحداً آخر من صوته الأجش وشتائمه البذيئة، همس؛ رياض الأعور.. فرقع معدن حوض قاعدة السيارة لمّا ألقيت عليه صناديق فاكهة أخرى. وبسبب الإطارين الفارغين من جهة الجدار مالت السيارة قليلاً ولم يفطن اللصوص.. تتبع من مكانه تحت السيارة خطواتهم العجلى، مراقباً مؤخرة باسم الأعرج التي تتلوى. كانوا عائدين إلى البستان ليأتوا بصناديق أُخر. وتمنى لو يستطيع أن يقهقه ويُسمِعَهم، لكنه راح يفرِّغ الإطارين الثالث والرابع أيضاً، قبل أن يخرج إلى المطر والغروب.

* * *

وصل حكمت قريباً من باب الجامع الأخضر الحشيشي وصاح: «قصعة».

أقبل راهي بلحيته البيضاء الكثّة وسرواله الأزرق المنفوخ القذر ووقف في وضع الاستعداد. وبعده برز نائل البدين بدشداشته التي ضاع لونها وسترته القهوائية الضيقة ووقف في وضع الاستعداد أيضاً، بطنه إلى الأمام ورقبته متوترة. ثم خرج عبسي من جهة المغاسل يرفع بنطاله

ويزرره آخذاً مكانه خلف نائل، وسأل حكمت: «أين عبّودي؟». ولم يحر أحدٌ جواباً.

بعد أيام من عثوره على راهي في بيت رشيد سالم. صادف حكمت في طرف من البلدة نائل البدين وهو جالس بيده حفنة من التمر الدقل يأكل منها.. لم يفهم منه أين كان طوال هذا الوقت، أو من أين أتى؟ ولم يلح معه في السؤال.. قاده إلى الغرفة العريضة لصق الجامع والخاصة بخادمه، وأسكنه فيها مع راهي. وحين جاء عبّودي مع عبسي ذات غروب كدر ينذر بعاصفة عرف أنهما قطعا الطريق مشياً منذ الصباح من البلدة (ك) حيث يقبع في ضاحيتها الغربية مخيّم نازحي البلدة (س). ووجد حكمت أنه من الأسهل عليه كي يدبِّر أمر طعامهم أن يسكنهم جميعاً سويّة في مكان واحد. وكانت غرفة خادم الجامع بمساحتها التي تربو على الخمسة والعشرين متراً مربّعاً تسعهم. ولم يكن من الصعب العثور على أفرشة وبطانيات قديمة لهم، متروكة في البيوت المهجورة.

رفض حكمت السكن في بيت آخر.. كانت البلدة، مذ اشتعلت الحرب، ملكه، غير أنه لم يتخل عن غرفته التي آوته بعدما وصل إلى هنا قبل أكثر من سنتين.. وبدا غير مبالٍ لمّا اقترح عليه إسماعيل المضمّد يومَ تقابلا مصادفة في سوق البلدة (ب):

«لو كنت مكانك لنمت في بيت مختلف كل ليلة.. أو لاكتفيتُ بدار رئيس البلدية.. تستحق يا حكمت أن تكون صاحب تلك الدار لأنك أشجعنا».

كانت الدار بطابقين، وشرفة عريضة، وحديقة أنيقة ضاجة بالجمال،

اعتنى بها عمّال دائرة البلدية على مدار نهارات طويلة حتى إذا هاجت المدافع غادرت العائلة البلدة على عجلٍ.. يبست متسلقات الشبوي والرازقي، وذوت شجيرات الورد الجوري والقرنفل والجربرة، ودالية العنب. وبقيت شجيرات الآس وأشجار النارنج والتوت وشجرة السدر العملاقة تقاوم الجفاف..

ولج حكمت الدار ذات ضحىً وهو شبه صاحٍ، ليقضي حاجته الملحّة.. لم يقرب باب الكليدور.. دارَ حول المبنى، وقعد ليتغوط في الفناء الخلفي الضيّق للدار. وبعد ذلك اليوم كان كلما مرّ في شارع البلدية، هناك، حيث تقع الدار في منعطفه، ضغطت عليه الحاجة، كما لو أن الدار نفسها تحفِّزها. وبمرور الوقت أصبحت الرائحة الحامضة الثقيلة في ذلك الفناء لا تطاق.

وأيضاً لم يرض حكمت أن يُسكن جماعته في أي بيت، وكاد يضرب عبّودي يوم جاء بالصحب الثلاثة الآخرين ليحتلوا دار الحاج مرتضى.. اختار لهم منذ البدء غرفة خادم الجامع، وكانت تبعد عن غرفته مسافة مئتي متر أو أكثر.. وخطر له أن ذلك الخادم الكهل محمود الذي لم يتزوج قط قد يغضب، وربما نهره الشيخ فتح الله، أو صرخ بوجهه المؤذن الملا عبد الرحيم مهدِّداً كما فعل مراراً كلّما كان يجده، في زمن السلم الذي ولّى، في مرحاض الجامع.

«عادةً، سِرْ».

أطلق حكمت أمره العسكري فمشى الثلاثة في نسق معوج، ينقلون اليد اليمنى مع الرجل اليمنى، واليد اليسرى مع الرجل اليسرى نافخين

بوجه الهواء البارد حتى إذا غنى حكمت؛ «أحنا مشينا مشينا مشينا للحرب، عاشق يدافع من أجل محبوبته» اختل بقيّة الإيقاع وحدث هرج.. صرخ حكمت: «قف». ولم يقف أحد وأصواتهم الناشزة تتقاطع وهم يؤدون أغنية الحرب: «احنا مشينا للحرب» بغير كلماتها التي في الإذاعة.

اتخذوا الاتجاه الصحيح دائرين حول الساحة وميمّمين شطر الشرق فيما وراء البساتين حيث تنتشر مواضع للجيش، وحكمت يسير في أعقابهم، ينظر إلى الأعلى. إلى نتف الغيم تحجب الشمس وتحرِّرها، وإلى نِسرين يفتحان أجنحتهما وهما ساكنان في السماء البعيدة، حتى إذا سمع وقع أقدام راكضة التفت فرأى عبّودي بقامته النحيلة وقمصلته العسكرية الرثة يجتازه راكضاً متخذاً مكانه في أول الصف. وكانوا ما يزالون يغنّون «احنا مشينا للحرب».

يصرخ حكمت: «سكوت» فيسكتون غير أنهم يواصلون السير حثيثاً نحو المواضع التي تلوح الآن، والجنود يسيرون حاملين قِصَعهم باتجاه سيارة الإيفا التي تحمل قدور الأرز والمرق، وكيس الصمّون الكبير.

يركض حكمت بعد أن يبلغهم: «تأخرنا». ينفرط نسق المجموعة ويركضون.. عبّودي في المقدمة يركض بقوة ورشاقة، وخلفه حكمت ثم عبسي، يليه نائل البدين، وأخيراً راهي العجوز.

يتسلم حكمت القصعة الألمونيوم من نائب الضابط خليل ويتجه نحو عجلة الإيفا الخاصة بالأرزاق.. يملأ العريف المسؤول عن القزانات القصعة بالأرز ومرق الفاصولياء اليابسة مع شريحة لحم كبيرة.. يقول

العريف: «وزِّع أنت اللحم عليهم، ولا تدعهم يتشاجرون». يهزُّ حكمت رأسه ويأخذ القصعة ليضعها أمام جماعته ولعابهم يسيل.. يقسِّم بينهم اللحم قبل أن يسمح لهم بالأكل.. ومع إشارته يمدّون أكفهم.. يغرفون الطعام ويلقونها في أفواههم مصدرين أصوات نهنهة ولهاث، وما هي إلا دقائق قليلة حتى تفرغ القصعة.

«عبّودي، دورك في غسل القصعة».

بعد ساعة الغداء، أحاط بهم الجنود.. جلسوا في صفٍ واحد في مواجهة شمس كانون، صامتين مذعنين، إلا عبّودي الذي بقي يكرر بصوت خافت: «لا أريد». وفي النهاية تناوبوا في الجلوس على صفيحة الدهن المقلوبة الفارغة الواحد تلو الآخر، وماكنة الحلاقة (نمرة 4) بيد حلاق فوج المشاة الثاني تجزُّ شعورهم ولحاهم. حتى عبّودي وهو يتحاشى نظرات العريف (أبو شوارب) الصارمة، استسلم لآلة الجزّ السريعة المارة خلل رأسه وذقنه. إلى أن بدت رؤوسهم أخيراً كتفاحات مقشّرة بسكينة عمياء.

شيّعتهم قهقهات الجنود وصفيرهم وتعليقاتهم المنقوعة بالبذاءة فيما هم يرجعون إلى البلدة ضاحكين، يتقافزون بمرح، وسبّابة كل منهم تشير ساخرةً إلى الرؤوس الحليقة للآخرين.

***

في يوم آخر، وبعد وجبة الغداء، يطلب نائب الضابط خليل من حكمت البقاء قليلاً لأن لديه ما يقوله له فيعود الآخرون من جماعته إلى قلب البلدة فرادى:

«اسمع حكمت.. تعرف أنا أجازف بإعطائكم الطعام.. هو ليس من بيت أهلي وإنما من أموال الحكومة. الطعام كثير فلماذا نرميه وهناك جوعى يستحقّون.. المهم، اليوم هناك مشكلة.. أقصد بالنسبة لكم.. سننتقل هذه الليلة من هنا.. سنندفع أماماً بضعة كيلو مترات.. لن يكون بمقدوركم الوصول إلينا.. هناك المكان خطر ولا يسمح بوجود مدنيين.. أفكِّر بكم، كيف ستتدبّرون أمر طعامكم.. ستُخلى هذه المنطقة من الجيش.. سيكون عليك أن تدبِّر أمرك.. أعرف أنك عاقل وهُم لا.. أنت تتحمّل المسؤولية، مسؤولية جماعتك وحيواناتك.. سأعطيك صندوقين من الأرزاق الجافة؛ بسكويت ومعلبات جبن ومربى وأنواع من المرق.. إنها من حصة جنودنا.. في الغالب لا نأكلها، ستكفيكم عدة أيام.. هذا ما أقدر عليه».

استلَّ نائب الضابط سيجارتين من علبته، أعطى لحكمت واحدة ووضع الثانية في فمه وأشعل السيجارتين بعود شخّاط:

«لماذا لا تخرجون من البلدة.. غادروها إلى حيث توجد الناس.. هناك ستجدون الطعام والأمان. لا أحد يدري متى ستنتهي هذه الحرب؟».

«من يريد أن يذهب فليذهب، أنا باقٍ».

«هذا ليس حلاً عاقلاً».

«أين العقل في كل ما يجري؟».

«اسمع حكمت، لا أريد فلسفة. فكِّر بالمسألة.. شجِّعهم على المغادرة».

«لا أحد منهم يرغب بالمغادرة، هنا لا أحد يؤذيهم.. هذه جنّتهم».

«هذا أقصى ما أستطيع عمله.. خذ كيس بقايا الطعام للحيوانات، وسأرسل معك جنديين ليحملا صندوقي المعلبات، وسأعطيك فتّاحة علب، أظنك تعرف كيف تستخدمها.. إنها قوية تأتي مع علب الذخيرة الروسية».

خبأ حكمت الصندوقين في قنٍّ دجاج متروك قريباً من غرفته واستلقى على فراشه مستغرقاً في أفكار وصور تراوده.

مع الغروب المعتم إذ جاؤوا لتناول طعام العشاء ومع وصولهم المواضع رأوا الجنود يحمِّلون أغراضهم وأسلحتهم في سيارات الإيفا، والكاز 66.. تناول حكمت وصحبه قصعتهم الأخيرة، ووجوههم واجمة حزينة.. لم يرجعوا مبكرين إلى البلدة ووقفوا ثمة يلوِّحون للسيارات المغادرة في الظلام البارد وأولى قطرات المطر الساقطة تبللهم.

هطل المطر طوال الليل، وخلال ساعتين لم يتوقف القصف. اختلط هزيم الريح بصفير القذائف ودوي سقوطها.. شرب حكمت أكثر من نصف زجاجة عرق، ودخّن نصف علبة من سجائر سومر، ولم يطفئ الفانوس كما تقتضي شروط الأمان والسلامة في الحرب، لكن عصف قنبلة قريبة أطفأته، ولم يتحرك على الرغم من الغبار الذي هبط عليه بكتلة كثيفة من السقف، وانفتاح مصراعي النافذة، الذي جعل الغرفة في مهبِّ تيار هواء بارد محمّل بقطرات المطر.

كأن الأمر لا يعنيه.. ارتشف من فم زجاجته، وأكمل تدخين السيجارة التي في يده قبل أن يقوم ويغلق النافذة.. تمتم «اشعجب ما انكسر الجام»..

ارتسمت صورة رندة في أفق ما، رجراج، من ذهنه.. حدّد قعدتها في ظلِّ المقهى، مخفقاً في جمع ملامح وجهها، وكذا بسمتها، على عكس نبرة صوتها الحلوة: «زينة، أنت شلونك»، وكأنه يسمعها الآن بوضوح غريب.. ولم يكن مرتاحاً للخبر الذي سمعه، قبل أيام، من سلّوم صاحب المقهى، وهو يقهقه بانتشاءٍ لئيم، بأنها خانت العِشرة وتزوجت من قريب لها، مغادرة البلدة (ب) إلى قرية في أطراف مركز المحافظة. في اللحظة ذاتها، لا يدري من أي كهف في رأسه أطلَّ وجه كميلة واضحاً، وخلفها وجه يشبهه أشدّ نضارةً وحزناً. ومعهما غار وجه رندة وقعدتها. انشغل بالوجه المستدير، والعينين اللوزيتين، والشحوب المثير. وعجب كيف لصورة كميلة أن يراها بلا حجابها القروي، بالشعر الولّادي الأسمر، بالكاد يصل إلى كتفيها الناحلين، وتلك الابتسامة بوهجها السرّي، ولم يدرِ لِمَ تذكّر العنب والتوت. ولِمَ تمنى لو معه، الآن، عدّة رسم وقماشة عذراء لم تُمس بعد. وحسب أن اسماً على طرف لسانه يراوغه، ولا يقدر على الإمساك به.. يغمض عينيه، ولعلّه يغفو قليلاً، فيعاود وجها كميلة وقرينتها المرور بتتابع سريع أمام ناظريه، فتتقبّض روحه، ويتمنى لو يبكي.. ويعرف أنه يستحيل عليه إطلاق دمعة واحدة تُناغم مطر الليل، وتهدئ روحه.

بقي مستلقياً على فراشه يشرب من فم القنينة، ويدخّن حتى غفا. استيقظ على صوت دويٍّ آخر، ربما لم يجر إلا في بيت كوابيسه، وعاد ليغفو ثانية، ثمّ سرعان ما استيقظ.. وبعد ذلك لا يدري كم مرّة تكرّرت معه حالات الغفوة والاستيقاظ. ومرّة واحدة، بين غفوتين، أخذ جرعة صغيرة من زجاجته ودخّن نصف سيجارة على وقع نقر المطر. ولمّا

بوغت أخيراً بنور النهار الكابي المتسلل من النافذة الزجاجية التي لا ستائر تغطيها نهض وخرج، وكان المطر ما يزال ينهمر.. مشى تحت المطر وهو حافي القدمين.. كانت قنبلة الأمس القريبة مثلما رأى آثارها قد سقطت في باحة بيت الحاج مرتضى وذبحت شجرتي التين والتوت. وجرحت إحدى النخلتين.. تفقّد حكمت الحفرة المتروكة بعمق أقل من متر واحد في الباحة، ورفع نظره يتأمل، وفمه مفتوح، الثقوب التي انتشرت على الحيطان قبل أن يرتقي السلّم الداخلي إلى السطح ليرى كم خلّف القصف من دمار في البلدة. كان بعضٌ ممّا يحيط بالمنزل مخرّباً، ولم يكن على يقين من أن هذا الدمار حصل بفعل قذائف الليلة الفائتة أو قبلها.

نزل وخرج من المنزل إلى الدرب.. مشى نحو قلب البلدة عابراً تلالاً من الأنقاض وملابسه منقوعة، يتقاطر الماء من شعره ولحيته.. توقف ليلقي نظرة مؤسية على جثتي كلبين اندلقت أحشاؤهما، ورأى على مبعدة حماراً مزّقته الشظايا، وتساءل لماذا لم يعد الحمار إلى إسطبله البارحة عند وقت الغروب، أم تراه خرج ليلاً في أثناء القصف.. وبعد زقاقين صدمه منظر حمارين آخرين ميتين.

حاول إخراج جسم كلب فتي بقيت قائمتاه الخلفيتان وذيله تحت كتلة من الطابوق والاسمنت وما زال فيه بعض رمق.. لم يقدر على زحزحة الكتلة وجعلته نظرة البؤس في عينيّ الكلب جزعاً وشاعراً بالعجز.. كان الكلب يئن ولعابه يسيل قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة.

ركض باتجاه القاعة التي حوّلها إلى إسطبل للحمير.. كان بابها

مفتوحاً، ربما بفعل عصف قذيفة منفلقة. واكتشف أن القسم الخلفي من بنايتها مهدّم. فيما يقف في الداخل ثلاثة حمير باستسلام غبي.. وتحت الجزء من الحائط الساقط لمح سيقان حمار ميت.. اعتلى البناية بوساطة درج خشبي مضعضع.. انتصب رافعاً أنفه قليلاً مثل ديكتاتور متبجح، وصاح بصوت عالٍ كأنه يخاطب جمهوراً محتشداً: «إنهم يقتلون الحمير».

صعد الطريق باتجاه الجامع وتنبه إلى أن الجزء الأعلى من المنارة ليس في مكانه، وهذا ما لم يلحظه وهو فوق سطح بيت الحاج. وجعل يركض، يوخزه ألم في باطن قدميه ولا يكترث. في غرفة صحبه، بعدما اطمأن على سلامتهم، جلس ينشّف وجهه وشعره بقميص متّسخ، تصل إليه غرغرة راهي وشخير نائل.. كانوا نائمين، غارقين في نوم حجري كأنهم لم يناموا منذ عهد لوط.. فتّش جيوبه وعرف أنه نسي علبة السجائر في كوخه. وكان على وشك الخروج حين فتح عبّودي عينيه، ونظر إليه وقال مثل طفل يرجو أمه: «أكل، ميت من الجوع». ردّ حكمت: «عرب وين عبّودي وين». وخرج إلى المطر ثانية.. كان بردانَ، ولا يعرف ماذا عليه أن يصنع وإلى أين يجب أن يذهب، ولم يكن يرغب بالذهاب إلى الكوخ، لكن السجائر الحقيرة هناك.

في الكوخ بدّل ملابسه المبللة بأخرى جافة وإن كانت أكثر رثاثة ووساخة. التهم بضع حبات من تمر الزهدي، وحمل في جيبي بنطاله كمية منه.. دخن سيجارة وتلمّس باطن قدمه واكتشف أنه نزف كثيراً.. مدّ ساقه من الباب ليغسل الجرح بماء المطر.. أشعل قطعة صغيرة من القماش وأطفأها ليمسح بها وهي ساخنة موضع الجرح ثم شدّ قدمه

بخرقة.. لبس نعاله المطاط.. أشعل سيجارة ثانية ووقف يتأمل المطر المنهمر من النافذة ويدخِّن. حمل من قنِّ الدجاج علبة بسكويت، وعلبتي جبن علامة كرافت، وعلبة من مربى المشمش، مع فتّاحة العلب، وحالما وطأت رجلاه أرض الشارع راح يهرول ضاغطاً على جيبيه براحتي يديه لئلا يسقط عُلبه، أو يفقد أية حبة غالية من تمره، متّخذاً جهة الجامع والمطر يهمي على رسله. وقبل أن يدخل إلى غرفة جماعته رفع ناظريه.. كان الغيم يتفكك جنوب السماء فتنفذ، من بين مِزقه،، حزمٌ من ضوء الشمس.

***

كانت رائحتهم زنخة وهم يجلسون على دكّة في باحة الجامع النظيفة المغسولة بماء المطر.. الشمس ساطعة دافئة، والسماء فيروزة زرقاء هائلة تربضُ فوقهم... أعطى حكمت كل واحد منهم حفنة من تمر الزهدي، وثلاث قطع من البسكويت المملّح، مع قطع جبن، ودسّ في حلق كل منهم نصف ملعقة مربى.. التهموها سريعاً وكلٌ يحملق في وجه صاحبه. بدا أنهم سيعاودون الشجار ثانية.. صرخ فيهم أن يكفّوا وهدّد بإماتتهم جوعاً إن لم يتصرّفوا كآدميين.. سُمع دويٌّ انفجارات بعيدة، وسقطت قنبلة واحدة ناحية البساتين، صوتها كان كالرعد، رجّ الأبواب والنوافذ. هبّ راهي على إثرها وراح يدور راكضاً صارخاً في الباحة، تبعه الآخرون وحكمت يراقبهم. ثم أخرج صافرته ونفخ فيها طويلاً مغمضاً عينيه من الغضب ليوقفهم.. لم يتوقفوا، ولم يكف هو كذلك عن النفخ في صافرته التي اشتراها قبل أسابيع من البلدة (ب) وعلّقها بخيط غليظ حول رقبته. استمر

ضجيجهم لدقائق قبل أن يهدّ التعب جسم راهي النحيل الشائخ فجلس مسنداً ظهره إلى الحائط في مواجهة الشمس وهو يلهث فتبعه الثلاثة الآخرون وقد جلسوا مثله في صفٍّ واحد وظهورهم مسندة إلى الحائط الإسمنتي الرطب. وتلاصقوا يبغون الدفء.. كشّر عبّودي عن ابتسامة طالباً سيجارة من حكمت. وكان هذا ما يزال ينفخ في صافرته فسأل؛ «متى جلستم؟». قال عبّودي: «أريد سيجارة، وأنت ابق انفخ في صافرتك حتى الليل». أعاد حكمت الصافرة إلى ما تحت قميصه وناول عبّودي سيجارة.. أشعلها له وقال: «لم يتبق لنا عرق وسجائر، وليس لدينا طعام كافٍ.. سأذهب إلى البلدة (ب)». طلب نائل هو الآخر سيجارة.. قال له حكمت «أنت لا تدخِّن». فقام بحركة بذيئة بإصبعه الوسطى أجابه عبّودي بحركة مشابهة، وهمّا بإخراج عورتيهما ليهزَّ كل منهما عورته بوجه صاحبه كما اعتادا في كل مرّة حين يتشاجران لولا أن حكمت استلّ صافرته ثانيةً مطلقاً منها صوتاً زاعقاً جعلهما يتراجعان إلى الحائط.. دخّن عبّودي سيجارته حتى أحرق عقبها المشتعل أصابعه فرماها وهو يشتم. ولما ترك حكمت الجامع والساعة هي الواحدة بعد الظهر ربما، خرج عبّودي من بعده، وتفرّق الآخرون كلٌّ إلى جهة مختلفة. نائل إلى قاطع المراحيض، راهي إلى غرفة النوم، وقعد عبسي متربعاً أمام باب الجامع فاتحاً يديه ليبقى يصيح لساعتين «لله يا محسنين». يلاحق بنظره بشراً يتوهمهم يمشون أمامه في الدرب الخالي يتوسل إليهم بمذلة ويدعو الله أن يحفظهم من كل سوء، قبل أن يفطن إلى حقيقة أنه لم يحصل على درهم واحد ليبدأ بشتمهم جميعاً لأنهم لا يساعدون المساكين من

أمثاله، قبل أن يتمدّد وينام في مكانه، يشخر ويغمغم مغطِّياً جسمه الضئيل بمعطفه العسكري الفضفاض.

***

وصل حكمت أول الطريق المؤدي إلى البلدة (ب). وضع يديه على خاصرتيه وحدّق في شريط الإسفلت الموغل في السهل الأجرد، كما لو أنه يقيس المسافة بالنظر إلى هناك قبل أن يمضي قدماً. وبعد دقائق من المسير خطر له أن أحداً ما يتبعه.. التفت وراءه.. لمح على مبعدة سبعين متراً رجلاً راح يلوِّح له بذراعه الطويلة.

صاح به: «عبّودي، ارجع».

والتقط حصاة من جانب الطريق رماها باتجاه عبّودي الذي وقف الآن.. لم تصل الحصاة إلا إلى منتصف المسافة بينهما.. ركض بضع خطوات نحو عبّودي الذي تقهقر بخطوات.. عاد حكمت مستأنفاً مسيره إلى البلدة (ب) وعاد عبّودي يتبعه. بعد ربع ساعة فوجئ بصوت منبِّه سيّارة.. قفز خارجاً من الشارع واستدار.. توقفت عجلة عسكرية من نوع كاز 66 إلى جانبه.. من حوضها دهمته أصوات مرحة: «حكّو» مع التصفيق المنغّم والصفير.. قال له نائب الضابط خليل الجالس إلى جانب السائق في قمرة العجلة: «اصعد حكمت».

تسلّق حكمت الحوض المكشوف، ساعدته أيادٍ ممدودة فجلس بين الجنود، وكان عبّودي يجلس بين جنود آخرين قبالته وعلى فمه ابتسامة ساخرة عريضة.. نقّل عينيه بينهم، وقال: «عمو أبو شوارب ماكو». فرقعت ضحكاتهم.. سأله أحدهم: «ألا تتذكّرنا؟». قال: «أنت جميل..

العميل». قهقهوا بصوتٍ أعلى.. ألفاهم مرحين، وضحكاتهم صاخبة.. قال جميل: «أنت تتذكّرنا إذاً؟». التفت حكمت إلى الجندي الجالس لصقه: «وأنت رامي، أخوك حرامي». بدا مزاجهم طيباً.. «وأنت»، خاطب الجندي الذي يجاور رامي: «نوشي، حمّال..». وصاح معه الجميع «بوشي».

كان يعرفهم واحداً واحداً.. هم من جماعة القَدَمَة الإدارية للفوج الثاني مشاة آلي التي تركت مواضعها قبل أسبوعين لتكون أقرب إلى خط المواجهة.. أخبروه أنهم مجازون، وأنهم الآن في موقع خطر، يتناوشهم القصف المدفعي مرّة في كل يومين أو ثلاثة أيام، فيما الوضع في الخنادق الأمامية للفوج أخطر. وحكوا عن أشخاص لم يكن حكمت يعرفهم: «سلام وحيدر استشهدا قبل أيام، وفقد علي عباس عيناً، ولؤي عبد الرحمن ساقاً، فأعفيا من الخدمة وتخلصّا من الحرب وإلى الأبد».

بعد صمت قصير سأله رامي: «كيف تدبِّر أمورك وأمور جماعتك وحيواناتك؟».

قال: «زين، بخير، زين».

«وكيف حال عبسي؟».

«يستجدي أمام باب الجامع». انفجروا بالضحك.. فَهِم حكمت أنهم مبتهجون بالإجازة؛ أسبوع كامل سيقضونه بعيداً عن القصف والأوامر والواجبات والموت.

شكا نوشي: »لن أصل العمارة قبل منتصف الليل». قال رامي:

«سأكون في بيتي ببغداد بعد ساعتين، لماذا لا تبيت عندي الليلة وغداً...». قاطعه نوشي: « أتريدني أن أفوِّت ليلة، لو كنتَ متزوجاً ما قلت هذا الكلام». قهقهوا.. قال جميل: «لا أظنني سأجد سيارة تأخذني إلى القرية.. سأبيت في بيت عمّي بالرمادي». قال الجندي الآخر الذي لم يسبق لحكمت أن تعرّف عليه بتبرّم فكه: «وماذا ستقولون لو احتجزتنا الانضباطية في السيطرة القادمة وأعادونا للوحدة.. لماذا؟ والله الإجازات توقّفت، الليلة نتوقّع هجوماً معادياً». صاحوا به بإنكار: «فال الله ولا فالك». سأله حكمت: «ما اسمك؟».

«نجم».

«وأبوك؟».

«نعيم».

قال رامي: «نقلوه للقَدَمَة بعد انتقالنا».

صفن حكمت قليلاً فيما سكت الجنود وعيونهم مصوّبة إلى شفتيه.

«نجم نعيم.. يشبه كريم».

ضحكوا بعصبية.. قال نوشي:

«غيرها، غيرها».

«نجم نعيم، جنّي رجيم».

ضحكوا هذه المرّة بصخب، وصفر رامي واضعاً بنصره وإبهامه تحت لسانه، وقال: «سأتحدّث عنك يا حكمت لأصدقائي الليلة في البار».

قال نوشي: «لعنك الله، في البار؟».

«وأنت أين ستقضي إجازتك؟، في الجامع؟».

جولة أخرى من الهرج والضحك قطعها التوقّف المفاجئ للعجلة.. أخرج نائب الضابط خليل رأسه من فتحة الزجاج حيث يجلس، وقال:

«حكمت، انزل هنا مع صاحبك.. ستتسبّبان لنا بمشكلة في نقطة السيطرة.. أكملا الطريق مشياً فالبلدة قريبة».

نزل حكمت وبقي عبّودي في مكانه جامداً.

«انزل عبّودي».

«لا، سيضربني».

«لن يضربك، حكّو لا تضربه».

«سأكسر رأسه، سأجعل دمه يسيل حتى بيت المحافظ».

«حكّو كن عاقلاً».

«قلت له ارجع ولم يسمع كلامي».

«لن يعملها مرّة أخرى».

«سأذبحه إذا فعلها ثانية».

«انزل عبّودي ولا تفعلها ثانية».

«لا، يذبحني».

«يقول إذا فعلتها ثانية، هذه المرّة عفو».

نزل عبّودي وانطلق يركض بأسرع ما يستطيع نحو البلدة (ب).. قال

حكمت: «يا بخلاء». ضحك الجنود وقد أدركوا قصده.. أعطاه كل منهم ورقة نقدية من الفئات الصغيرة، قال:

«ديناران، هذا يكفي».

ومدّ له نائب الضابط بورقة من فئة نصف الدينار.. أخذها:

«زيادة خير».

ابتعدت العجلة ولوّح له الجنود باسمين. بقي واقفاً للحظات قابضاً بكفّه الخشنة على النقود.. رأى عبّودي يركض وسط الشارع بعد أن اجتازته عجلة الجنود المجازين.. صاح: «عبّودي».. وبدأ يمشي بخطوات واسعة، سريعة، فيما لم يلتفت إليه عبّودي ولم ينتظره.

النقود التي أخذها من الجنود لن تكفيه، عليه أن يطلب من بعضٍ ممن يعرفهم، في البلدة هذه، بضعة دنانير إضافية، فما عاد وحده، ولديه مسؤولية إطعام صحبه هناك.. وكفّ عن التفكير بعبّودي الذي فقد أثره.. عبّودي الذي ظلّ يركض طوال الوقت حتى غاب بين الخلق في السوق، فيما لم يركض هو قط.. حين توجّه إلى مقهى سلّوم علا صوت المؤذن يدعو لصلاة العصر.. أُستقبل بهياجٍ في المقهى.. سألوه عن البلدة (س)، وإن كان هناك مَن رجع إليها مِن غير جماعته، وكيف يسيّرون أمرهم وحدهم.. اكتفى بأجوبة مقتضبة وأعلن عن حاجة جماعته للنقود.. كانوا أسخياء معه فجمع أكثر من عشرة دنانير.. عدّها مرتين وثلاثاً ويمّم شطر مخزن الخمور.. اشترى ثلاث زجاجات عرق. ثم اشترى من دكان عوّاد أبو التتن كلوص سجائر سومر، ومن محل العم شناوة معلبات مرق ودبس ومربى، وبسكويت وجبن وحليب، ومن دكّان حليم البقال بعض

الفاكهة، ومن المخبز اشترى عشرين رغيفاً.. وضعها كلها في كيس من الجنفاص وحملها على ظهره.. أدار عينيه في الأنحاء علّه يعثر على عبّودي ليعيده معه إلى حيث موطنهم في البلدة (س). غير أن عبّودي كان قد اختفى كما الفأر في دغل كثيف.. تمتم غاضباً: «إلى جهنم». وأحسَّ بضيق في صدره، وراح يلعن.. تسكّع لنصف ساعة أخرى رائحاً غادياً على طول الشارع العام، شارع البلدة الوحيد إذ تنتشر المقاهي والمطاعم الصغيرة والحوانيت على جانبيه لمسافة كيلو متر ونصف.. جلس خلف بناية المطحنة القديمة.. شرب جرعات من زجاجة عرق فتحها، ودخَّن أربع أو خمس سجائر وترك بقعة بول متعرجة على الحائط الخلفي للمطحنة قبل أن يذهب إلى مطعم لبيع الوجبات السريعة.. استقبله البائع بحفاوة وأعطاه شطيرة فلافل، وقال: «على حساب المحل». أجابه حكمت: «طبعاً، فأنا لا أملك فلساً واحداً». ورفض دعوة لشرب استكان شاي. وبقي يتلفّت بحثاً عن عبّودي.. أوقفه رجل أنيق الملبس:

«ألا تعرفني؟».

«أنت».

«أنا الأستاذ عادل.. أما زلت تسكن البلدة (س)؟».

«عادل العصفور.. نعم.. ألم تر عبّودي؟».

«عبّودي؟. من هو عبّودي؟».

سار جنوباً تاركاً الأستاذ عادل العصفور الذي راح يشيعه بنظرة حانية وعلى شفتيه ابتسامة إشفاق وحيرة.. كان على حكمت أن يقطع الطريق

مشياً إلى البلدة (س) إذا لم تصادفه في الطريق عجلة عسكرية تقلّه إلى هناك.. كان ما يزال يفكِّر بعبّودي..

ركب، هو الرجل المدني الأشهر بين قطعات الجيش في القاطع، ثلاث سيارات عسكرية.. كان يطلب النزول كلّما انحرفت السيارة عن مسار الشارع العام إلى طريق آخر، فرعي، فيكمل طريقه ماشياً ريثما تقف سيارة أخرى إلى جانبه وتقلّه مسافة أبعد.. وقطع الربع الأخير من الطريق ماشياً.. وصل البلدة بعد التاسعة ليلاً، وكان قد شرب نصف زجاجة عرق، ودخّن علبة سجائر كاملة.

الليلة صافية، والقمر صعد، لتوِّه، كرةً ليمونية قُضم جزءٌ من حافتها.. ميّز حكمت بين البنايات والأشجار وأعمدة الكهرباء الخامدة، على مبعدة ثلاثين أو أربعين متراً، كتلة متحرِّكة؛ شبح كائن بشري.. تمهّل لحظات، ثم أسرع الخطو.. تنقّل الشبح يميناً وشمالاً كأنه طفلٌ يلعب، حتى إذا ضاقت المسافة بينه وبين حكمت انطلق راكضاً نحو قلب البلدة. وتلاشى بين الأزقة والدروب.

توقف حكمت، انزل كيس الجنفاص، بصق ومسح فمه بكمّ قميصه.. قال كما لو أنه يخاطب الشبح الذي عرف من يكون:

«عبّودي، سأريك يا كلب».

* * *

«عبّودي، لماذا تبعتني البارحة؟».

«أريد أمّي».

«أمّك مع الله».

«وأين الله؟».

« في السماء».

«لنصعد إلى السماء».

«لا، شكراً، اذهب وحدك».

«تعال معي».

«لست مستعجلاً مثلك».

«أنت لا تريد أمّك».

«لا أريدها».

«تريد أباك».

«لا أريد أبي».

«ماذا تريد».

«لا أريد شيئاً».

«تريد امرأة.. تريد أن تتزوج.. هِيْ، هِيْ».

«أريدك أن تسكت».

«أريد سيجارة».

«خذ سيجارة».

«وعرق».

«خذ، بقيَ في الزجاجة نصف ربع».

كانا يجلسان على دكّة في الساحة الخالية. عبرت طائرتان باتجاه الحدود. رفع عبّودي عينيه وصاح: «طيّارات». ولم يرفع حكمت عينيه. قام ليغادر. قال: «لا تشرب نصف الربعية دفعة واحدة». وسارَ مبتعداً. لم يعلّق عبّودي بشيء. فتح سدادة الزجاجة وعبَّ في جوفه جرعة كبيرة.

***

يمشي وفي يده عصا.. عصا مقبضها معقوف، وجدها قبل أيام في واحد من بيوت البلدة.. كانت ملقاة في زاوية من الحديقة الخلفية لدار كبيرة، مع أغراض أخرى لم تعد ذات فائدة لأحد؛ مناضد وكراسي خشبية محطّمة، أواني زجاجية وبلاستيكية مكسورة وأخرى معدنية صدئة، أوراق وأسلاك وأجزاء من أجهزة قديمة.. كانت العصا بينها.. التقطها، خشبها ليس من النوع النادر والثمين؛ لحاؤه متشقق وقد تساقط صبغه القهوائي في مواضع كثيرة، لكن العصا تفي بالغرض؛ يتوكأ عليها، ويلوِّح بها مهدِّداً صحبه، ويلكز بها أي حيوان يحرن.. حيواناته التي باتت اليوم أكثر ألفة من ذي قبل، وتعرفه جيداً.

يصعد إلى سطح دار الحاج مرتضى.. يقف عند الحافة حيث سقط جزء من الستارة بفعل شظايا كبيرة لقنبلة مدفع من عيار ثقيل.. يمسك عصاه بيدين راجفتين وقدّه منحنٍ، كأنه قائد عجوز بائس لجيش منكسر راح يتابع فلوله المنسحبة.. يحدِّق بعينين دامعتين في ميدان هزيمته وتعاسته.. يردِّد بنبرة مشروخة: «إني أرى ضريح الآمال والرغبات كلّها».. يحاول أن يتذكّر أصل هذه العبارة، من أي كهف في لا وعيه تراها أقبلت؟.. هي ليست له كما رجّح، وإذن هي لمن؟. أَسَمِعها من

شخص ما؟. أقرأها في كتاب؟. لم يتذكّر.. تذكّر جملة أخرى: «والميدان لا يكشف إلا عن حماقته وبؤسه، وما النصر إلا وهمٌ من أوهام الفلاسفة والمجانين».

البلدة في وضح شمس كانون الثاني غير البلدة قبل أربعة أشهر.. الأرض مجدّرة بفعل القنابل والمواضع المتروكة. والخرائب مثل بثور تحيطها جدران ما زالت واقفة. وبيوت لم تُصب، حتى هذه الساعة، بسبب المصادفة والحظ.. ذهن حكمت غابة مبهمة.. مشاهد مختلطة يعوزها الرسوخ، ويفتقر إلى شرط اليقين.. تهويمات أو ما شابه.. خيالات راقصة في الهواء والضوء.. لا يمكن أن تكون هذه هي البلدة التي لاذ بها قبل سنين قليلة.. ثمة أمرٌ غير طبيعي ولا يمت للمنطق بصلة.. المنطق كما اعتاده حتى في أكثر نوازعه شططاً.. هذه لحظة تجلٍّ كأنه استيقظ من كابوس، غير أنها لحظة غريبة، باردة، بلا ألفة، وبلا طراوة.. بلا حياة.

لا يعقل أن تكون هذه الفسحة الجرداء ساحة العروس. لا يعقل أن يكون ما يصلها هو شارع القاضي. وتلك لا علاقة لها بمدرسة الأجيال الابتدائية المختلطة. أما كومة الأنقاض التي تُسبِّب له انقباضاً في المعدة كلّما عبر قلب البلدة فليست، مهما حاول أن يتخيّل، بناية المستوصف الصحي.. كم من القنابل سقطت عليها؟.. وحدها المكتبة العامة ببوابتها المزخرفة بقيت شاخصة؛ المكان الذي طالما تردّد حكمت في دخوله.

ينزل حكمت الدرج، وهو ينتعل حذاءً جلديّاً قديماً التقطه من كراكيب أحد البيوت.. حذاءٌ جيّد، ثقيل، واسعٌ على قدميه، لكنه يدفئهما.. هبط

الدرجات الكونكريتية على مهل مثل من يخشى أن يعثر ويسقط.. كان الضوء شحيحاً، وكان يفكِّر بالطعام.

دخل عشرة بيوت ولم يجد ما يمكن أن يؤكل.. الدور فارغة إلا من أسمال وأغراض لا نفع فيها.. جاء معظمهم بعد رحيلهم بأيام وأخذوا كل ما يخصّهم، كما لو أنهم ليسوا عائدين مرّة أخرى أبداً.. حتى التجّار الصغار نقلوا محتويات حوانيتهم ولم يتركوا شيئاً.. في هذه المرّة لم يكلِّمهم.. بقي يراقبهم من بُعد ويشتم.. ومنذ ذلك الحين والقنابل تقضم من جسد البلدة أجزاء أُخر، وها هي، ينعب في أرجائها طائر الشؤم.. وظلّ الجنود القريبون من البلدة يعطونه ما يحتاج من الطعام على الرغم من إيذاء بعضهم له بالممازحات المزعجة.. كان فيهم الطيّب، وفيهم الشكس الذي ينتظر منه قفشاته وإجاباته الذكيّة والغريبة والنابية.. تحمّلهم من أجل طعامه وطعام جماعته وحيواناته. غير أنهم انتقلوا بعيداً.. لولا البساتين لمات هو وصحبه جوعاً.. هناك مواسم التمر والبرتقال واليوسفي والرمان، ولكنه بحاجة إلى السجائر أيضاً، وبحاجة إلى العرق، وإلى اللحم والخبز.. الخبز.. لا شيء يمكن تناوله من غير خبز. ثم هو الآن في الموسم الشحيح.. لا شيء في البساتين الآن.. الفاكهة أكلها هو وصحبه والجنود، وسرق أكثرها الحرامية. والأشجار ستذبح القذائف بعضها وستلتهم النيران بعضاً آخر. والبقية، ستموت في الصيف المقبل عطشاً، إذ من سيسقيها؟.

وقف وسط الساحة.. دخّن آخر سيجارة.. ضرب بعصاه على الإسفلت، ومضى بخطوات سريعة باتجاه البلدة (ب).

***

ينحسر الشتاء ببطء ومعه يدخل حكمت في طور الصمت.. نظراته فاترة، لا أبالية، كما لو أنه في مكان آخر، في شطرٍ آخر من الحياة والكون، مأخوذاً بحلم كالدخان.. يباغته الدكتور راسم ذات شرخٍ في سدّ الزمان، ويقول: «هذه ليست حياة.. هذا غير معقول».

لكن، لا رغبة له في أن يسأل: «لِمَ هو غير معقول. وإذن ما هو المعقول؟ ما الذي، ومن، يجزم بأمرِ المعقول؟ وأيضاً ما الحياة؟ قل لي يا دكتور، ماذا يمكن أن تكون تلك العاهرة التي تسمّيها الحياة؟».

الساعة ما قبل الظهيرة من نهارِ شبه غائم.. نتف الغيوم تتهادى بهواء نهايات شباط.. وجبهة الحرب القريبة هادئة.. يظلُّ حكمت جالساً على سريره، وأبداً، كذلك، لن يستطيع أن يسأل، مع هذا القدر من فتور الروح: «ماذا جئت تفعل هنا يا دكتور؟».

لا ينتابه أي شعور على الإطلاق؛ لا حزن، لا سخط، لا ارتياح، ولا ندم.. فراغ فقط.. ليس ثمة، في صدره ورأسه، إلا فراغ مريع.. وهذا الدفتر الذي سقط من غنائم لصوص الحرب والتقطه مع ثلاثة أقلام من نوع الـ(جاف) في درب السوق قبل أشهر، فليأخذه الدكتور.. كتب فيه ورسم، ولا يذكر ماذا كتب ورسم.. لاشيء؛ هراء.. وأخيراً سيقول للدكتور راسم: «هراء».. وسيعود الدكتور راسم عند الظهيرة خائباً وآسفاً إلى بغداد، تاركاً في الغرفة الملحقة ببيت الحاج مرتضى وبستانه ما جلب من خبز وفاكهة ومعلّبات لحم وخضار وجبن ومربى، وعلباً من سجائر سومر.. وسيناوله الدكتور راسم ورقتي نقد من فئة العشرة دنانير ويقول: «أدري أنك ستشتري بها قنانيَ عرق». لكن حكمت لن يقول

له ما دار، في هذه اللحظة، داخل رأسه؛ «وخبز أيضاً».. يضع الدكتور راسم، والوجوم يلفّه، يده على كتف حكمت، قبل أن يصعد سيارته وينطلق، ومن غير أن يقول شيئاً.. لكنّ حكمت سيقول: «هراء».

لم تعد في باحة الدار أرجوحة

«أنت لا تفهم عبّودي.. مهما حكيتُ لن تفهم.. العالم مكان خاطئ.. نحن جعلناه خاطئاً.. نحن أخطاء آبائنا.. آباؤنا أخطاء آبائهم.. ليست أحجية.. انظر؛ مدننا غبار وعبث.. عبثنا وغبارنا.. كيف؟، لا عليك.. مهما فسّرت لن تفهم.. أتعرف لماذا؟ قلت لي، حسناً، وأقول لأنني، أنا نفسي لم أفهم.. ربما لنسياننا أننا كنا يوماً ما أطفالاً.. وما العلاقة؟ لا علاقة.. ليس شرطاً أن تكون هناك علاقة دائماً.. أتتذكر أنك كنت طفلاً في أي يوم؟. أنت لم تكن طفلاً في أي يوم. هكذا ولدتك أمّك، بهذه اللحية، وهذه التجاعيد وهذا الألم.. لم تقرأ كتاب القراءة الخلدونية. وما حاجة أمثالك للقراءة الخلدونية أصلاً؟ أن تقرأ، تلك هي المعضلة.. أمس دخلت المكتبة العامة.. لأول مرّة أدخلها.. كنت أتحاشاها مذ غادروا.. لم يقتحمها أحد، لم يكسروا الباب، فمن يرغب بسرقة الكتب.. وجدت الباب الخلفي مفتوحاً.. هربوا ولم يغلقوه.. نسوا.. وجدت المقامر لديستويفسكي، والأبله.. جلستُ عند النافذة وقرأت عشر صفحات من الأبله.. أتعرف الأمير مشكين؟. تهيأ لي أنني أنظر في مرآة.. أقرأت الأبله؟. بالمناسبة؛ أتحسنُ القراءة؟. لا تُحسنها.. أدخلت مدرسة يوماً؟. المدارس ليست لأمثالك.. أنت نكرة.. العفو، لا أقصد

الإساءة.. أنت صديقي.. أنا أقرأ ولا أتذكّر معلّماً واحداً درّسني.. أليست كارثة؟ كل شيء بات كارثة، حتى الطعام والعرق.. لم تتعلم القراءة، لا يهم.. المهم أنك متحرِّر من الثقل.. لكنك في الحرب مثلهم.. الهواء طيّب في الفجر، بارد ومنعش.. وهذا المعطف مزعج.. سأنزعه، سأبقى بالقميص.. لا عليك.. أنت لا تنزع ملابسك.. الناس ينزعون ملابسهم ليستحموا.. ليبدِّلوها.. وأيضاً لأسباب أخرى.. ملابسي كانت وسخة.. كميلة قالت سأغسل ملابسك، هات لي علكاً من دكان خدّوجة.. طردني ولي عبّود.. قلت له العلك لكميلة بنت حجي مرتضى.. نجس سكّير مخبّل صاحت خدوجة.. أنا شيطانهم.. من السوق اشتريت علك سهم لكميلة، خمس قطع بدرهم.. أعطتني قطعة.. علكته حتى الليل.. لم أرمه.. بلعته.. علك كميلة صار في بطني.. ماذا؟ أحبها؟ لا.. حُب؟. لا، لا، لا.. يا حُب، يا بطيخ.. حَب رقّي. هههههههه.. اسمع عبّودي.. الدنيا مثل عود الشخّاط، مثل أجّاصة، وفي النهاية تؤكل أو تتلف.. الدنيا تالفة.. فيها حرب وحقد.. فيها قناني سفن آب فارغة، وفيها خدّوجة وفيها مصائب.. مصيبة أنني عثرت بحجارة في الليل.. كانت ظلمة.. ركبتي انشقّت ونزفت.. طلع دم أحمر.. هناك أناس دمهم أزرق.. دم أحمر من غير وجع.. عجيب، دم؟ وسألت روحي؛ أين الوجع؟ قالت؛ العرق شرَبَ الوجع. هههههه.. قلت حتما سأشتري لايت كبير من السوق.. لايت خالي حجي مرتضى ضاع.. اشتريت لايت مع البطاريات بدينار.. أغلى من قنينة عرق هبهب.. العرق يدوّخ.. لولا العرق لكان الحال غير الحال.. العرق منقذ مثل السفينة وأنت تغرق.. ترى السفينة قادمة نحوك في وسط البحر.. ما الذي رماك هناك؟ ماء البحر مالح سم

وأنت عطشان.. من الجيّد أن تكون هناك سفينة وتصل.. تلقى قنينة العرق في محل عمّو ميخو؛ حليب السباع.. 6×6=36.. 1×1=1.. غريبة.. لم نر البحر، لا أنا ولا أنت.. لن نراه أبداً.. أبداً أبداً عبّودي.. لن نسبح في بحر.. لن نغرق في بحر.. لن تأتي السفينة.. سنبقى نشرب ونسكر.. السُكر يأخذنا للبحر.. نسبح ونغرق وتأتي السفينة.. نصرخ.. يروننا.. أقصد العرق، لا شيء آخر.. أقول عطشان أريد قنينة عرق.. العرق سفينة.. هذه فلسفة.. أنت لا تفهم بالفلسفة عبّودي.. أحسن.. (انعل ابو الفلسفة لابو الجابها).. اقرأ ديستويفسكي؛ أحسن.. لكنك لم تتعلم القراءة.. أخذت من المكتبة كتاب رسائل من بيت الموتى استعارة.. سجّلت اسمّي في السجل.. لقيت السجل ولقيت قلم الحبر الجاف في درج الموظف.. الموظف غير موجود.. قلت؛ حكّو لك أسبوع واحد تقرأ فيه الكتاب وترجعه.. أكيد.. لم أسجِّل التاريخ في خانة التاريخ.. من يعرف التاريخ.. كذب.. كذّابون.. كتبت؛ صباح الطائرات.. تتذكّر الطائرات البارحة عبّودي.. كانت سريعة.. مرّت منخفضة.. صوتٌ رهيب.. صرخ نائل وراهي.. جبناء.. عبسي ظلّ نائماً.. نوم أهل الكهف.. أنت عفطت.. أنا قمت وذهبت إلى المكتبة واستعرت رسائل من بيت الموتى.. نحن في بيت الموتى عبّودي. تبخّر كل شيء إلا الذكريات.. وأنا فقدت حتى الذكريات.. وأنت أيضاً.. هذا أفضل.. كميلة تصعد الأرجوحة، على الحبل المعلّق بين النخلة والسدرة.. تحت مؤخرتها الصغيرة فرشة حمراء.. تسألني؛ حلوة؟ هي تشبه أحداً ما.. بنتاً ما.. لا أدري تشبه من.. تصعد وتنزل في الهواء، في السماء، تعلو نحو الزرقة والشمس وتهبط نحو العشب والورد وتصعد.. تصيح، فرحانة..

وأتمنى أن أدفعها، أقوى، أقوى.. لكن عيب.. لن يرضى الحاج مرتضى.. قالت اشترِ لي قنينة سفن آب، اشتريت لها بيبسي كولا، قلت لها البيبسي أحسن، السفن يوجّع البطن.. زعلت.. راحت كميلة.. كلهم يرحلون.. لن يبقى سوى حكمت وعبّودي والجماعة.. المدينة خاوية مثل القرع اليابس انتزعوا أحشاءه وتركوه ليجفّ في الشمس.. نحن فيه مثل نملات كئيبات.. من يعطيني دينارين بعد كل يوم؟. راحوا.. خدّوجة قالت لي: (امجدّي).. غضبت.. قلت لها أنا لا أستجدي، أنا آخذ حقي من القدَر؟. أترغب بالتدخين؟ إنه شهوة.. خذ سيجارة؟.. وجدت في درب السوق علب سجائر أوقعها اللصوص.. قلت سأعيدها لأصحابها.. لم أعرف من هم.. دخنتها.. مال سائب مبذول.. حذّرتهم.. قلت لا تتركوا البلدة.. قلت للحاج مرتضى: أنتم تخونون الزاد.. قال: أنت لا تدرك معنى كلامك.. أنت لا تعرف ما هي الحرب؟. أنا اليوم أعرف ما هي الحرب مثل الجنرال.. أكثر من الجنرال.. صدّقني.. الحرب أن ترحل كميلة وتُذبح السدرة وينقطع حبل الأرجوحة ويجوع نائل وأسهر أنا الليل خائفاً.. لا، لست خائفاً.. لا داعي للخوف.. على ماذا أخاف؟. لا شيء عندي كي أخاف لأجله.. المفلس في القافلة حر.. وحين ستعود كميلة لن تجد السدرة، ولن تكون هناك أرجوحة، ولن تضع مؤخرتها الجميلة على الفرشة الحمراء لتطير؛ تصعد وتنزل وتكركر وأنا واقف أراقبها وقلبي يوجعني.. الآن يوجعني قلبي أكثر.. فرق بين قلب يوجعك وكميلة على الأرجوحة وقلب يوجعك لأن كميلة ليست على الأرجوحة.. لم تعد في باحة الدار أرجوحة.. تمنّيت أن تقف أمامي أو وهي تتأرجح أن أرسمها.. لستَ أنتَ الذي ترسم بل روحك.. كائن آخر

فيك.. الرجل الآخر الرائع المحبوس بالرسم يتحرّر.. جنّك يخرج.. أخرجُ من رائحة كميلة وضحكتها في الصباح إلى اللوحة.. اللوحة باب وطريق وأفق أبيض.. أنت لا تفهم ما أقول يا عبّودي.. حمار.. العفو، لا أقصد الإساءة.. لكنك تفهم بضميرك، بقلبك.. تفهم أنني موجوع وأنني مهزوم، وأنني لا شيء، لا أحد.. كميلة تشبه من؟ لا تشبه رندة.. لا تشبه فتاة الخرابة مع ذلك الرجل.. لا تشبه المرأة التي في لوحة الحائط عند الدكتور راسم.. قد تشبه أمّي.. تريد أمّك؟ يا عيني.. أمّك في السماء، أبعد من الشمس، مع أمّي، مع الله.. هناك أيضاً أراجيح وأشجار كثيرة وفتيات.. أراجيح ملوّنة وفتيات جنّيات لذيذات.. لن نصل أنا وأنت إلى هناك.. دربنا يؤدي إلى جهة أخرى، هكذا يقولون.. لن تكون معنا كميلة، ولا من تشبه، ولا رندة.. خدّوجة؟ لا، لا، لن تكون معنا خدّوجة، سنحتج.. كلانا سيحتج بقوة وغضب.. خدّوجة لا تشبه أحداً، تشبه ولي عبود، هههههه.. كميلة تشبه أحداً.. تشبه واحدة.. الله، لو أدري تشبه من.. العالم خائس يا صديقي مثل المجرى أمام دكّان خدّوجة.. عاندت. منعتهم من سرقة دكّان خدّوجة.. قالت رندة: دير بالك على نفسك حكّو.. رندة ليست مثل خدّوجة.. سلّوم قال: رندة عمّا قريب ستصبح أماً.. ستلد طفلاً.. طفلاً ليس أعمى، لن يستجدي في ظلِّ المقهى.. أنا لم أكن طفلاً في أيِّ يوم، مثلك أنت يا عبّودي، لم نخبر بهجة الطفولة.. أنا عقوبة أبي.. أنت عقوبة أبيك.. رندة عقوبة من؟. عمياء تقتعد ظلّ مقهى سلّوم تستجدي ويُسمعونها كلمات أولئك الأنذال.. فرحتُ لأنها تزوّجت.. حزنت لأنها لن تكون ثانية قرب مقهى سلّوم لأعطيها ربع دينار فتقول لي: «اشلونك حكّو».. رحت للمخيّم حتى أشوف كميلة..

استحيت.. رحت لإسماعيل المضمّد، أخذت حقنة بالوريد، مو عبالك بمكان ثاني، هههههه.. أكره الحقنة.. قال لي إسماعيل؛ حتى تبقى عاقلاً.. وضحك.. قال: «حتى تتزوج رندة».. قلت: «لا أريد رندة.. لا يجوز.. رندة تزوّجت من قريبها وراحت إلى أطراف مركز المحافظة».. قال: «تتزوج مَن إذاً؟». لم أخبره؛ أريد كميلة لأنها تشبه لا أدري من؟.. العالم خائس يا عبّودي مثل رشيد سالم.. ترك راهي في غرفة مع حفنة تمر ليموت ويخلص منه.. لم يمت راهي.. العالم خاطئ يا عبّودي.. العالم كريه يا عبّودي وحقير.. العالم كبير يا عبّودي، أكبر مما تتصوّر، ونحن هنا في هذا الركن الخرب سجنّا أنفسنا، ولا نقدر أن نغادر.. لا فائدة يا عبّودي.. فلسفة.. لا، ليست فلسفة.. نزيف يا عبّودي.. حتى الحمير قُتلت في الإسطبل، في قاعة الاجتماعات.. لم تمت كلها.. أخرجت ثلاثة حمير، أم حماران.. لا أذكر.. الكلاب أيضاً أطلقتُ سراحها، إن ظلّت في الغرفة وحدها تتوحّش.. فشلت في تدبير الطعام لها.. من أين؟ حتى خط الجبهة انتقل بعيداً.. الحيوانات ذكّية حين تكون القضية بطونها.. غريزة.. هذه يا عبّودي يسمّونها غريزة.. الغريزة مثل العقل.. مثل اليد تدفعك وتدفع العقل.. الغريزة في الأسفل، تحت، ليست مثل اليد.. هي مثل جمر القطّة في شباط.. منذ متى لم نر قطّة في البلدة.. رأينا فئراناً.. الفئران كثيرة يا عبّودي.. رأينا فئراناً.. فئران كثيرة يا عبودي.. الفئران أكلت القطط، هههههه.. القطط أكلت الكلاب.. دنيا مقلوبة.. ألم أقل لك كل شيء غلط.. أنت يا عبّودي من بطن أمّك غلط.. لا تفهمني غلط.. لا أقصد الإساءة.. أنت مثل أخي.. أنت أخي، لكن الحق يقال.. ربما كان الغلط في ظهر أبيك.. ربما في بطن أمّك، أو في

سرّة جدّتك، هههههه.. اضحك عبّودي، اضحك.. لا تنظر لي ببلاهة هكذا.. اضحك.. أنسيت كيف تضحك؟....».

«حكّو، أنت تتكلم كثيراً».

«لا تذهب عبّودي.. اسمع.. لا تركض.. ابق.. لم أكمل كلامي بعد.. انتظرني، سأكسر هذه العصا على رأسك.. عبّووووودي».

ساعات منبتّة من صيفٍ ما

في الفجر الرقيق الراكد، اللامع كالحرير، يركض حكمت، كما لو أنه يبحث عن حيوان هرب منه؛ جديٌ أو قطة، فيما الحرب تستعر أشدَّ عند التلال. فمنذ منتصف الليلة الفائتة لم ينم.. لعلّه نام ساعتين قبل ذلك.. وهو يضطجع على سطح دار الحاج مرتضى، فوق بطانية متربة، لم تهب نسمة هواء واحدة يمكنها ترطيب بشرته.. شرب ثلاثة أرباع الزجاجة من عرق هبهب، وقضم حبات زيتون مخلّلة جلبها من البلدة (ب) ولم يستطع أن يغفو.. كان البقّ يمتصُّ دمه في الأجزاء الظاهرة، وحتى غير الظاهرة، من جسمه، ولم يدعه دويّ المدافع والراجمات أن ينسلّ إلى أيِّ حلم، ويتداعى بين مِزَقه التي هي أبداً، وكما ألفها، بلون الرماد وهشاشته.

يسمع زعيق طائرٍ ما، وهدير طائرات، وصراخ قنبرة هاون تمرُّ من فوقه وتنفجر في زقاق قريب.. يتأكد من الدخان المرتفع أن القنبرة سقطت بعيداً عن مأوى جماعته.. يرى شجرة من فصيلة الصنوبريات متفحِّمة، وشجرتي كالبتوس منحورتين تضطجعان على إسفلت شارع، وجدار بيتٍ ترك فيه صاروخٌ أو قذيفة مدفع ثقباً مهولاً.

بعد ساعة تدخل البلدة كتيبة دبّابات تتوزع بسرعة بين الشوارع

والدروب.. يقترب من إحداها.. يخرج اثنان من طاقمها ويجلسان على بدنها.. ينظران إليه كما لو أنه كائن قّدِم من عالم الغيب.

«ماذا تفعل هنا؟».

«أنا هنا».

«منذ متى؟».

«مذ كنتَ نطفةً في خصية أبيك».

يضحك الجنديان وينزلان من فوق دبّابتهما.

«رائحتك فظيعة.. أنت سكران.. أتشرب من الصبح؟».

« من الليل.. وماذا شربت؟ فقط ثلاثة أرباع هبهب».

يضحكان.. يلتفت أحدهما لرفيقه ويقول:

«سمعت عنه.. مخبول، لم يغادر البلدة».

«أبوك المخبول».

«لا تكن وقحاً.. سأضعك في السبطانة وأطلقك عليهم».

«اتركه، تضع عقلك مع مخبول».

«وأنت، أمتأكدٌ أن لكَ عقلاً سليماً؟».

يستغرقان بالضحك كَرّة أخرى.

«اسمع، هناك هجوم للعدو، إذا ما انكسرت الجبهة لا سمح الله سيكونون في البلدة خلال نصف ساعة، وسيأخذونك معهم».

«لن أذهب مع أيِّ أحد.. لن أرحل إلى أيِّ مكان».

يبرز رأس عسكري آخر، من بدن الدبّابة، وهو يضع سمّاعات جهاز لاسلكي على أذنيه. يعلمهم أن الأوامر جاءت للبدء بالرمي.. يتّخذون أماكنهم في بطن الدبّابة ويأمرونه بالابتعاد.. تنطلق القذيفة الأولى وهو لم يجتز بعد عشرين متراً.. تتوالى القذائف من الدبّابات كلّها بدمدمة تصمّ الآذان.. يجلس مخفياً رأسه بين ذراعيه وعرقة يتصبب، صارخاً مع كل إطلاقة.

ظهراً تهدأ الجبهة وتسكت الدبّابات. يعمُّ سكون، وفي رأسه صفير لا ينقطع، ويشتدُّ القيظ.. يقترب من الدبّابة عينها.

«أنت ثانية».

«جوعان».

«تعال اجلس في ظل الدبّابة وانتظر.. سيارة الإعاشة في طريقها إلينا».

يجلس، يسند ظهره إلى واحدة من العجلات الحديد لسرفتها.. تلسعه سخونتها فيصيح «آخ» ويقفز، فيضحك الجنود المتعبون.

بعد الغروب تنسحب الكتيبة. وتعود البلدة مملكةً لحريته مرّة أخرى، فيهرع إلى صحبه بطعامٍ عافه له الجنود.

***

يتحسّس حكمت سنّه الأمامية المكسورة بطرف سبّابته، غارزاً عينيه في عيني الرجل الجالس قبالته.. الرجل ليس وحده.. هو بين اثنين يرتديان العقال، يثرثران حول صفقة بيع اسمنت وحديد تسليح بنايات

في السوق السوداء.. المقهى تتقلقل في قيظ الساعة الحادية عشرة من نهارٍ في آب.. والرجل الذي على جبهته أثرٌ من ضربة سكّين قديمة لا يسمع إلا بربع وعيه ما يقول له رجلا العقال.. ثلاثة أرباع وعيه منصبٌّ على الحركة العدائية لهذا المجنون الذي ما يزال رأس إصبعه على سنّه المكسورة.. عينا المجنون تقدحان حقداً.

[إن كنت لم تدرك بعد ماذا يجري فارجع عزيزي القارئ إلى فصل (لصوص الحرب) في هذه الرواية لتعرف أن حكمت يتذكر تلك الليلة من أوائل أيام الحرب، حيث تلقى ضرباً غير رحيم، في سوق البلدة من لصوص أربعة، وكُسرت له سن.. هذا الرجل المرتبك، الجالس بين اثنين يضعان عقالاً على رأسيهما، هو واحد من أولئك الأربعة الأوغاد. وعذرا لهذا التدخل من قبلي؛ أنا الراوي غير العليم بكل شيء.]

تنبّه أحد المعقَّلَين لحركة المجنون، ولاضطراب صاحبه.. صاح به:

«قم، اخرج».

لم يقل المجنون شيئاً، ولم يتحرّك.. أبقى سبابته على سنّه المكسورة وأشار بسبّابة يده الأخرى إلى الرجل ذي ندبة السكّين على جبينه، وهمس:

«حرامي».

قام المعقّل رافعاً يداً مفتوحة ليصفع المجنون، غير أن الرجل ذا الندبة أمسكه من طرف دشداشته وسحبه، وقال بشبه همس:

«لا تبالوا بكلام هذا الوسخ.. دعونا نذهب إلى مكان آخر ونتحدّث».

قام حكمت شاعراً بالوهن والدوار، وقال:

«أنت الوسخ يا حرامي».

أمسك سلّوم بذراع حكمت وسحبه ليخرجه من مقهاه.. عند باب المقهى قال حكمت:

«هذا حرامي.. سرق دكّان أحمد البزاز، وكسر سنّي».

«اسمع حكمت.. كلامك سيتسبّب بمشكلة كبيرة.. رُح، الزمن كفيل بحلّ كل شيء».

ضحك حكمت، وقال هامساً في أذن سلّوم القهوجي:

«اقبض من زيزي».

خضّ حكمت زجاجة ربع العرق.. كانت فارغة.. حسب أن ميخائيل لابد من أنه فتح محلّه الآن. فسار إليه وجسمه يترنّح قليلاً.. فيما بقي الرجال الثلاثة على أريكتهم. يدخّنون ويتحدّثون/ منتظرين دورة أخرى من الشاي.

***

للمرّة المئة، ربما، يوسِّعُ حكمت بأصابعه، ما بين جفون عينيّ عبسي ليتأكد من احتقانهما، واحمرارهما... وللمرّة المئة، ربما، يقول حكمت:

«يجب أن يرى الطبيب هذا».

فيردُّ عبسي، وأيضاً، ربما للمرّة المئة:

«أخاف.. إبرة».

قطعا نصف الطريق بين البلدتين (س) و(ب) بسيارات عسكرية، ونصفها الآخر مشياً وجرياً.. النهار ساخن، وهما يشعران بالإرهاق والعطش.. أمام منزل بطابقين، يشربان ماءً بارداً بإناء من الفافون رُبط بسلسلة إلى حنفية خارجة من كتلة مضلّعة، مغطاة بقماشٍ أسود، كتب عليه؛ اشرب واقرأ الفاتحة على روح الشهيد المرحوم علي عبد الله كاظم.. هما في سوق البلدة شبه الخالي في هذه الساعة من الظهيرة.. يحثُّ حكمت الخطى ويتبعه عبسي مردِّداً:

«أخاف.. إبرة.. إبرة.. أخاف».

في المستوصف الصحي يفحص الطبيب عيون عبسي ويقول:

«هذا بسبب الشمس والغبار».

«إبرة.. أخاف».

لا يباليان به.. ينهره حكمت:

«اسمع عبسي، مخبّل، بعد ماكو لعب طوبة ويا الزعاطيط وكت الظهر».

يلتفت الطبيب إلى حكمت وعلى وجهه الأبيض الحليق إماراتُ تعجّب.. يسأل فيما إذا كانت هناك في البلدة (س) الآن عائلات وأطفال يلعبون الكرة حقّاً، فيهزُّ حكمت رأسه علامة النفي:

«وإذن مع من يلعب عبسي الكُرة؟».

«وكيف لك أن تصدِّق كلام مخبولين يا دكتور؟».

يضحك الدكتور بصوتٍ عالٍ ويقول:

«بهذا غلبتني».

من صيدلية المستوصف يأخذ حكمت، بحسب توصيف الطبيب، قطّارة تنظيف عيون، وعصّارة دهن تتراسايكلين صغيرة.. يعلِّمه المضمّد الكهل متى وكيف يستعملهما، مجرياً التجربة الأولى أمام ناظريه، وعبسي، يضرب الأرض بقدمه، ويصرخ: «أخاف.. إبرة.. إبرة.. أخاف».

يهدِّده حكمت أنه سيجعلهم يثقبون مؤخرته بعشرين إبرة إذا ما خرج ثانية وقت الظهيرة للعب الكرة. شارحاً للمضمد كيف بدأ عبسي، منذ أسبوع، يتخيّل فريقين يلعبان أمام الجامع، فيكون هو كابتن فريق النسر الأسود ضد فريق أسماه الثعلب الأزرق.. يركض يميناً وشمالاً، يصيح ويشتم، مثيراً غباراً عالياً، طالباً أن يناولوه الكرة، حيث لا كرة ولا لاعبين.

لا يضحك المضمد.. يستغفر الله ويقول: «الحمد لله على نعمة العقل».

شمس آب حارقة.. عبسي يمسك بذراع حكمت مغلقاً عينيه المملوءتين بدهن التراسايكلين.. يجتازان سوق البلدة باتجاه مقهى سلّوم.. يشربان من الحنفية عينها بإناء الفافون ماءً بارداً.. ومن فرن الخبز يأخذان رغيفين من غير أن يدفعا ثمنهما ويشرعان بلَوْكهما.. يمرّان بجماعة من الفتية المراهقين، يحملون سلال تمر وعنب.. يسأل أحدهم:

«حكّو، صاحبك اشوكت انعمى؟».

«عمى بعينك»

يجيب حكمت.. يقول عبسي برجاء، باكٍ وما يزال غالقاً عيونه بقوة، ويمضغ آخر قطعة من رغيفه:

«أخاف.. إبرة.. إبرة.. أخاف».

* * *

نهار البلدة (ب) بدا خاوياً، رتيباً، مغبرّاً.. قال له الشرطي:

«ارمِ سيجارتك يا حكّو.. التدخين ممنوع في رمضان».

«ومتى حلّ رمضان؟».

«حكّو لا يدري ماذا يحصل في الدنيا.. قبل ثلاثة أيام».

«ولماذا محل عمّو ميخا مقفل؟».

«قلت لك نحن في رمضان.. تعال ليلاً».

لم يرمِ حكمت سيجارته.. مشى نحو منزل ميخائيل، وقرع الباب.. أطلّت علَيه، من الباب نصف الموارب، فتاة في عمر العاشرة ببشرة حليبية وعينين ناعستين.

«أريد عمّو ميخا».

أغلقت الفتاة الباب، وبقي حكمت ينتظر.. خرج ميخائيل بعد دقائق مرتدياً بيجامة قطنية خفيفة بيضاء مقلّمة بخطوط سماوية رفيعة. ومن غير أن يضع على عينيه نظارته الطبية.

«أريد عرق عمّو ميخا».

«تريد تحبسني حكّو؟».

«عرق عمّو ميخا».

«بالليل.. بالليل».

«عمّو ميخا.. خربْ.. عرق، عرق».

استدار ميخائيل ودخل المنزل متأففاً.. لم يطل غيابه.. عاد بكيس ورقي منفوخ أعطاه لحكمت.

«خذ، هذا رغيف خبز وإجّاص، وربع عرق عصرية. مشّي حالك به، وتعال بعد الإفطار».

«لستُ صائماً عمو ميخا».

«واللهِ؟».

«واللهِ».

ضحك ميخائيل بفمٍ خلا من طقم أسنانه.

«رُح حكّو، دبّر أمورك حتى المغرب. وهذه الربعية على حسابي.. رُح».

ارتفعت الشمس.. الحرارة كاوية، والغبار يجعل تنفّسه عسيراً.. أخرج سدّادة زجاجة ربع العرق من فم الكيس، وفتحها.. رشف قليلاً وأعاد إغلاقها.. مشى نحو مقهى سلّوم.. وجده مقفلاً أيضاً.. كانت امرأة خمسينية سمينة بوجه عليه آثار حرق تقتعد ظلّ المقهى. في المكان عينه الذي كانت تجلس فيه رندة.. قالت له وهي ما تزال تمدّ يدها للمارّة العابرين:

«رمضان.. يفتحون المقهى بعد مدفع الإفطار».

تمتم: «ما شبعتوا من المدافع؟».. لم تعر المرأة لما قال بالاً، أو لم تسمعه. قرفص على مبعدة مترين منها متطلِّعاً إلى وجهها، وكاد يسألها عمّن فعل بها هذا، لكنه في اللحظة الأخيرة سألها فيما إذا كانت تعرف رندة.. قالت باستياء:

«رندة؟ وما لك ورندة؟ من أين تعرفها؟».

لم يجبها.. أكل إجّاصة.. طلبت منه أن يذهب من هنا.. قال:

«لستُ في بيتِ أبيكِ».

ولم يتزحزح من موضعه حتى بعد مغادرة المرأة المتسوِّلة في الواحدة بعد الظهر.. شرب ربع العرق كله وأكل رغيف الخبز، وحبّات الإجّاص الست المتبقية.. تمدّد على البلاط الإسمنتي ونام قليلاً بالرغم من الحرّ اللاهب. ومع أذان المغرب كان غارقاً بعرقه، وجدّ عطشان، ورأسه يلفّه الدوار.

* * *

تحت ملايين النجوم ساروا كحشدٍ من آلهة قديمة يقتلها الضجر.. شعورهم طويلة وسخة، وعيونهم زائغة لا تعبير فيها. وأجسامهم قد نحلت. حتى البدين نائل كان فاقداً غير قليل من وزنه خلال أشهر الجوع الماضية.

راح حكمت يغنّي، وتبعه الآخرون، وكلٌّ بإيقاع لا يتسق مع إيقاع أغنية أيِّ أحدٍ آخر. يؤلفون أغنياتهم ويلحِّنونها ويؤدّونها في اللحظة نفسها. وكأن واحدهم بمفرده في هذه الفسحة من الأرض المنبسطة،

فيما وراء البساتين، لا يسمع غير عقيرته وصداها. وحين أوشكوا على الوصول إلى حافة النهر نفخ حكمت في صافرته فوقفوا ساكتين.

أدرك حكمت وهو يرى البقع المتوامضة على صفحة النهر أن ماءه انحسر كثيراً، وتباطأ تياره.. خلع ملابسه وانتصب إزاءهم عارياً تماماً، وطلب منهم أن يفعلوا مثله، فتعروا في نصف دقيقة، وتبعوه، والجين المجرى بهمهمات خائفة.

وكما تحت أنظارِ معبودٍ محبٍّ وطيّب كانوا كطائفة غريبة تؤدي طقوس تعميدٍ وتطهّر.. إنهم في ليلة احتفالٍ خاص لا تشاركهم به مخلوقات أخرى.

غنّى حكمت أغنية أم كلثوم « يا ليلة العيد».. لم يكن يحفظ منها سوى «يا ليلة العيد أنستينا، وجددتِ الأمل فينا، يا ليلة العيد» فيصيح الكورس الصاخب: «يا ليلة العيد».

فرّك شعورهم بصابون الغار الذي اشتراه من البلدة (ب) قبل أيام، وغطّس رؤوسهم في الماء مراراً، وحكّ الصابون بصدورهم وبطونهم وظهورهم وأطرافهم. وبين آونة وأخرى كان يجري الصابون على جسمه هو كذلك.

كرّروا «يا ليلة العيد» مئات المرّات، حتى إذا خرجوا من النهر، بعد ساعتين، نظيفين، مملوئين بإحساس خفةٍ وراحة، استأنفوا أغنية (يا ليلة العيد) عائدين إلى البلدة.

لم يأبهوا لرفيف أجنحة طائر ضال عبر فوقهم، ولا لبضع إطلاقات

ثارت في جهة ما من جبهة الحرب القريبة. ولا لعواء بنات آوى في البساتين، حتى إذا قال نائل: «أنا لست مسلماً». تنبّهوا وكفّوا عن المشي.. أحاطوا به.. سأله حكمت: «وماذا تكون؟». قال: «أنا مسيحي». سأله عبسي: «شنو يعني مسيحي؟». ردَّ هازاً رأسه: «ما أعرف». قال راهي: «أخي رشيد علّمني أن أقول أنا مسلم».. هذه المرّة سأل نائل: «شنو يعني مسلم؟». بقوا متردّدين حائرين، يحدِّقون في وجوه بعضهم بعضاً.. وأخيراً نطق حكمت بما يشبه الغمغمة: «ومّن يدري مَن هو مَن؟». ثم صاح: «نحنُ.. نحنُ».. صاحوا بعده: «نحنُ، نحنُ». وأكمل وهذه المرّة بتنغيم سار: «نحن نحن كالزهور.. نحن نحنُ كالطيور». غنّوا وراءه: «نحن نحن كالزهور.. نحن نحن كالطيور». محافظين على إيقاع لحن الكلمات كما سمعوها من حكمت. وكرّروها خطوة بعد أخرى، وملايين النجوم تشعشع، منيرة دربهم الصاعد بين البساتين، إلى قلب بلدتهم.

كانوا الآن كحشدٍ من آلهة قديمة يُرعش أعطافها الفرح.

موسم الرحيل

من بين مئات الأصوات بمقدوره تمييز هذا الصوت، بنبرته الخنّاء، الذي ناداه في صخب سوق الصباح.. التفت وصاح:

«خالي الحجي».

اقترب وكاد يعانق الحاج مرتضى لولا أنه تنبّه إلى نظافة دشداشة الحاج البيضاء، فوقف بنصف ابتسامة مرتبكة، وعينين برّاقتين، ويدين راح يفرِّكهما الواحدة بالأخرى.

«اشلونك حكمت ابني؟».

«زين، زين».

«لو تتخلى عن عنادك، وتأتي معي».

«مرتاح خالي الحجي.. مرتاح».

أسهب الحاج في الحديث لحكمت عن الأشهر الصعبة الأولى في المخيّم، لاسيما بعد حلول موسم البرد والأمطار. وكيف اضطروا للانتقال إلى دار مؤجرة في ضواحي البلدة (ك). وها هو الآن هنا، في البلدة (ب)، مع ولديه حسن وصلاح اللذين راحا في زيارة سريعة

لصديق لهما يمتلك متجراً في السوق، وسيلحقان به بعد دقائق. فالابن البكر حسن سيتزوج قريباً، وعليهم أن يتفقوا مع أبو مهند النجّار لتصنيع أثاث غرفة العرس.

«مبارك، مبارك».

«يومَ نفرح بكَ أنت».

مدّ الحاج يده إلى جيبه وأخرج محفظته، ومنها التقط ورقة من فئة العشرة دنانير، وناولها لحكمت.. أخذها حكمت هازاً رأسه.

«بالمناسبة، عندي لك خبر مفرح ثانٍ.. كميلة عقدت مهرها لابن عمِّها قاسم.. الزفاف الخميس بعد هذا الخميس. لو تشرِّفنا بالمجيء».

بدا حكمت وكأنه لم يفهم ما قال الحاج.. ارتعش فكّه، ورمشت عيناه، وضرب بطنه بجماع كفّه:

«شنو؟».

«كميلة، ابنتي، الخميس...».

لم يبق حكمت ليسمع بقية كلام الحاج.. تراجع خطوة، خطوتين.. ست أو سبع خطوات.. فتح كفّه التي ما زالت تقبض على ورقة العشرة دنانير. قذفها في الهواء واستدار. وشرع يركض بأقصى ما يستطيع من سرعة، تاركاً الحاج مرتضى وسط الخلق في السوق، في حالة من الاستغراب والذهول. وحين يعلمه حسن وصلاح، بعد لقائهما به، بأنهما شاهدا حكمت يجري صارخاً، لن يخبرهما بما حصل.

***

لم يعر حكمت بالاً لفرقعة القذائف.. تسعٌ منها سقطت في أماكن مختلفة من قلب البلدة، لم يُعن بتحديدها.. فكّر بالطعام، بجوع صحبه، فهم منذ شهرين أو ثلاثة لا يتناولون كفايتهم.. يرى رفاقه الجوعى، كل يوم، يجوبون الطرقات والأزقة، ويقتحمون البيوت التي تهمهم فيها الأشباح بحثاً عمّا يؤكل، لكن من غير جدوى في الغالب. وقد وجد، قبل يومين راهي ونائل يجترّون حشيشاً ذابلاً ويبصقونه.

غادرت الكلاب البلدة منذ بعض الوقت واختفت، والله وحده يعلم إلى أين؟ بعد أن أنهكها الجوع. وكان قد دفن أكثر من عشرة كلاب إبان شهور الحرب، نفقت بسبب الجوع أو الشظايا التائهة.. وذات يوم اضطر إلى قتل كلب يعاني من جرح ساحق بعدما مزّقت شظيّة كبيرة بطنه ودلقت أمعاءه.. وقف عاجزاً عن مساعدة الكلب.. الكلب الرمادي الفتي الذي بقي يئن.. وتمنّى لو أن معه مسدّساً يطلق منه رصاصة الرحمة، بيد أنه، في النهاية جاء بفأس صدئ، وأغمض عينيه. وضربة واحدة كانت كافية ليتخلّص الكلب من عذابه. وصار مشهد ضربة الفأس يلاحقه في أحلامه. وقضى أياماً بعده لا يجول في باله إلّا صورة الكلب، بأحشائه اللامعة تحت أشعة الشمس، يئن وفي عينيه نظرة توسّل كسيرة.

وتوارت القطط أيضاً. ودهش لما أبصر قطّة عجفاء بلون الكاكاو قبل شهرين تتسلق حائطاً واطئاً، وتعبر إلى دالية جزّ قصف المدفعية معظم أشجارها. ربما كانت القطّة تريد أن تكمن لعصفور غافل، أو فاختة مريضة، أو تلتهم غراباً نافقاً. وقد تكون ماتت هي الأخرى. فهو لم يلمحها ثانية.

وكانت هناك مشكلة الحمير الثلاثة التي نجت حتى هذه الساعة من انفلاقات القنابل وقصف الطائرات.. حمل لحميره كيلوغرامات قليلة من الشعير اشتراها من دكان في بلدة (ب)، لم تكفها أكثر من بضعة أيام.

كان الصيف الفائت ساخناً بإفراط أحرق النباتات الخضر من حشائش وخبّاز وحلفاء. والمنطقة الوحيدة التي يمكن فيها للحمير أن تجد ما تأكله هي منحنى النهر لكنها مكشوفة أمام مراصد العدو ومعرّضة للقصف على الدوام. وقلّما عاد حمار سالماً من هناك. وتساءل حكمت عن سرِّ هذا العداء بين مدفعية العدو والحمير. إذ كلما ظهر حمار هناك هاجت المدافع. ولم يستطع إجبار الحمير على المكوث داخل الحظيرة ثانيةً فهي تعيش تحت طائلة الجوع ولا تكترث للقنابل أو لغيرها. وما بقي منها عليها أن تجتاز شتاءً صعباً وتعيش حتى ينبت الحشيش في الربيع الآتي.

لم يعد انتظارهم على ناصية الشارع العام، في مفرق الجبهة، يجدي.. باتت سيارات الجيش ترفض التوقف وإعطاءهم بعض الطعام بعدّما تعرضت إحداها للقصف الذي كاد يودي بحياة من يستقلّونها مع حكمت الواقف خلفها حاملاً قِدْرَه الفارغ.. وجاءت الأوامر العسكرية الصارمة لسيارات التموين بعدم التوقّف في الطريق لأي كان من المدنيين، ومهما كانت الأسباب.. قال عريف الإعاشة لحكمت لمّا التقاه، مصادفة، في البلدة (ب): «عليكم أن تتركوا المنطقة إلى بلدة أخرى آمنة.. ماذا تفعلون في ذلك المكان الجهنمي؟».. قال حكمت: «نريد أن نموت كما نشتهي»، ومضى راجعاً إلى البلدة (س).

السماء مكفهرّة وجبال الغيم تتدافع، والريح باردة، لكن حكمت كان مصمِّماً للذهاب إلى البلدة (ب) لجلب ما يسدُّ الرمق، وفي ذهنه أن يقول للناس هناك إنه لا يريد شراء العرق فقط وإنما الطعام أيضاً لأربعة أفواه جائعة غير فيهِ... سيلحّ، ولن يبالي إذا ما ضربوه أو شتموه. ففي هذه الأيام صار الناس يفقدون أعصابهم بسرعة، ويعلنون عن تذمّرهم، وأحياناً يتضاربون بالأيدي لأسباب تافهة.. وهم يبتسمون أقل من السابق، ولا يطلقون ضحكاتهم إلا بصوت متحشرج.. ضحكات مريرة، تعبِّر عن الكرب أكثر ممّا تعبِّر عن أيّ شيء آخر. وملامحهم في الغالب متشنِّجة، وفي عيونهم يطوف قلق غامض، وخوف، وعدم ثقة بما يخبِّئه الغد. وقبل أسبوع، رأى عبارة غريبة، مكتوبة بطرف حصاة ناتئة، أو برأسِ حربة، على الأرض الموحلة إلى جانب الطريق بين البلدتين (ب) و(س): «الحرب تُغيّر أكثر من الزمن».

على الحافة الرجراجة لوعيه يتصوّر حكمت الحرب وحشاً جائعاً على الدوام. يتقافز هنا وهناك ويلتهم ما يحلو له في طريقه.. وإذاً من سيقتل الوحش يا ملعون؟. يغمغم حكمت متذكِّراً راهي الذي فلقت رأسه شظية صاروخ طائرة سقط قريباً منه وهو جالس على سطح دار عالية.. متى كان ذلك، وأين؟.. بعد إتمام دفن الجثة إلى جوار حائط طيني لبستان قال حكمت لصحبه المذهولين: «إنه صاحبنا وعلينا أن نكرمه.. كانت له قيمة واعتبار، والدليل أنهم أرسلوا من أجله طائرة وأطلقوا عليه صاروخاً».. لم يفهموا، غير أنهم لم يعترضوا كذلك.. وضع يده على قلبه ومثله فعلوا وبقوا نصف ساعة وأكفّهم على قلوبهم، لا يريمون. وظلّت نظراتهم وحدها جائلة في السماء العريضة.

هناك حيث سيكتب على الحائط بعلبة طلاء أحمر صغيرة جلبها من البلدة (ب): (بسبب الحرب مات راهي يا ملعون).

لمح وميضاً بعيداً جرح قلب الظلمة.. توقّع أن يسمع دويّاً مكتوماً.. بحث عن القمر في قوس السماء، ولم تكن ثمة إلّا الزحام المتلألئ للنجوم، وكان هذا كافياً ليميّز إسفلت الشارع النازل نحو بلدته.. أخرج زجاجة العرق من جيب سترته المتهدِّلة في اللحظة التي تناهى إليه الصوت المتحشرج لانفجار قذيفة.وشرب جرعة أخرى، ولم يبارحه الإحساس بالتعب لكنه لم يبطئ من خطواته السريعة ليرتاح بضع دقائق. وما كان بمقدوره تحديد الوقت سوى أنه لم يبلغ بعد منتصف الليل.

لم يكترث للهواء البارد المنعش الذي يجمِّد أذنيه، غير أنه استحضر ثانية صورة راهي الذي أطاح به قصف طائرة من فوق بيتونة الطابق الثاني لدار رئيس البلدية؛ صورته وهو مقذوف فوق شجرة سدر وعالق بين الأغصان. وتطلّب إنزال الجثة الدامية من هناك ساعتين وأكثر.. حدّجوه، واجمين ذاهلين، يتملّكهم الرعب بضع دقائق، ومن ثم حاولوا إسقاط الجثة بهزِّ الأغصان، وبتقليبها بوساطة عصا طويلة لم تصل إلى حيث يرقد. لم تفلح محاولاتهم لتحرير الجثّة المنشبكة بالشجرة. وأخيراً تسلّق عبّودي الجذع العالي ليقترب منها ويدفعها. وكان يمكن لعبّودي أن ينزلق ويقع وتتكسّر ضلوعه وأطرافه، وربما يموت هو الآخر، لولا أنه أمسك بغصن نافر، واستعاد توازنه في اللحظة الأخيرة، فيما سقطت جثّة راهي، محدثة ضجّة مكتومة، على الأرض اليابسة للحديقة. وكادت ترتطم بعبسي الواقف في مسقط ضوء الشمس.

ولأول مرّة، منذ تلك الواقعة التعيسة، يخطر لحكمت سؤالان؛ ما الذي جعل راهي يدخل بيت رئيس البلدية في ساعة الظهيرة؟، وكيف صعد، هو الأشيب العاجز، إلى سطح البيتونة؟.

صاح بحنق والهواء القارس يلسع وجهه: «أحمق، مخبول»، وتمنّى لو يبكي.. ينشج بحرقة وتتحدر دموعه لتغسل وجهه وروحه. ولا يدري كم مرّة التقطت أذناه وقع اسمه يتردّد في جهةٍ ما من الليل قبل أن يتنبّه ويفطن: «حكّو، حكّو، حكّو... حكّو...... حكّو». ربما عشر مرّات أو عشرين مرّة. كما لو أن ترديد اسمه في هذا الخلاء الموحش البارد جزء من المشهد الكوني وناموسه.

ظنّ أنها تهيؤات سببها السُكر والظلام. ولمّا توقّف أخيراً واستدار، رأى كائناً مفرط الطول يسير نحوه بخطوات واسعة، وما زال يصيح: «حكّو، حكّو، حكّو».

«منو؟ جنّي، طنطل؟»

اقترب الكائن الطويل منه وهو يضع يده على صدره ويلهث:

«آني حسّون».

«شتريد؟».

«جيت التحق».

«ابشنو؟ ابطرية الصواريخ؟».

«التحق بيكم.. بالجماعة».

«شنو احنا، وحدة عسكرية؟».

«كالولي هناك محد يأذيك».

أمسك حكمت بيد حسّون، وحدّق في عينيه.. كان الظلام فيهما ثقيلاً، ومع هذا بدا له أنه يرى الروح العارية لهذا المخلوق الغريب الذي هبط عليه، كما من مركبة آتية من كوكب لم يُكتشف.. قال في ما يشبه الهمس وكأنه يخشى أن تكون في الجوار آذان تصغي:

«لا أحد يكذب هنا.. صارحني، أفررت من قاطع البصرة، أم من قاطع العمارة؟».

انفرجت شفتا حسّون ولم ينبس.. أضاف حكمت بشيء من التهكّم:

«أنا أشم رائحة الخَبَل من بُعد ميل.. أنت لست مخبولاً.. أنت فار من الجيش».

على حين فجأة احتضن حسّون جسم حكمت النحيل، وبصوت منغّم رقيق وقد اضطر للانحناء كي يجعل فمه قريباً من أذن حكمت، قال:

«كان الآمر يضحك عليّ.. استخدمني مهرِّجاً».

لوقت غير قليل بقي أحدهما يحتضن الثاني في القلب المظلم البارد للعالم.

قال حكمت:

«لا عليك».

لم يقل حسّون شيئاً.. أمال رأسه واضعاً خدّه على كتف حكمت، ومن اهتزازات جسمه عرف حكمت بأن رفيقهم الجديد راح يبكي.. قال، بعد أن انسحب حكمت من بين ذراعيه:

«كنت في قاطع الفاو.. كنّا هنا السنة الفائتة».

تبسّم حكمت وسأل:

«تشرب»

«أشرب»

«هاك، اخذلك مصّة».

* * *

«ماذا يشتغل أبوك؟».

«كان نائب ضابط، استشهد».

«وأمّك؟».

«لا أعرف، هربت».

«مع واحد».

«مع كلب».

«صدق؟».

«كان صديق والدي».

«هربت معه».

«كلب».

«حاشاه، الكلب».

«روحي معصورة»

«تفكّر بأمّك؟».

«..............»

«لا تبكي».

«لم أهرب من الجبهة لأني أخاف الموت.. هربت لأن الآمر كان يذكِّرني يومياً بأمّي».

لثلاثة أسابيع سيدخل حكمت في طور الصمت الحادّ الكآبة.

* * *

هاج دويّ قنبلتين أخريين.. سمع أزيز الشظايا المتطايرة وأصوات زجاجات تتحطم. وشعر بالأرض ترتجُّ تحت قدميه ولم يلتفت.. كان يرتدي معطفه المطري الذي أعطاه له ضابط شؤون إدارية كان يمرُّ بسيارته العسكرية في أول أيام الشتاء ووجده مبلولاً في عرض الطريق قادماً من البلدة (ب) يرتجف سائراً بخطوات بطيئة متعثرة مثل حيوان مريض. قال له: «لا أستطيع حملك في السيارة.. كما ترى لا مكان لجلوسك في الحوض المملوء بكومة من المعاطف اللعينة.. خذ معطفاً».

وهو خارج من بلدته الجهنّمية قاصداً البلدة (ب) جعل حكمت يحثُّ خطاه، مرتديا، ليحتمي من المطر الذي يوشك على الهطول، معطفه المصنوع من النايلون.. تناهى إليه صوت بعيد، أليف إلى حد.. لم يلتفت في البدء، وكان يخشى أن يكون وراءه عبّودي مثلما فعل في مرّات عديدة سابقة. وغمره إحساس بالحنق حين توضّح الصوت.. صوت المناداة مع وقع أقدام راكضة.. وقف واستدار وسط الشارع ملوِّحاً بقبضته لنائل الذي اقترب منه وهو يعيط:

«ارجع.. ماتوا».

كلمتا نائل المتعثِّرتان أخرجتاه من صحراء صمته الموحش المديد.

«منْ مات؟».

«ماتوا».

ركض عائداً بأقصى ما يستطيع، وما يزال يلبس المعطف المطري، ونائل يجرّ خطاه بتثاقل صائحاً في أعقابه: «ماتوا، ماتوا».

وسقط رذاذ خفيف فيما لمع البرق في الأفق، في ما وراء البلدة. وعبر سرب هائل من الزاغ يطلق نعيبا عالياً متّجهاً نحو البساتين.. وقف لاهثاً، قريباً من باب الجامع. رأى عبّودي جالساً تحت نثيث المطر، وسط بركة صغيرة من مخلّفات مطر الأيام الفائتة يُخرج الطين منها ويفرك به شعره، ويمسح يديه بملابسه ويعود يُخرج حفنة أخرى منها يفرك بها رقبته وهو يصرخ باكياً. وعلى مبعدة أمتار منه بدا عبسي مضطجعاً على جنبه كما لو أنه مستغرق في نوم هادئ.. حين اقترب حكمت منه لحظ أن عينيه مفتوحتان كأنهما تحدِّقان في بقعة الدم الدكناء الدائرية تحت الرأس فيما قطرات المطر تترك فيها دوائر صغيرة متلاشية.

أغلق حكمت عيني عبسي وسأل:

«وأين حسّون؟».

«ذاك».

مشى صافراً من أثر اللهاث والخوف.. اقترب من صف النخيل، في الفسحة الملاصقة للجامع.. لمح أشلاء جسد حسّون متناثراً في المكان، حول حفرة سوداء هائلة صنعتها قنبلة من عيار ثقيل.. خلع معطفه المطري وفرشه على الأرض:

«جيت تلتحق بالموت يا حسّون.. مصارلك أسبوعين هنا، لو شهر.. عمت عيني عليك».

ثم صاح برفيقيه:

«تعالا نلمّه».

هزّ نائل رأسه رافضاً:

«تعال، لا تخف.. ألا تريده أن يذهب إلى الجنّة.. أيهما أفضل؛ أن تأكله الثعالب والنسور أم يذهب إلى الجنّة؟ تعال، أليس هو صديقك؟».

اقترب نائل وفمه مفتوح، وعيناه جاحظتان.

«تعال يا أخي»

قالها حكمت بنبرة مختنقة.

استغرق العثور على الأشلاء المبعثرة أكثر من نصف ساعة، وربما تكون أجزاء منها طارت بعيداً.

«سندفنهما إلى جانب راهي».

وتحت المطر المتساقط إزاء الخلاء الممتد حفروا قبرين، ودفنوا رفيقيهم.. لم يكن قد تبقى من عبارة (بسبب الحرب مات راهي يا ملعون) سوى خطوط حمر سائلة وموحلة.

بصوتٍ آمرٍ طلب منهما حكمت أن يسرعا إلى غرفتهما ويغيّرا ملابسهما وإلاً سيصابان بالزكام. وطمأنهما أنه ذاهب لتدبير بعض الطعام.

سار، من غير معطفه المطري هذه المرّة، بعدما دفنه مع أشلاء

حسّون. راوده شعور أن العالم مبلل بالدم.. الماء يقطر من شعره على لحيته النامية، يهبط على رقبته وصدره ويدخل إلى أسفل جسمه.. ملابسه منقوعة تماماً، وأوصاله ترتعد.. وخطر له أنه سيمرض ولم يبالِ.. وحده العثور على طعام ما كان يدفعه إلى المضي في سديم العتمة الهابطة.. البروق تتلاحق ودمدمة الرعود.. إنها الرعود وليست انفجارات البشر.. يعرف أن المدافع غالباً ما تسكت في المطر.. كان عليه الوصول إلى مفرق الجبهة وهناك سينتظر، وربما وقفت من أجله سيارة إعاشة عسكرية قد تمر قبل حلول الظلام.. وحتى لو حلّ الظلام قرّر ألا يرجع.. لن يرجع من غير طعام طالما دودة الجوع النهمة تقرض أحشاءه وأحشاء رفيقيه اللذين هما الحيّين الوحيدين الباقيين الآن من كردوسه.

وقف في المفرق، لا يدري كم من الوقت، بجسم يرتعش وأنف يسيل. وكان قبل كل شيء غاضباً، ومنهكاً.. التقط حصى كثيرة رماها في كل اتجاه، وردّد بذاءات انسابت على لسانه بيسر.. وكانت ساعة الغروب أو ما قبلها بقليل حين أبصر أضواءً خافتة لسيارة قادمة.. تسمّر في منتصف الشارع، وحين اقتربت الأضواء تأكد أنها مجموعة مركبات عسكرية.. وقفت السيارة الأولى وهي من نوع رانج روفر كاكية، وخلفها وقفت سيارتا لاند روفر وشوفرليه وسيارتا واز.. نزل أربعة جنود وطوقوه بأسلحتهم وقادوه إلى السيارة الأولى حيث يجلس في المقعد الأيمن خلف السائق شخص متورد الوجه، أشيب، على كتفه نسر وثلاثة نجوم وشريط أحمر.. فهم حكمت أن الشخص هذا هو الآمر، أو القائد.. سأل الضابط الكبير بعدما أنزل زجاجة الباب التي إلى جانبه:

«ماذا تفعل هنا؟».

«أكل.. أريد أكل».

«أما زلت تسكن البلدة مع المجانين؟».

«ماتوا.. بقي اثنين.. ثلاثة.. نحن ثلاثة».

«يقولون أنك لا تريد المغادرة إلى مكان آخر؟».

«لا أريد».

«ما رأيك لو أدبِّر أمر دخولكم إلى مستشفى الشمّاعية».

«لا.. لا.. شمّاعية لا.. هناك أتخبّل».

ضحك الضابط الكبير وأمر الجنود أن يعطوا حكمت شيئاً مما يحملون من أرزاق جافة.

«إنها ثلاثة كيلو مترات إلى البلدة، كيف ستصل إلى هناك؟».

«أمشي».

قال حكمت بعدما رفع الضابط زجاجة السيارة:

«هم زين ما عطست بوجهه»

وأطلق عطسة مزدوجة.

***

مضطجعاً ما يزال في فراشه دخّن سيجارة، وقضم قطعتي بسكويت مالح مما جلبه من موكب الآمر أمس.. حمل الدورق البلاستيكي إلى فمه وكرع ماءً أحسّه بارداً، وفيه طعمُ الطين.. كان بلعومه جافاً، مجرّحاً..

أشعل سيجارة ثانية وضوء النهار الشاحب يمتدُّ على نصف البطّانية التي تغطّي قدميه، نافذاً من الكوّة العليا المزجّجة للنافذة.. جعلته رائحة الرطوبة يعطس بقوة، وعرف أنه أصيب بالزكام.

قام وهرش شعر لحيته بأصابعه، وبصق.. نظر إلى البلغم الأصفر على الجزء المكشوف من أرضية الغرفة قرب الباب... مسح فمه بكمّ قميصه ولبس معطفاً فضفاضاً قهوائي اللون كان قد عثر عليه في بيت ما، في السنة الفائتة وخرج. كان سحّاب بنطاله مفتوحاً وقد برز من بينه جزءٌ من قماشة لباسه الداخلي الأبيض المتّسخ.

فتح الباب فصفعه الهواء المضيء البارد. كانت الشمس طالعة، وبرك الماء تبرق في حوش المنزل بسطوع.. حمل كنزته الصوفية مع بنطاله وملابسه الداخلية المبللة من مطر البارحة، ونشرها على الحبل المشدود بين نافذة غرفته وبقية شجرة فحل التوت العارية المقطوعة الرأس. وكان حذاؤه هو الآخر مبلّلاً فوضعه لينشف في المساحة المعرّضة لأشعة الشمس، على قطعة كرتون أتى بها من غرفته. اضطر إلى وضع قدميه المثلجتين في الحذاء البلاستيكي الأسود اليابس الذي يكرهه لأن حوافه الحادّة تجرِّح جلده أسفل قصبتي ساقيه.

أخذ بعض البسكويت مع علبة جبن علامة (الصقر) فتحها بفتّاحة العلب التي يحتفظ بها مع أدوات أخرى في صندوق صغير.. يعرف أن رفيقيه الناجيين معه حتى هذه الساعة من غدر الحرب ينتظرانه من أجل أن يفطرا. وهناك وجد نائل ولم يجد عبّودي، سأل عنه.. قال نائل وهو يحطِّم بأسنانه الكبيرة ثلاث قطع من البسكويت دفعة واحدة:

«راح».

«وين راح؟».

«راح».

«طاح حظك، وين راح».

«راح... بعيد».

«لا تقل لي إلى البستان».

«إلى بغداد.. قال إلى بغداد».

«كذب عليك».

«قال، هنا الموت.. بغداد فيها عرق وبنات».

جلس حكمت وتناول قطعة جبن صغيرة مع قطعتي بسكويت، والتهم نائل ما تبقى.. أخرج سيجارة، ورغب نائل بسيجارة فأعطاها له ولم يخرج سيجارة ثانية لنفسه، وقال:

«ابق هنا.. سأذهب إلى البلدة (ب).. خلّصنا عرق، وسأجلب خبزاً وأرجع مع عبّودي».

«عبّودي راح.. بغداد فيها بنات وعرق».

لم يعثر على عبّودي في البلدة (ب).. سأل عنه ولم يتلق جواباً أكيداً.. ذهب إلى مرآب الحافلات.. أخبره المشرف هناك بأن عبّودي صعد بحافلة انطلقت قبل ساعة إلى مركز المحافظة/ المدينة (ق).

«ومن أين له فلوس؟»

«ومن يطلب فلوس من عبّودي؟».

استقل الحافلة التالية المتّجهة إلى المدينة (ق).. لم يكترث لممازحة بعض الركّاب السمجين. ولا لتذمّرهم منه لأنه يعطس كل دقيقتين أو ثلاث. وفي المدينة (ق) بحث في المرآب الذي منه تنطلق الحافلات إلى بغداد ولم يجده هناك أيضاً.. سأل مشرف المرآب عنه:

«من عبّودي؟. مع العُقّال هلا هلا».

«عبّودي طويل».

«طويل.. قصير.. لم أره».

مضى إلى السوق وتسكّع في الطرقات وألفى نفسه مرهقاً وجائعا.. أعطاه صاحب فرنٍ صمونةً حارّة أكلها بثلاث لقمات أو أربع.. وكانت ساعة ما بعد الظهيرة فرجع إلى البلدة (ب).. جمع ثلاثة دنانير وربع الدينار.. اشترى قنينتي عرق هبهب، وأربعة علب سجائر سومر، وكيلو برتقال، وعشرة أقراص من الخبز.. قال له الخبّاز:

«فلوسك تكفي لستة أقراص».

«أريد عشرة».

أعطاه الخبّاز عشرة أقراص.

«يستاهل حكّو».

بعد أسبوع تأكد حكمت أن عبّودي لن يرجع إلى البلدة أبداً، وكان عليه أن ينساه. ولأول مرة باتت مشاعر الوحشة والفقدان تنتابه بقوة. وذات ليلة فوجئ بدموعه تنهمل وهو تحت اللحاف، ورغب فعلاً أن يدع

دموعه تجري على سجيّتها كما لو أنه لتوِّه يكتشف القدرة على البكاء، ومغزى البكاء.. لم يتذكّر أنه بكى في أي يوم قبل هذه الحرب، غير أن مشهد رجل متقنفذٍ مدمى بين جدران أربعة ضيّقة تراءى له.. كان الرجل يبكي، ولم يدرك صلته بالرجل والمشهد. ونام ورأى فيما يرى النائم قطّة تبكي وامرأة عجوز تواسيها.. سأل المرأة عن سبب بكاء القطّة.. قالت: «لأنها بعيدة». واستيقظ والعرق يبلِّله والوقت ما بعد منتصف الليل أو ساعة ما قبل الفجر. واستعاد وجوه الراحلين من رفاقه وهمس: «ليش رحتو». ولا يدري متى غفا مرّة أخرى.

قال لنائل في نهار اليوم التالي:

«لم يبق لي إلاك فلا تفعلها».

«أفعل ماذا؟».

«أن تذهب أو تموت».

«لا أذهب.. لا أريد أن أموت».

«هذا جيد».

جفلت الزرازير المتكئة على أسلاك الكهرباء وطارت لمّا انبعث دويّ انفجار.. اختضّ نائل وصاح:

«لا أريد أن أموت».

«لن تموت.. على الأقل ليس الآن.. إنهم يقصفون الطريق».

«أي طريق؟».

«طريق الذين خلّفوك».

«من هم؟ من هم الذين خلّفوني».

«اسكت نائل».

ربيع نهلة

أحسّت نهلة بانقلاب غريب مباغت في معدتها، وبالجفاف في حلقها.. وظلّ بصرها معلّقاً برجاء ووجل في حروف الكتابة السود على اللوحة البيضاء التي تراها عبر الباب المفتوح، معلّقاً على الحائط، في الجهة الأخرى من الممر، في هذا الطابق الثالث من عمارة الأطباء في شارع المشجّر، قريباً من ساحة النصر.. كانت تجلس في صالة انتظار عيادة طبيبة نسائية، رفقة صديقتها أريج التي تأخر حملها، هي المتزوجة منذ سبعة أشهر.. قامت ومشت نحو السكرتيرة، وسألتها مباشرة فيما الهيجان يصعد إلى محيط صدرها، ويشيع في رأسها اضطراباً كذاك الذي ينتاب المراهقات العاشقات.

«هذا الطبيب، مقابل عيادتكم، الدكتور راسم لطيف حنتوش، هل انتقل إلى هنا من البلدة (ب)؟».

«لا أدري.. هو هنا منذ سنة.. لماذا؟».

ـ أظنني أعرفه.

خرجتْ.. قرأت اللوحة ثانية لتتأكد؛ (الدكتور راسم لطيف حنتوش.. اختصاص أنف وأذن وحنجرة.. عضو الجمعية الطبية الملكية البريطانية).

وجدت في صالة انتظار عيادة الدكتور راسم ثلاثة رجال وامرأتين وطفلة، والسكرتيرة تطالع مجلة (ألف باء)، وتدوِّر علكاً في فمها.. دفعت لها ثلاثة دنانير قاطعة تذكرة مراجعة.

ـ كم سأنتظر؟.

ـ ساعة.

ـ أفضِّل أن أكون المراجعة الأخيرة.

عادت.. كانت أريج ما تزال في غرفة الطبيبة.. وظلّت واقفة لأن طفلاً احتلَّ كرسيّها في أثناء غيابها.. نظرت عبر زجاج النافذة المطلّة على الشارع المزدحم حيث تمرُّ السيارات ببطء، والأرصفة تضجّ بالباعة الجائلين والمارّة، في ساعة العصر هذه.. كانت ما تزال مهتاجة، لم يغادرها انفعالها، وتساءلت في ما إذا كان من الصواب أن تقدم على ما قررته لتوِّها من غير ترتيب مسبق.. وكيف عليها أن تبدأ الحديث معه إذا كان هو فعلاً الشخص الذي تتصوّره.. حاولت أن تستعيد شكل الطبيب بيد أن ذاكرتها خذلتها، فقط تتذكّر الاسم، بالأحرى المقطع الثالث منه (حنتوش).. هي لم تقابله سوى مرّة واحدة، بشكل عابر، ظهيرة يوم قائظ، في شارع الرشيد.. يومها قدّمه لها عامر: «الدكتور الجديد راسم لطيف حنتوش، صديقي العتيق، اختصاص حنتوش وأذن وحنجرة». ضحكوا ملء القلب.. كان في ذلك الوقت من الممكن أن يضحك المرء ملء القلب.. بعد ذلك تحدّث عامر لها عن صديقه الذي اسم جدِّه حنتوش مراراً.. قال: «هو مثلي، صديقي وإن كان يكبرني بسنوات، تصادقنا بفضل اهتماماتنا المشتركة، يحاول كتابة الشعر بطريقة حديثة».. هذا ما هي متأكدة منه.

يومها قال لها الدكتور راسم مازحاً: «إذا ما شكيت من أنفك أو أذنك أو حنجرتك فعيادتي ترحب بك في البلدة (ب)».

نقرت أريج بإبهامها على كتف نهلة:

«ها، أين وصلتِ؟».

«بشّري».

«التحاليل تقول، إنه لا عيب فيّ».

«إذاً العيب فيه».

«لا يا شاطرة.. راجع طبيباً أكدّ له أنه (صاغ) سليم».

«أظنُّ العيب في السرير».

«هه، بايخة.. العيب في التوقيت».

«توقيت ماذا؟».

«عسكري في حرب، يبقى شهراً هناك ثم يمنحونه إجازة لأسبوع.. متى، في الوقت الذي تكون السيدة البويضة قد ملّت وولّت».

«أخبريه أن يغيّر موعد إجازته»

«وكيف سيبرر الأمر لهم؟. أعطوني إجازة كي......».

«لماذا العجلة، ما الضير إذا تأخر إنجابك سنة أو اثنتين؟».

«هو مستعجل، يخشى أن يموت في الحرب ولم يخلّف ولداً بعد».

«اسم الله».

«يللا، لنرجع».

«لا، قطعت تذكرة، سأراجع طبيب الأنف والأذن والحنجرة».

«وما له عندكِ هذا الثلاثي المرح؟».

«لا شيء، أردت أن أرى الطبيب».

«لماذا؟ أهو وسيم؟.. تريدين إيقاعه، اقتنعتِ أخيراً».

«لا يا أريج.. أعرفه.. كان صديق عامر.. ربما يعرف شيئاً».

«ماذا؟. أمخبولة أنتِ؟ عامر معتقل منذ سنوات.. ماذا يمكن أن يكون يعرف؟».

«أي خبر.. نحن لا نعرف إن كانوا أطلقوا سراحه أو أعدموه.. لا نعرف شيئاً».

«حسناً، ومتى دوركِ؟».

«بعد ساعة، لننزل ونتمشى قليلاً في شارع السعدون».

«هناك محل حلويات».

«انظري إلى نفسك.. مذ تزوجتِ زدتِ عشرين كيلو غراماً».

« الزواج يسمِّن يا نهلة.. فقط جرّبي».

أرائك صالة الانتظار كانت خالية، وهذا ما طمأنها قليلاً. لكنّها ظلّت مضطربة في قرارتها، تحدس أن الأمر الذي ستعلمه بعد دقائق سيلقيها في مفترق صعب.. جلست أريج المتعبة من صعود الدرج على أقرب مقعد للباب، فيما اتّجهت هي نحو السكرتيرة التي استقبلتها بتبرّم ونفاد صبر:

«لو كنتِ تأخرتِ خمس دقائق أُخر لكان الدكتور غادر».

«آسفة».

أغلقت باب العيادة ووقفت أمامه، تحدِّق فيه، وتستعيد صورته من ذاكرتها.. صورته كما كان يومها في شارع الرشيد أواخر ربيع العام 1977.. «لم يتغير كثيراً»، قالت في سرِّها.. لحظ الطبيب خطواتها المرتبكة، ونظرتها التائهة القلقة، وهي تمشي باتجاهه. وربما ظنّ أنها تهجس من مرضٍ تعتقده خطيراً.

جلست على الكرسي الملاصق لطرف المنضدة العريضة قبل أن يدعوها هو للجلوس.

«مم تشكين؟».

«لا أشكو من شيء».

«إذاً، لماذا أنتِ هنا؟!».

«لأسألك».

«عمَّ».

«عن عامر.. عامر حميد.. صديقك....».

اختلج وجه الطبيب، وظهر عليه إمارات الاهتمام والشك.. وقد يكون تصوّرَها، للحظة، وكيلة لجهاز الأمن، جاءت للإيقاع به. ومن جهتها حسبتْ هي أنه قرر أن ينكر معرفته بعامر ذاك، أو يدّعي أنه يعرفه معرفة عابرة، وأن أخباره انقطعت عنه منذ بضع سنين، فسارعت إلى القول:

«أنا نهلة، صديقته، ألا تذكر.. التقينا يوماً في شارع الرشيد وقلت لي....».

انفرجت أسارير الطبيب، وابتسم:

«نعم، نعم.. تذكّرت..».

«الحمد لله.. أود أن أعرف الآن كلّ شيء».

أطلق ضحكة عصبية وقال:

«تبدين مثل محقِّقة صارمة فقدت أعصابها».

«آسفة.. ولكن قل لي؛ أما زال معتقلاً».

«لا يا نهلة.. أطلقوا سراحه قبل الحرب بسنتين تقريباً».

«مستحيل.. إذاً لماذا لم يتصل بي؟».

«لم يتصل بأيّ أحد.. أنا من وجدته بالمصادفة».

«لماذا؟».

«لأنه وبصراحة مؤلمة خرج فاقداً 90% من ذاكرته، وثلاثة أرباع عقله».

وقفت نهلة وراحت تردِّد:

«لا، لا، لا، لا».

«كانت صدمة لنا جميعاً».

«وأين هو الآن؟».

«في البلدة (س)».

«لا أحد، كما أعلم، في تلك البلدة منذ بدأت الحرب».

«لا أحد سواه.. هو وجوقة معاقين من كل صنف.. البلدة تُقصف بالمدفعية لكنه ما يزال هناك، يتسكّع طوال الوقت مخموراً في الشوارع الخالية، ويرفض أن يغادر».

* * *

ظلّت أريج، وقبل أن ترشَّ غضبها بالكلام، لنصف دقيقة فاتحة ثغرها، وقد اتسع بياض عينيها، بعدما حكت لها نهلة عمّا سمعت من الطبيب وأفصحت عن عزمها بالذهاب إلى البلدة (س).

«تقولين جوقة مخبولين.. لا شك أنهم سيسعدون بانضمام مخبولة مستجدّة إليهم».

«كوني جادّة يا أريج وافهميني.. سأذهب في مهمّة صحافية.. سأصطحب فريق عمل.. سيارة وسائق ومصوّر وإذن بالدخول.. سأقنع رئيس التحرير».

«ممتاز.. ولكن ماذا ستقولين له هو؛ عامرك؟.. وكيف ستتعاملين معه، هو الذي فقدَ.. كم؟ 95% من ذاكرته وثلاثة أرباع عقله.. عال والله.. يبدو أنك فقدتِ أربعة أرباع عقلك، وإلاّ.....».

«هذا سيريحني»

حاولت أريج إفهامها أن هذا سيأتي بمردود عكسي يجعلها تعيش في دوامة: «ستبقى صورته السيئة التي سترينها بها عالقة في ذهنك.. لماذا لا تحافظين على صورته القديمة الحلوة إلى أن يفرِّجها الله».

«لا أستطيع.. ربما التقائي به سينعش ذاكرته.. ربما سيساعده بطريقة ما. وفي أسوأ الأحوال ربما ساعدتني أنا كي أنتهي منه وأيأس».

«أنت لا ترين غيره.. صنعتِ في عقلكِ وهماً اسمه عامر وصدّقتيه.. لا أعتقد أنك قادرة على محو ذلك الوهم.. ستختلقين في كل يوم ذريعة جديدة لزيارته إلى أن يدخلوكِ بشكل رسمي إلى الشمّاعية.. لا تفكِّري أنني سأزورك هناك وأنت منفوشة الشعر ولعابك يسيل، وغارقة في القذارة».

بتوصية من صديق لوالدها؛ متنفذ في مؤسسة للحكم، قبلها رئيس تحرير صحيفة (البلاد)، بعد تخرجِّها، متدرِّبة في قسم التحقيقات، تشتغل بالقطعة قبل أن يجري تعيينها على الملاك الدائم. ومنذ ذلك الوقت كتبت ما يقرب من العشرين ريبورتاجاً نُشر بعضها مباشرةً، وطُلب منها تعديل بعض آخر قبل نشره، فيما رُفض بعضٌ ثالث.. كانت أريج واثقة من أن رئيس التحرير سيسرّ بالكتابة عن مدينة حدودية هجرها أهلها بسبب قصف الأعداء. وقد لا يرتاح لصورة مجانين يجوبون الطرقات والأزقة الخاوية، لكن يمكن أن تجد قصة ملائمة تكون قوام ريبورتاجها المقترح. ذلك الريبورتاج الذي لم تكن هي نفسها واثقة من قدرتها على كتابته بعد عودتها. فلقاؤها بعامر السابح في ظلمات العته لابدّ من أن يخلِّف فيها مشاعر قهر وإحباط ويأس. وفي الليلة ذاتها لم يفضِ مسعى خادمة المنزل أم يعقوب بعد أن ضبطتها تبكي بحرقة لمعرفة السبب إلى نتيجة.. لم تتكلّم على الرغم من أن العلاقة بينهما أكثر من كونها علاقة سيدة بيت بخادمة.

لم تستقر نهلة على رأي محدّد.. زارتها أريج في الجمعة التالية،

وبصوت هامس أخبرتها أنها ترى بأن الجنون شاطئ أمان لعامر، وإلا سيقودونه إلى الحرب، أو لعلّه يدّعي الجنون ليتخلّص من ملاحقتهم:

«من يُعتقل مرّة، سيبقى مشكوكاً بأمره إلى أن يموت».

أرجأت نهلة، في البدء، قرار طرح الفكرة على رئيس قسم التحقيقات ورئيس التحرير. ولكن حتى بعد أن توصّلت إلى قناعة مؤكدة بضرورة الذهاب إلى البلدة (س)، بقيت طوال أيام تتساءل مع نفسها في ما إذا كان من المناسب أن تذهب الآن، أم أن عليها الإعداد للريبورتاج جيداً، وأن تكون هي مهيأة نفسياً وذهنياً كي لا تقترف خطأً مؤذياً.. وانكبت في هذه الأيام على قراءة بضع روايات؛ (الجحيم لهنري باربوس، زوربا لنيكوس كازانتزاكي، ثرثرة فوق النيل لنجيب محفوظ، النخلة والجيران لغائب طعمة فرمان). وإذا كان ذهنها يشرد غالباً في أثناء القراءة، فإن رواية واحدة قرأتها مرتين هي؛ (البحث عن وليد مسعود، لجبرا إبراهيم جبرا) صفّت مزاجها وساعدتها على ترتيب أفكارها، وأعطتها شجاعة القرار.. لم تعرف لماذا هذه الرواية بالذات؟ قالت لأريج: «ربما هي فكرة البحث.. أن يخوض المرء مغامرة يدرك أن حياته ستتغير بعدها بطريقة حاسمة».

بعد أسابيع ثلاثة من مقابلتها لطبيب الأنف والأذن والحنجرة كانت بغداد تخرج من فصل انكماشها في قارورة الزمهرير والمطر وتتفتح لربيع مشرق دافئ، ولخضرة مبهجة نظيفة. هنا أيقنت نهلة في دخيلتها بأن الأوان قد آن، وأنها على استعداد لمواجهة الاحتمالات كلها. وأبداً لم تكن قد عرفت قبلاً هذا الفيض من الحماس الذي يلهب أفكارها

ومشاعرها، على الرغم من نفحة الأسى التي ما برحت تجول في دمها وتترك ظلاً منكسراً في نظرتها ونبرة صوتها.

تخيّلت كيفية وتفاصيل لقائها المرتقب بعامر في عشرات المشاهد المختلفة. واشتط تفاؤلها إلى الحد الذي رأته بعين بصيرتها الحيّة يزيحُ، في لحظة، ما ألقوه على عقله من رمال وأدران تدوِّم مع ريح غريبة، ليعود إلى نفسه معافى، ومملوءاً بعشق الحياة كما كان. ولأول مرة مذ وعت الدنيا تفكِّر بمعجزة تطيح بقوانين الطبيعة المألوفة. ووقفت ليلاً في عتمة غرفتها أمام النافذة تنظر إلى النجوم، وتناجي ما وراءها، وتتوسّل إلى الحيّ القيوم أن يعينها ويعينه. وتنبّهت إلى أنها ذرفت دموعاً كثيرة، ودخنّت سجائر ملأت بأعقابها منفضة الكريستال الموضوعة عند حافة النافذة التي فتحتها بدرفاتها كلها لتدع هواء الساعة الواحدة بعد منتصف الليل البارد يغمر روحها، ويسلِّمها لجنّة الكلمات. وفي غضون الأسابيع المنصرمة مذ علمت بوجود عامر حيّاً، وحرّاً بطريقة ما، ومتشرِّداً في طرقات الحرب الخلفيّة، ومحلِّقاً في فضاء متاهته الخاصة، جرّبت أن تكتب ما يمكن أن يكون المدخل لريبورتاجها.. دوّنت جمل الاستهلال مرّات ومرّات وشطبتها.. كانت تحسُّ بالبلاغة المتكلِّفة والطنّانة لكتاباتها.. تحلم بأسلوب سلس دفّاق. وبشرط أن تكون صادقة. والتجأت لطريقة التداعي الحر، تاركة لا وعيها يقذف بمكنوناته من غير رادع. وفي النهاية لم تقبض إلا على نصٍّ مبهم لا يصلح للنشر إطلاقاً في صحيفة يومية.

نصحها رئيس قسم التحقيقات الكهل مهدي الراشد: «اكتبي عمّا تعرفين وتحبّين، وابحثي عن الحقائق والمعلومات، وإياك أن تستسلمي

لشطحات الخيال أو للفصاحة الجامدة المتصلبة. اختاري الكلمات البسيطة المعبِّرة. وقبل هذا وذاك اقرئي كثيراً. وتمرّني على الكتابة، ومزّقي طنّاً من الأوراق. وإذا كنتِ موهوبة حقاً وأنت موهوبة. وإذا كنتِ ذات إرادة، وأنتِ كذلك فستنجحين. وفي رأيي أنكِ ستنجحين».

انطبعت هذه الكلمات على صفحة ذهنها واستعادتها مراراً.. اقتنت أعداد المجلات العربية التي تدخل البلد وقرأت معظم ما فيها. وشكت لرئيس القسم الأستاذ مهدي الراشد قلّة ما يقع بين يديها، وأن هذا المتاح من القراءات لا يشبع نهمها فاقترح عليها أن تتعلم الإنجليزية: «من غير لغة أجنبية، ولا سيما الإنجليزية لن تجتازي حداً معيناً.. الإنجليزية ستفتح أمامك الآفاق».. قالت له: «إنجليزيتي لا بأس بها، لكنني بحاجة إلى الاهتمام بها أكثر».

هنا، في هذا الوقت طرحت عليه فكرة الريبورتاج الخاص بالبلدة (س).. أصغى لها باهتمام قبل أن يقول: «مع احترامي الشديد لكِ، أنتِ صحافية مبتدئة، ولم تتعيني على ملاك الجريدة إلّا منذ سنة أو أكثر بقليل. وأشك في أن يوافق رئيس التحرير على إعارتكِ سيارة تذهب إلى منطقة تماس في جبهة القتال مع سائق ومصوّر».

«تستطيع أنت إقناعه».

«أقدِّر حماسكِ، لكن أرى لو نعطي الموضوع لصحافي متمرِّس له خبرة، ولا بأس أن تذهبي أنتِ الأخرى معه.. الموضوع المقترح جيد، لكن عمّ ستكتبون؟. عن شوارع خالية وبيوت مهجورة ومهدّمة، وعن الصمت.. أين القصّة؟. لابد من عنصر درامي في أية قصّة».

«هناك قصّة.. هناك من يعيش في البلدة».

«أمتأكدة؟!».

حرّكت رأسها وقالت:

«سأكون صريحة معك.. سأحكي لك القصة كلها لتعرف لماذا أريد خوض هذه التجربة.. أنا أثق بك أستاذ مهدي.. أنت أكثر مَن أثق به في الجريدة، إنْ كنتَ غير مشغول الآن سأحكي، وأخشى أن أتردّد فيما بعد».

«أثرتِ فضولي.. أسمعكِ».

سيمضي أكثر من شهر قبل أن يوافق رئيس التحرير على إرسال فريق صحافي إلى البلدة (س). وفي هذه الآونة ستنشغل نهلة بضعة أيام مع فاجعة عائلة خالتها التي فقدت ابنها خلدون.. أصيب بنكسة قلبية مفاجئة ولفظ أنفاسه بين ذراعي والدته عصر يوم مغبر.. ستبكي نهلة هناك طويلاً. وستتصل بأريج وتخبرها، فتأتي هذه لمجلس عزاء النساء، وتقعد واجمة لساعة قبل أن تبلل دموعها وجهها، فتتحاضن الصديقتان وتشرعان بنشيج مرّ.

«آسفة، ما كان يجب أن أقول كل تلك السخافات عنه وأعرف أنه مريض».

«لا عليكِ أريج.. أعرفكِ.. قلبك نظيف مثل الماس».

نهلة في البلدة (س)

ينحني الشارع.. يستدرج سيارة الرانج روفر المغطّاة بالوحل نحو خطِّ السراب.. لمعة هائلة تجري تحت سماءٍ عارية برّاقة. ومهما كانت السرعة التي يتجهون بها نحوه يبقى أفق الأسفلت على المسافة عينها بينه وبين السيارة.. السائق ستّار يحدِّق من الكوّة التي أبقاها في الزجاج الأمامي، وكلما ركّز النظر تهيأ له أن كل شيء واقف ساكن.. يمسح العرق عن جبينه وخدّيه بباطن كفّه.. يقول:

«هذا الحر، وما زلنا في الربيع».

يقول حسن المصوّر الجالس إلى جانبه:

«ربيعنا ثلاثة أسابيع وصيفنا سبعة شهور».

يقول محمود الصحافي الذي تخطّى الأربعين، الجالس مع نهلة في المقعد الخلفي:

«لم نشبع من البرد بعد، أجسامنا بحاجة حتى إلى البرد، لكن شتاءنا قصير.. لا شيء على ما يرام في هذه البلاد».

تقول نهلة: «إذاً لماذا تحبّونها؟». وهي تحاول النظر من بين شقوق

الوحل اليابس على زجاج النافذة.. وتردف، كما لو أنها نسيت سؤالها الذي لم يجبها عليه أحد:

«لم يكن من داعٍ لهذا التطيين.. انظر إلى المركبات العسكرية، معظمها غير مطيّنة».. يقول ستّار:

«طول مدّة الحرب جعلهم لا يبالون، لكن الحذر واجب».

يقول محمود: «الحرب خبط عشواء، اسألوني أنا.. بقيت في الجبهة سنة كاملة.. مصيرك مرتبط بالمصادفة والحظ.. لا تدري متى ستنفجر قنبلة بالقرب منك؟ متى تصيبك رصاصة طائشة في الرأس؟. لا تدري».

تعلّق نهلة:

«الأخبار في جبهات الجنوب غير مطمئنة».

يقول محمود:

«لا توجد حروب رابحة.. الجميع يخسرون».

يلتفت حسن المصوِّر ويغمز فيفهم محمود أن عليه ألا يتمادى في الكلام، فهم لا يعرفون ستّاراً جيداً.. تعيّن قبل شهرين على ملاك الجريدة بوظيفة سائق.. هو شاب لم يتعد الثلاثين، وعليه أن يكون في الجبهة الآن.. يدّعي أنه يعاني من انسداد في صمام القلب لهذا سرّحوه من الجيش.. من يعلم؟. قد يكون وكيل أمن أو أي شيء من هذا القبيل. كان هذا هاجس حسن المصوِّر الذي أفضى به قبل أيام لمحمود الصحافي.. حسن ذو الشعر الرمادي الممشّط بعناية خرّيج سجن الأمن العامة.. اتّهموه ذات مرة بشيء غامض: «أنت تظهر في خمس صور مع دعَويين

مدانين». بقي سنة ونصف السنة ينقلونه بين زنازين انفرادية وأخرى جماعية. وحين أطلق سراحه بكلمة اعتذار وصفها لأصدقائه الخلّص بالمتعجرفة: «ولا يهمّك، احسبها جزءاً من نضالك من أجل الحزب والثورة». كانت الحرب مع الدولة الجارة قد بدأت منذ أشهر فساقوه مع قطعات الجيش الشعبي إلى القاطع الأوسط، وهناك ظل ستة شهور ولم يبصر جندياً معادياً واحداً، غير أنه كاد يفقد حياته ذات ليلة وهو مع دورية قتالية في منحدر وادٍ صخري حين انهمرت عليهم قذائف الهاون وأخطأتهم الشظايا إلّا واحداً أصيب في رأسه ولفظ أنفاسه بعد دقائق ورفاقه يحملونه في انسحابهم.. حكى عن تلك الليلة مرّات عديدة. وما زال طعم الهلع في فمه وهو يتذكّر كيف كان يتعثّر فتجرح الصخور باطن كفِّه وركبتيه وتمزِّق بنطاله العسكري.. قال محمود الصحافي:

«جيراننا لا يريدون لهذه الحرب أن تنتهي، هم السبب في إطالة مدتها».

قال ستّار السائق: «لهم شروطهم».

امتعض حسن المصوِّر وقد حدس أن السائق ربما يرغب باستدراج محمود إلى فخ خطير، فسأل ليغيّر اتجاه الحديث.

«من سنجد هناك، في البلدة (س)؟».

أجاب ستّار:

« التعساء المعتوهين، وبعض الحمير والكلاب.. سنجد الأشباح».

قال محمود:

«أنت تعرف مَن في البلدة».

«لأني سألت البارحة صديقاً عسكرياً، وحدته كانت هنا قبل شهر».

«آه».

قالت نهلة:

«سيكون تحقيقاً شيّقاً»

قال محمود:

«سنكتبه بطريقة خاصة حتى لا يرفضه رئيس التحرير».

«سنكتب عمّا نرى».

« سنكتب عمّا يرغب رئيس التحرير أن نراه».

قال حسن المصوِّر:

«لا تتكهنوا بما لا تعرفون، سنصل هناك ونشاهد.. أصوِّر وتكتبون».

في نقطة السيطرة القريبة من مفرق الجبهة استفسر العريف الانضباط وهو يعيد قراءة ورقة الإذن بدخول الصحافيين إلى البلدة (س).

«مقصدكم الجبهة أم البلدة؟».

«البلدة».

«لن تجدوا هناك أحداً».

سألت نهلة: «لا أحد بالمرّة؟».

«لا أحد، ما عدا حكّو المعتوه ورفيق دربه».

وأطلق قهقهة صاخبة.

على الرغم من امتعاضها من سماجة العريف الانضباط إلا أنها أحسّت بشيء من الراحة، فهي ستلتقي أخيراً عامراً وتكلِّمه.. أردف العريف:

«كانوا زمرة وماتوا جميعاً أو هربوا.. بقي حكّو ملكاً على شخص واحد».

ولم تختفِ تكشيرته.. سألت نهلة:

«إذن سنجد حكمت؟».

ردّ العريف مندهشاً: «أتعرفينه؟».

«لا، هذا اسمه كما قيل لنا».

«عجيب.. تريدون أن تكتبوا عن حكّو المخبول».

قال محمود: «بل عن البلدة وما فعل بها قصف العدو».

لاحت أولى بنايات البلدة الواطئة تتموّج على جانبي مسيل الإسفلت اللامع.. رأتها نهلة خلل كوّة السائق في الزجاج الأمامي الموحل للسيارة.. سرت في بدنها رعدة باردة.. فيضٌ من وجل صعد في صدرها، وجعل محيط جمجمتها يتنمّل.. كانت تنظر بعينين ذاهلتين، وأحسّت بالجفاف في حلقها.. سألها حسن المصوِّر: «ها، والآن كيف هي معنوياتكِ؟».. هزّت رأسها ولم تنبس.. مناظر الخرائب التي مرّوا بها، والنخلات ذوات الرؤوس المجزوزة تركتهم صامتين.. كانوا ينظرون من كوّة الزجاج وقد استبدَّ بهم غيظ مكتوم وانقباض وتشوّش في الرأس كما لو أنهم على وشك الهبوط والاستقرار نهائياً على كوكب موحش في السماوات العُلى.

قال محمود الصحافي: «ليتني لم آتِ ولم أرَ».

توقّفت السيارة في الساحة الواسعة المغبرّة.. نزلوا ببدلاتهم الكاكية التي نُصحوا بارتدائها فغمرتهم سخونة أشعة الشمس.. جعلوا يتلفتون يميناً وشمالاً تحيطهم بنايات ودكاكين مغلقة الأبواب، نصفها مهدّم. لم يروا مخلوقا بشرياً واحداً، ولا حتى حيواناً عابراً.. السائق يدوِّر حول إبهامه السلسلة المعدنية الصغيرة التي علق بها مفتاح السيّارة، وحسن المصوِّر يهزُّ برتابة كاميرته من نوع كوداك التي يمسك بها بيديه الاثنتين.. محمود ونهلة يمسك كل منهما بدفتر صغير. تضع نهلة دفترها عند صدرها، ويصفع محمود طرف فخذه بدفتره.. مرّت دقائق ثقيلة.. قال حسن: «لن يجدينا الوقوف هكذا.. لنتجوّل».. بعد اجتياز زقاقين صاح السائق: «ذاك».

«من؟».

«أظنه المخبول الذي حكوا عنه».

«أين هو؟».

«كان ينظر من خلف ذلك الحائط، واختفى».

«إذن لنتعقّبه».

أخذوا يمشون بسرعة نحو الجهة التي أشار إليها السائق.. عثرت نهلة بكتلة من الطابوق وكادت تسقط.. كانت مرتبكة، مسكونة بإحساس غريب.. مشاعر مختلطة تتولاها، لا تعرف كنهها.. هناك خوف ينبض مع دفق دمها، وجزع يبعث فيها الوهن، وحيرة لأنها لا تعرف ماذا ستقول له

إن التقته.. لم تفكِّر بهذا: «كم أنا غبية؟».. وفي لحظة خطر لها أنها ربما أخطأت وكان يجب ألّا تقترح وألّا تلح، وألّا تشجِّعهم على الدخول في هذه المغامرة.

وصلوا خلف الحائط ولم يجدوه.. صاروا في مدخل زقاق ضيّق متعرج، على جانبيه بيوت واطئة السقوف عتيقة، أبواب بعضها مشرعة، أو مخلوعة، وأبواب بعضها الآخر مقفلة.

«هل أنت متأكد من أنكَ رأيته؟».

«طبعا، لسنا في جزيرة عبد الشط حتى يتهيأ لي».

«أظنه دخل واحداً من هذه البيوت».

«لندخلها بيتاً بيتاً».

قال ستّار: «أفكّرتم أنه ربما كان مسلّحاً، وقد يهجم علينا؟».

قالت نهلة: «حكمت لا يؤذي نملة، ويكره الأسلحة».

قال ستّار: «يبدو أنكِ تعرفينه مثلما لاحظ العريف الانضباط».

قال محمود: «سألتْ عنه.. أحدهم حكى لها عن حياته كل شيء، وبحسِّها الصحافي فكّرت أن تنجز هذا التحقيق.. لهذا نحن هنا».

قال ستّار متشكِّكاً: «من يضمن أن ما سمِعَتْه هو الحقيقة؟».

قال حسن: «لقد جئنا، وها نحن هنا، وليس من المعقول أن نجبن ونتراجع.. ماذا سيقولون عنّا في الجريدة.. سنكون أضحوكة.. هذا ما يريده بعضهم».

قال ستّار ضاحكاً: «الله يستر».

أول بيت ولجوه كان الأوطأ بين البيوت المتراصّة التي تدعم بعضها بعضاً، غرفه صغيرة معتمة، لا ينفذ ضوء النهار إليها، ومخنوقة برائحة رطوبة ثقيلة.. قال ستّار: «عندي مصباح يدوي في السيارة، سأذهب وأجلبه».

أعانهم المصباح في الكشف عن غرف البيوت غرفة غرفة.. وجدوا ثمة بعض الأثاث العتيق؛ كراسيَ وأرائك خشبية ومناضد صغيرة وأسرّة وفُرش ودواليب، وكلها يعلوها الغبار.. وكانت ثمة عظام حيوانات نافقة وروائح حامضة حريفة تبعث على الدوار.

تقيأت نهلة في باحة أحد البيوت وغسلت وجهها وفمها بماء الزمزمية التي تعلِّقها في حزامها، وبدا وجهها مصفرّاً وعيناها محتقنتين.. قال لها محمود: «أتريدين أن نخرج من هنا؟».. قالت: «لا، لا.. ليس قبل أن ننهي ما بدأناه».

«لستِ على ما يرام».

«أحتاج إلى الراحة لدقائق قليلة».

الباحة واسعة، تتوسطها نخلة فتية، وإلى جانبها شجرة توت تفتقت براعمها تواً.. جلست نهلة مسندةً ظهرها إلى جذع النخلة المترب، فيما بقي الرجال الثلاثة واقفين.. قال ستّار: «يخيّل لي أن حكّو هذا سيجعلنا نلاحقه طوال النهار، وسيودعنا ليلاً بقهقهة صاخبة».. قال حسن المصوِّر: «ما يجب أن نفعله هو أن نشعره بالأمان.. بأننا لم نأتِ لنؤذيه». قال محمود الصحافي: «يُقال إنه يتكلم أحياناً بلغة مثقّفة، ويتذكّر حوادث السنتين الأخيرتين.. له لحظات صحوه، ولحظات يغيب فيها».

«لعلّي لمحته.. إنه فوق، يراقبنا»

صاح حسن، فنهضت نهلة وتحرّكوا.. صعدوا، الواحد بعد الآخر، إلى السطح بسلّم خشبي متداع، تحمّل ثقل أجسامهم.. كانت سطوح المنازل متلاصقة، ومن السهل أن يقفز المرء من سطح إلى سطح وينزل من أحدها ويختفي في غرفةٍ ما.. الحالة أشبه بمتاهة مثلما همست نهلة في أذن محمود.

عبر ستّار عدة أسطح برشاقة ونظر في جوف التنانير التي لا يكاد يخلو من واحد منها أي سطح، وعاين باحات البيوت من فوق.. صاح: «أنت، يا حكمت، لن نؤذيك.. تعال، اخرج، سنلتقط لك صورة».

قال محمود: «اسمعوا ماذا يقول هذا الغبي».

قال حسن: «أيمكن لمن يعاني من انسداد صمّام في القلب القفز مثل معزة هكذا؟».

ضحك محمود فيما لم يبرح الوجوم وجه نهلة، فبدت وكأنها على وشك البكاء..

قال لها محمود بنبرة خافتة: «أترين أية فائدة من الكلام معه؟. ثقي أنهم خرّبوا عقله هناك في الأمن العامة، أو الاستخبارات».

شهقت نهلة وقالت كما لو أنها تخاطب نفسها: «لقد جئنا، وهو يوم ضائع على أية حال.. لنبق ساعة أو ساعتين.. نتجوّل ونلتقط الصور للبنايات المهدّمة، للمنازل المهجورة، للأسواق الخاوية».

عبروا من سطح إلى آخر، وسمعوا دوي قنبلة تنفلق خارج البلدة،

وتساءل السائق في ما إذا لم يكونوا يجازفون بالبقاء فوق الأسطح لأنهم ربما يكونون مرصودين من قبل العدو.. نزلوا إلى الزقاق، ثم راحوا يتنقلون من زقاق إلى آخر، في لعبة متاهة مدوّخة لا مخرج منها مثلما تصوّرت نهلة.. ثم على حين فجأة أبصروا حكمت وهو يركض عابراً عرض الزقاق أمامهم من منزل إلى آخر قبالته.. صاحت نهلة: «عامر، حكمت».. سأل ستّار مستغرباً: «عامر؟!».

دخلوا المنزل الذي اختفى فيه وفتّشوا الغرف، ولم يكن هناك.. صعدوا إلى السطح فرأوه يجري في الخلاء خلف الزقاق داخلاً السوق القديم المسقّف ببنطاله القهوائي العريض وقميصة المتهدل حتى منتصف فخذيه. وكان عليهم أن يعثروا على الوسيلة التي استخدمها للنزول.. كان السطح عالياً وليس من المعقول أنه قفز الأمتار الثلاثة من غير أن تنكسر ساقه.. قال ستّار: «أظنه نزل من جذع تلك النخلة». كان الجذع على مسافة نصف متر من الحائط، ووجدوا تفسير ستّار معقولاً لكنهم لم يتجرأوا، فما كانوا قادرين على أن يفعلوا مثلما فعل حكمت.

اضطروا إلى سلوك الطريق الطويل. وبصعوبة عثروا على ممرٍّ ضيق يؤدي إلى السوق، ولم يكن حكمت هناك.. في الأقل لم يستطيعوا التكهن بمكانه.. وفي درب السوق المسقّف المعتم، متتبعين ضوء المصباح الأصفر المتراقص على الأرضية المتآكلة وعلى الجدران والأبواب والسقف المسود أسرعوا الخطى.. قال ستّار: «إنه يلعب معنا.. أراهن أن هذا الكلب ابن الكلب يستمتع باللعب فيما نحن نلاحقه.. إن أمسكت به سأشبعه ضرباً».

كادت نهلة تصرخ بوجهه بيد أنها كتمت غضبها.. قال حسن: «ليس

من حقِّك أن تتكلم هكذا، هو إنسان أيضاً، لا نعرف أية ظروف حقيرة أدت به إلى هذه الحال».

خرجوا من الجهة الأخرى وهم يفركون أعينهم تحت الشمس الحامية.. كان وقت ما بعد منتصف الظهيرة.. اقترح محمود أن يعودوا إلى السيارة ليرتاحوا ويتناولوا طعام الغداء.. لم يعترض أي منهم.

في ظلِّ السيارة جلسوا.. فتحوا صندوق الفلّين الأبيض وأخرجوا طعامهم، وشرابهم.. أقراص كبّة، وقدر برياني، وخبز أبيض، وحاوية مملوءة بسلطة الخيار والطماطم والبصل وقناني البيبسي كولا.. صفّوها على صفحة الإعلانات من جريدة اليوم وشرعوا يأكلون.. بعد أول لقمتين التقطوا صوتاً آدمياً قريباً متحشرجاً.. همهمة فاترة.. التفتوا فجمدوا جميعاً في وضعيتهم.. كان يقف على مبعدة مترين من السيارة، يحدِّق فيهم.. شعره طويل ولحيته كثّة قذرة وقميصه الطويل متّسخ ممزّق عند صدره المشعر، وخدّاه غائران.. كان ينظر إليهم بعيون مستجدية، بالعاً ريقه.. كان في وقفته شيء من الذل.. قال محمود: «تعال حكمت.. تعال أكل ويانه». وسالت الدموع سخينة على خدّي نهلة، وهي تنكِّس رأسها، فيما راح بدنها يرتعش.

تقدّم حكمت بخطوات مرتابة.. كان حذراً مثل فأر يدنو من قطعة جبن وهو قلق من وجود فخ.. وجه نهله الشاحب المغسول بالدموع جعل ستّار يقول لها: «أنا آسف، يبدو أنكِ تعرفينه حقاً».

«تعال حكمت، لا تخف».

جلس حكمت إلى جانب حسن المصوِّر قبالة نهلة من غير أن ينظر

في وجهها.. بدا خجلاً لوهلة.. كانت رائحته حريفة منتنة، حيوانية.. خليط من روائح يعسر تحليلها إلى مكوِّناتها باستثناء رائحة الخمر وعرق الآباط، وربما الزيت المحروق.. ناوله حسن ملعقة أمسك بها ويده ترتجف.. غرف محمود من قدر البرياني ما ملأ ملعقته وقال لحكمت: «مد إيدك، أُكل، طيّب، نهلة طابختلك برياني».. تشجّع حكمت ومدّ ملعقته.. أكل ملعقتين من الرز المحشو بالشعرية والكشمش والبزاليا وشرائح صغيرة من البطاطا المقلية ولحم الدجاج، وتناول لقمة صغيرة من الخبز، لاكها على مهل وهو يجيل البصر في الوجوه إلا وجه هذه الأنثى. وربما كان يستغرب، في قرارته، من وجود امرأة في هذا الصقع التعيس. ولأنه تأكد من أن لا أحد ينظر إليه التهم رغيف الخبز كاملاً، وصار يصدر صفيراً وهسهسة من بين أسنانه وهو يأكل بعجالة.. كأنه لم يأكل منذ دهر.. كأنه في سباق محموم مع الوقت يخشى أن يختفي الطعام من أمامه لأي سبب في أية لحظة.. وخلسةً كان حسن يلتقط بعض الصور.. كانت نهلة قد كفّت عن الأكل.. لم تنظر إليه ثانية.. ظلّت تحدِّق في نقطة افتراضية على الأرض ودموعها تنهمر.. سألها حسن المصوِّر: «لماذا لا تأكلين؟».. بالكاد سمعوا صوتها: «لا أشتهي».. بإيقاع سريع أكل حكمت بالملعقة من قدر البرياني، وشرب قنينة البيبسي كولا بجرعة واحدة.. كان السائل البارد يقرقر في بلعومه.. وضع القنينة الفارغة على الأرض وتجشأ.. قال: «نائل جوعان».. «صاحبك؟» سأله محمود.. هزّ رأسه.. «وديله كل الأكل الباقي، وياه بُطل بيبسي».

ما جعل حكمت يرفع رأسه وينظر إلى نهلة هو صوت نشيجها الخافت.. كانت محنية الرأس، وشعرها يخفي وجهها.

التفت حكمت إلى حسن المصوِّر وأشار إلى نهلة وقال: «هذه تبكي».. وضعت نهلة يدها على وجهها واستغرقت ببكاء حارق.. بنشيج معذّب.. قال لها محمود: «لا عليكِ يا ابنتي».. قال حكمت: «لماذا تبكي؟ هل فعلتُ شيئاً». قال له حسن: «لم تفعل شيئاً يا حكمت؟».

قام محمود وأومأ لحسن وستّار أن يتبعاه.. وحسن يختار الفرص والمشاهد الملائمة ويُصوِّر.. ابتعدوا تاركين نهلة وحدها مع حكمت الذي بقي جالساً ينظر إليها.. وقفوا على مسافة تتيح لهم رؤيتهما من غير أن يسمعوا ما سيقال.. وقبل أن ترفع نهلة رأسها راحت تحرِّكه يميناً وشمالاً بإنكار.. كانت تلك علامة غيظ مكتوم، نفاد صبر ويأس، وإفصاحاً عن مرارة موجعة.

«عامر، ماذا جرى لك؟ ألم تعرفني؟ أنا نهلة».

«نهلة النخلة.. انظري إلى النخلة، قطعوا رأسها.. رأسكِ في مكانه».

لمّا أبانت نهلة عن وجهها ارتسم على محيّا حكمت تعبير غريب.. تكشيرة يمكن أن تكون أي شيء سوى أن تظنَّها ابتسامة.. شهقت وقالت:

«يا الله.. ماذا فعلوا بك؟ السفلة».

رمشت عيناه ولم يقل شيئاً.. قالت:

«انظر في عيوني.. انظر وحاول أن تتذكّر».

«عيونك.. كميلة.. عيونك».

«عامر، ألا تذكر.. كنت ترسمني.. كنا نخرج سوياً.. كنت تخابرني كل يوم».

« أنا حكمت.. عامر راح.. يخابرك الجنّي؟».

«أنت.. كنت أنت تخابرني».

«لا تلفون هنا».

«أتكلم عن بغداد».

«بغداد بعيدة».

«لا، بغداد قريبة.. ماذا لو تأتي معنا؟».

«لا».

« المنطقة خطرة، وأنت وحدك».

«معي الطيور والحمير.. معي نائل.. سآخذ هذا الطعام له».

«عامر اسمعني.. يمكن معالجتك، كل شيء ممكن».

«كل شيء، هه».

«أنت فنان.. أنت رسّام وشاعر».

«أنا.. لا شيء».

وأمسكت يده فانتزعها منها:

«لا تخف.. فقط اخرج من هذا الجحيم».

«الجحيم هناك».

«سآخذك إلى بغداد.. إلى المستشفى».

تراجع قليلاً زاحفاً على مؤخرته الضامرة، وقد لاح الخوف على ملامحه، وفي عينيه.

«لا تخف.. اسمع».

نهض وراح يخطو إلى الوراء.

«تريدين أن تحبسيني.. هه.. شمّاعية».

«أريد أن أعالجك.. سنعود مثلما كنّا».

همس كما لو أنه يدلي بعبارة سريّة خطيرة، ولم تكن واثقة من أنها سمعته جيداً:

«ارجعي للبيت.. ارجعي».

وبحركة سريعة استدار واقفاً فتناهب الشارعُ خطواته.. قامت نهلة وراحت تراقبه وهو يبتعد راكضاً حتى انعطف به مدخل زقاق على مسافة ثمانين متر أو أكثر.. ولم تشعر إلا والدموع تبلّل وجهها مرّة أخرى.. عاد الرجال الثلاثة إلى حيث تقف.. قال حسن: «لا عليكِ.. لنرجع».. قال ستّار: «على الأقل التقط بعض الصور للشوارع والبنايات».. قال محمود: «نعم،، علينا أن نلفّق قصة».

صعدوا السيارة عصراً.. تركت نهلة صندوق الفلين في مكانه بما تبقى فيه من طعام وشراب.. «سيعود ويأخذه».. لم يعترض أحد..

في الطريق والمساء يهبط سألها ستّار: «أهو قريبك؟».

قال محمود: «نعم هو قريبها.. من الأقرباء الأبعدين».

«لا فائدة».

بقيت واجمة.

«اللمبات محترقة».

لم يعلِّقوا.

وهي تغادر السيارة، قريباً من منزلها، قال لها حسن: «الأمور لا تجري دائماً مثلما نرغب».. قال محمود: «لا تفقدي الأمل.. ربما عادت إليه ذاكرته لأي سبب».. التفت ستّار برأسه إلى الجهة المعاكسة كي لا يضبطوه وهو يكشِّر ساخراً.

بعد تلك الرحلة

العالم يتداعى، هذا ما دار في بالِ نهلة، وقد استحال كل شيء في نظرها غريباً؛ ما يحيطها من أثاث، الستائر بلونها الأرجواني، دولاب ملابسها من خشب الساج بأبوابه الثلاثة، مكتبها الأبنوسي، السجادة الكاشانية المشتعلة بالأحمر، مرآة البوفيه البيضوية، صينية الطعام الذي لم تقربه على منضدة جانبية. وحتى وجودها هي هنا، في هذه الغرفة العلوية المطلة على حديقة في الليل بدا غريباً. واستدعت اسمها إلى ضفة رأسها، فكان غريباً هو الآخر، وكذلك صوتها وهي تجيب على إلحاح الخالة أم يعقوب: «ما أشتهي، شيلي الصينية»، وورود كلمات أغنية (يا طيور الطايرة) على ذهنها، رداء نومها الياقوتي، علبة سجائر «كنت» على طرف سريرها ذي الشرشف المزهر، مع القدّاحة بغلافها العاجي.. دخّنت سيجارة أخرى.. استلقت على ظهرها، تتقاذفها مشاعر متمازجة من الأسى والحسرة والأسف والخوف.. وعجبت أن تكون خائفة حقاً، وممَّ؟ وتفرّست في عقارب الساعة الجدارية.. عقرب الدقائق وهو يحبو على الميناء الناصع في حركته الأبدية العابثة، مع هذا السيل الرتيب من تكتكة خافتة، عنيدة، مصمِّمة. ولم تتنبّه لوضع العقربين الآخرين. لم تفطن أين هما. لم تتذكّر على أي الأرقام كانا

وهي تشيح بنظرها عن الساعة إلى السقف، بالأحرى إلى أذرع المروحة الغارقة، وهي تدور في دوّامة ضبابية. وتولّاها إحساس أن لا شيء يهمُّ في النهاية، لا أين نكون، ولا تحرّينا عن السبب، ولا حتى الوقت. فلا أهمية البتة إن كانت الساعة الآن هي العاشرة مساءً، أو الثالثة فجراً. وماذا لو عرفنا؟. وتأخذها تهويمات بياض السقف وهي تحاول أن تتذكّر أين قرأت عبارة (الزمن وهمٌ اختلقناه وصدّقناه)، في كتاب، أو سمعتها من أي أحد، أو هي من ابتكارها. وباغتتها رؤية أن تقف على حافة نُهير سريع الجريان في نهار صيف بعيد، مبرقش وسار.. قدماها حافيتان، مغروزتان في طين الجرف، والماء يداعبها.. الماء البارد الذي يغويها فتجلس، تضع مؤخرتها الصغيرة في دفق الماء.. يتبلل ثوبها الأبيض بوروده الصفر الناعمة وتحسُّ بالقشعريرة تسري في جسمها النحيل، في دمها ونخاعها. وتسمع صوتاً حميماً: «نهّولة، وسّختِ ثوبك».

«إنه في الماء، الماء لا يوسِّخ، ماما».

يضحك والدها ويقول لمضيّفه؛ الرجل الذي يرتدي الكوفية والعقال:

«إنها شيطانة ذكية»

«إنها ملاك يا أبا نهلة».

«الملاك والشيطان معاً».

يضحكان ويسيران نحو الحقول الخضر.. يقدم طفل في السادسة أو السابعة، دشداشته قصيرة متربة من البازة المقلّمة.. يخلعها، فيظهر عارياً تماماً.. يدخل النهر، يعوم وهي تنظر إليه على استحياء، وبشيء من الخوف والحسد.. يناديها: «تعالي».

«لا أجيد السباحة، سأغرق».

«ليس عميقاً، لن تغرقي».

تصيح: «بابا، لنأتِ إلى القرية كل أسبوع».

غير أن أباها الذي ابتعد مع الرجل بالكوفية والعقال لا يسمع.. تتراجع عن الجرف ملاحقة الطفل الذي يسبح عارياً، ويخطر لها أن تخلع هي الأخرى ثوبها.

تخلع ثوبها وتلج النهر الصغير بلباسها الداخلي الزهري.. يصل مستوى الماء إلى خصرها.. تجلس إلى أن يبلغ عنقها ويبلل شعرها الطويل المضفور. يرتعش جسدها الأبيض الدقيق فتقوم وهي تكركر.. يأتيها صوت أمِّها الواقفة مع جمع من النساء المتّشحات بأردية زاهية:

«اخرجي يا ملعونة، ستغرقين».

«لن أغرق».

تغمض عينيها وتغرق في هذه الجائحة المؤسية والمبلبلة المخلّفة من مشهد النُهير. ولا تدري إن كان ما جرى قد جرى في أي يوم. ولوهلة تستعيد عبارة (الزمن وهم اختلقناه وصدّقناه)، والزمان يتفتت أمام عينيها المغلقتين مزقاً مشبّحة، ودوائر تتفلّت وتضيع في سديم غامض.. ويدهمها سؤال؛ إن كانت هي هنا حقاً؟ وإن كانت هي هي حقاً؟ وإنْ كان العالم هناك، وراء هذه الجدران السابحة في ضوء النيون الذي يغشي عينيها حالما تفتحهما وهي تشهق؟.

* * *

في سيارة التاكسي أخرجت علبة سجائرها الـ(كنت) وأشعلت سيجارة.. التفت السائق إليها للحظة وهو يبتسم، ثم راح ينظر أمامه ويراقبها من المرآة.. قال:

«أنتِ تدّخنين».

«أيضايقك أن أدخّن؟ آسفة سأطفئها».

«أبداً.. فقط..».

«ماذا؟».

«ماذا تفعلين في الباب الشرقي؟».

«نعم؟ أتسأل كل راكب ماذا يفعل في المنطقة التي يذهب إليها؟».

«كنت أقصد أن الوقت ما زال باكراً».

«أتظنني من أولئك النساء الرخيصات؟».

«العفو.. فقط، كنت...».

«أنت خارج من أجل رزق عائلتك فلا تفكِّر بطريقة وسخة».

«لا تفهميني غلط».

«أنت الغلط».

«فقط أردت أن أمازحكِ».

«فقط اعتقدتَ أنني من ذلك النوع من القذارة لأنك رأيتني أدخِّن».

لم يحر جواباً.. وراحت هي تمصّ سيجارتها وتمجّ الدخان من

النافذة المفتوحة.. لمّا هبطت السيّارة من جسر الجمهورية ناولت السائق أجرة التوصيلة فمدّ يده لاستلامها من غير أن يستدير بوجهه نحوها.. نزلت أمام مكتبة (التحرير) وكانت ساعة الغروب.. دخلت مقهى الـ(كيت كات).. جلست قريبة من النافذة المطلّة على مدخل شارع السعدون، وطلبت قهوة بسكّر قليل.. حدست أن عيوناً فضولية تحدِّق فيها من الخلف فلم تأبه، وظلّت تنظر عبر الزجاج العريض إلى السيارات والمارّة، وترفع عينيها بين الحين والآخر إلى نصب الحرّية، تحاول فك رموزها، مركِّزة بصرها على القضبان التي تتقوّض بيد عسكري صارم الملامح.. موعدها مع الطبيب بعد نصف ساعة.. تشرب من كوب الماء وترشف من فنجان قهوتها على مهل.. يأتيها النادل الشاب ويسألها بتهذيب إن كانت بحاجة إلى شيء آخر.. تهزُّ سبابتها علامة النفي ولا تنطق. ومن حقيبتها تُخرج مجلة (المرأة) تقلِّب الأوراق، تقرأ العنوانات، ولكن لا موضوع فيها يثيرها.. تعيد المجلة إلى الحقيبة، ترغب بتدخين سيجارة، لكنها تخشى أن تتعرّض للتحرّش طالما هي وحدها.. لا تريد سماع كلمة نابية والدخول في مشادّة، بالرغم من أنها مملوءة بالغيظ.. لا تريد أن تنفِّس غضبها بصفع أحدهم.. لما تبقى من الوقت يأخذها ذهنها إلى البلدة (س).. تسترد المشاهد كلها، على شاشتها الداخلية، مشهداً مشهداً.. كأنها مصرّة على أن لا يضيع منها أيُّ تفصيل صغير.. ساعدها محمود الصحافي في كتابة التحقيق للجريدة، وقصدا معاً أن تكون لغته حيادية، لاسيما بما يتعلق بعامر.. وضعا بعض اللمسات المتخيّلة.. هكذا فسّر محمود تلكم المبالغات والرتوش عن الطائرات المغيرة والقصف والخوف، والركض في

دروب البلدة وملاحقة المدعو حكمت من بيت إلى بيت ومن زقاق إلى زقاق، وبين أشجار النخيل المذبوحة في البساتين.. صوّرا دمار البلدة بلغة سيّالة سهلة ومؤثرة، وحكيا قصة الهرب الجماعي من البلدة منذ اليوم الأول للحرب، وأدخل محمود مضطراً في نسيج نص التحقيق بعض الكليشهات الحماسيّة التي تفرضها سياسة التعبئة.. قال: «كي يوافق رئيس التحرير على نشره». أمّا الصور التي التقطها حسن فظهرت باهتة قليلاً لأن ورق الصحيفة غير صقيل.. كانت صوراً جيدة فحسن يمتلك حسّاً فنياً لافتاً في اختيار المناظر وزوايا التقاطها بالكاميرا كما اعترفت له.. رجتهم ألا يضمِّنوا التحقيق المنشور أيّة صورة لعامر، فأخفاها محمود عن رئيس التحرير ما عدا واحدة يظهر فيها راكضاً من بعيد. فلا تبين ملامحه ولا رثاثة ملابسه.. «أفهم شعوركِ». قال لها محمود فشكرته.. بقيّة الصور معها الآن في الحقيبة.. أحضرتها لتريها للدكتور راسم.

مع دخولها مكتب السكرتارية خرجت امرأة، وكانت آخر المراجعين المرضى، من غرفة الطبيب تضع يدها على فمها؛ عيناها محتقنتان ووجهها بلون الشوندر.. أدخلت السكرتيرة الشابة نهلة إلى الغرفة وهي تبتسم.. نهض الدكتور راسم خارجاً من وراء مكتبه وصافحها.. جلسا متقابلين على كرسيين من الاسفنج المنفوخ:

«لم تضطرّي لقطع تذكرة هذه المرّة».

«أشكرك لأنك خصّصت بعض الوقت لي».

«قرأتُ التحقيق».

«لم أرده هكذا».

«أفهم».

«لو تنظر إلى هذه الصور».

التقطت من حقيبتها حزمة من الصور وناولته إيّاها..

صورة أولى: حكمت واقف قرب سيارة الرانج روفر المغطّاة بالوحل.. جزء من قميصة متدلٍ خارج البنطال، وطرف من ياقته مقلوب، ينظر بتوجس إلى الكاميرا، تقدر أن تتكهن بأن نظرته برّاقة وإن لم تكن واضحة.. فيما الخلفية سماء مديدة.. التقطها المصوِّر وهو جالس.

صورة ثانية: حكمت جالس إلى جانب محمود، بيده ملعقة، وعيناه شاخصتان إلى الطعام، شرهتان، وحائرتان، وخلفه رصيف الشارع الرئيس في البلدة وكومة أنقاض، وباب متجر مخلوع من المعدن الفضّي المحزّز..

صورة ثالثة: فم حكمت مفتوح والملعقة المملوءة بالرز تصعد إليه.. عيناه مغمضتان.

صورة رابعة: حكمت قاعد في وضع الركوع، ربما ليريح قدميه، في يده زجاجة مشروب غازي فارغة.. نظرته خاوية، غير مهتم بالكاميرا، كما لو أن هؤلاء الأربعة الضيوف الذين لا يظهرون في الكادر لا وجود لهم.. فمه مزموم، ومن المستحيل التخمين فيم يفكِّر.

صورة خامسة: يظهر من حكمت جزؤه الخلفي.. إنه يركض هارباً.

يهز الطبيب رأسه ويعيد إليها الصور.

«ماذا رأيت؟».

«ماذا تريدينني أن أرى؟».

«أسألك.. ما رأيك؟».

«سأقول لكِ شيئاً.. سأتخلى عن حذري هذه المرّة وسأثق بكِ».

«ماذا كنت تظنني.. وكيلة مخابرات».

«لو كنتِ أُعتقلتِ بسببه».

«أنت الآخر».

«نعم، اعتقلوني بعده، وأطلقوا سراحي بعد ثلاثة شهور».

«لماذا أبقوه هو؟».

«من يدري.. ربما تصوّروا أنه عنصر معادٍ خطير.. أحياناً للمزاج دوره، أقصد مزاج المحقِّقين هناك.. أحياناً المصادفة، الحظ.. من يدري؟».

«نعم».

«سأفاجئك بأمرٍ آخر لم أعلمكِ به في زيارتك السابقة.. قبلكِ ذهبت إلى البلدة (س).. وجدته مع ثلاثة آخرين.. لم يعرفني.. أو لعلّه كان يمثِّل ببساطة.. بصراحة أنا لدي بعض الشكوك».

«أنا الأخرى بتّ أشك.. تراودني خواطر وأفكار.. أسأل إن لم يكن يمثّل علينا.. يضحك علينا.. ولكن لماذا؟».

«قد يكون يلعب لعبته.. لماذا؟ من الصعب أن نعرف.. أتراه يهرب

من خدمة الجيش بسبب الحرب.. ولكن هذا حاله قبل الحرب بسنتين.. أتراه يمارس تمرّده على العالم بطريقته الخاصة، ولكن في هذا كثير من الإذلال للنفس أيضاً.. أهو نوع من المازوكية في معاقبة الذات.. لم؟ ما السبب؟ أيرغب أن يكون حرّاً في هذا البحر من السوء والطغيان؟ ولكن أية حرّية هذه؟.. إنها مسألة مبدأ ربما».

«والثمن الذي يدفعه مقابل ماذا؟ أيستأهل مبدأ غامض مثلَ هذه التضحية الجسيمة؟».

«في ذهنه ليس غامضاً».

«نحن نفترض».

«صحيح، ولكن ماذا يسعنا أن نفعل أكثر؟».

«أن نحاول إنقاذه».

«كيف؟ ذهبتُ إليه أنا، وذهبتِ أنتِ.. أن نذهب مرّة أخرى سيجعلهم يشكّون».

«تخاف؟».

«وعليكِ أن تخافي أيضاً.. هو حتى لم يتذكّركِ».

«من يدري؟ آخر جملة قالها لي: ارجعي إلى البيت، ارجعي.. ربما عرفني لكنه يظن ألّا فائدة».

«وربما لم يقصد بها أيّ شيء».

«لِمَ علينا الأخذ بالاحتمال الأسوأ؟».

لم يحر الدكتور راسم جواباً.. امتد بينهما الصمت لدقيقة أو أكثر.. وراحت هي تنقر بأصابعها على حقيبتها الجلدية التي تضعها على فخذيها، وتدير رأسها لتعاين صورة توضيحية للحنجرة على الحائط.. قال الدكتور:

«أتعرفين ماذا كانت المفاجأة حين قابلته؟».

تنبّهت نهلة فالتفتت إليه وتوقّفت عن النقر على الحقيبة.. بدت متحفِّزة لسماع ما عدّه الدكتور مفاجأة تخص عامراً.

«دخلت غرفته.. هو لم يعرفني.. أو هكذا أوحى لي.. ظلّ يدخِّن ولا يجيب على أسئلتي.. بين فوضى أشيائه وجدت دفتراً تهرأ جلده.. بداعي الفضول سحبته.. لم يعترض.. كانت هناك خطوط متشابكة كثيرة إلى جانب كلمات.. ربما كانت الخطوط تعكس ما في ذهنه من تشابكات لكن الكلمات كانت شيئاً آخر.. كان يمتلك كما تعرفين بعض الموهبة في كتابة الشعر.. حين هممت بالمغادرة بعدما تملّكني اليأس قال لي؛ خذ الكتاب... كان الدفتر ما يزال في يدي.. قلت شكراً.. لم يقم لتوديعي.. ظلّ يدخِّن، لكنّني أقنعت نفسي بأن سفرتي هذه لم تكن بلا طائل. فقد حصلت على الدفتر».

أحضرت السكرتيرة كوبين من الشاي.. لم تعلِّق نهلة بشيء.. أخذت رشفة من كوبها وراحت تحدِّق في الطبيب كأنها تحثّه على الكلام.. قال:

«سأعطيكِ الدفتر.. هو يخصّكِ أكثر مما يخصّني.. اسمعي».

شرب قليلا من الشاي وراح يقرأ:

(سرّةُ الليل، نجمٌ وحيد، صوتٌ بارد، حلمٌ لاهث، حبٌّ باسل، روحٌ متشردة، اسمٌ لا معنى له، وحيداً بردانَ ألهث، وتشرّدي بلا بسالة، بلا معنى).

أكمل احتساء كوبه، زفرَ وقال:

«هذا ليس كلاماً مفككاً.. لو قرأتِ النص مليّاً لوقعتِ على نسيجها الواحد المحكم.. وهذا، أتظنّين أن عقلاً مخرّباً وغير متّزن قادر على إنتاجه».

«أنت تحيّرني».

«أنا الآخر حائر.. لو كانت الكلمات غير مترابطة، غير ذات معنى وبلا صور شعرية إذن لقلنا هو كلام مجنون.. خربشات مريض ذهاني. لكن تأمّلي الصور، الاستعارات، التراكيب، دوران المعنى.. لا أصدق».

«هذا ما أريد تأكيده، ولكن كيف لنا أن نعلم».

«ربما لن نعلم أبداً».

قلّب الطبيب بضع صفحات في الدفتر الذي ما زال يمسك به، وقال: «اسمعي:

(صوتُها نهر، صورتُها فاكهة، اسمُها نبع، نظرتُها عيد، ألو، الساعةُ هي العاشرة بعد منتصفِ الموت)».

أغلق الدكتور الدفتر ووضعه أمامه على منضدة المكتب، واستدرك:

«ركِّزي على عبارة (اسمها نبع).. اسمكِ نهلة.. معنى نهلة قريب من معنى النبع.. أنا أقول؛ إما أنه بارع في التمثيل إلى حدّ مذهل أو أنه في طريقه إلى الشفاء.. يخيّل لي أن عمليات معقدة تجري في ذاكرته.. المتواريات تطلّ أحياناً، أقصد ما يخفي اللاوعي من ذكريات وهواجس ومخاوف. ولكن ما يدهشني هو قدرته على خلق الاستعارات.. في رأيي أنَّ مثل هذه العبارات من المستحيل أن تصدر عن شخص ذهاني، أو يعاني من درجة شديدة من العصّاب».

«هناك شيء أشدّ هولاً في نصه لم تلاحظه».

«ماذا؟»

«المقطع الأخير

(ألو، الساعة هي العاشرة بعد منتصف الموت)

أتعرف أنه كان يتّصل بي بالتلفون كل ليلة عند العاشرة؟»

«أوووه».

هزّ رأسه مرّات بسرعة كمن يخرج من حالة غطسٍ في نهر ويحاول التخلص من فائض الماء في شعره وأذنيه.. قامت نهلة:

«أنت متعب، لذا لن أؤخرك أكثر.. ولكن أعيد سؤالي؛ ماذا لو نذهب إليه مرّة أخرى».

«أترجين أية فائدة من ذهابنا إليه مرّة أخرى؟».

«ليس أمامنا خيارٌ آخر».

«المشكلة أنه لا يريدنا أن نزعجه، وإلا لجاء برجليه إلينا.. هو ليس محبوساً».

«فكِّر بالموضوع وسأتّصل بك».

في المنزل تناولت وجبة عشائها نصف شطيرة بطاطا مقلية وقطع صغيرة من لحم الدجاج، مع كأس عصير، وانزوت في غرفتها تدخِّن.. كانت الساعة تقترب من منتصف الليل حين راحت تستمع لمحطة إذاعية تبثُّ موسيقى كلاسيكية.. كانت كونشيرتات مايكوفسكي تنساب بعذوبة حارقة حين فتحت الدفتر المتهرئ، وراحت تقرأ:

(الزرازيرُ تأكلها الظلمة، النارنجُ في الظلمة، البساتينُ أنين، قلبي دخان، وحلمي وردة، سماءٌ للزرازير، السماءُ والزرازيرُ تضيعُ في الدخان، نضيعُ في النسيان).

(روحي بلاد، بلادي شمس، الشمسُ تمشي في الحرب، الشمسُ تعطس، أبحث عن بلادي، الحربُ دخان).

(ستّةُ عصافير في السماء، ستّةُ رصاصات تطيشُ في الحرب، ستّةُ عصافير تنزفُ في البستان، البستانُ للحرب، حربُنا ليست لنا).

(امرأةٌ بعيدة، صورةٌ بعيدة، حلمٌ بعيد، وأنا بعيد).

(صوتُها نهر، صورتُها فاكهة، اسمُها نبع، نظرتُها عيد، ألو، الساعةُ هي العاشرة بعد منتصفِ الموت).

(مطرُ الرغبة، يا مطرَ الرغبة، يا مطرَ الرغبة، امسكِ الخطيئةَ من مخمَلها، الخطيئةُ رداءٌ أحمر).

(الريحُ دوّارة ساحةُ البلدة مفتوحة مفتوحة للسماء للمطر لضوءِ الصيف النازف لعرق الحرب).

(الصداقةُ أغنية، الحُبُّ بكاء).

(سرّةُ الليل، نجمٌ وحيد، صوتٌ بارد، حلمٌ لاهث، حبٌ باسل، روحٌ متشردة، اسمٌ لا معنى له، وحيداً بردانَ ألهث، وتشرّدي بلا بسالة، بلا معنى).

(أنتِ وحيدةٌ، في سفينة المجانين، أنا وحيدٌ، في زورق الله، أرحلُ جنوباً، ترحلينَ إلى الشمال، وكلانا يعرف أنه الاتِّجاه الخطأ).

(أنتِ يانعة، أنتِ عشب، أنتِ بيت، أنتِ دفء، أنا تائه).

(الطباشيرُ ترسمُ وجها، وظِّلاً، ومنفى، ترسمُ درباً لا يؤدي، ترسمْ حلماً يتلاشى في ضباب، ترسمني، فأختفي).

(البرتقالةُ عاريةٌ في البستان، الرمّانُ نهد، الدخانُ موت، الحائطُ يبحثُ عن ضوء، يبحثُ عن ظل، الفانوسُ يبحثُ عن قلمي، قلمي يبحثُ عن الله، قلمي يبحثُ عن كلمة، الكلمةُ هي الله، الكلمةُ هي أنتِ، الكلمةُ هي أنا، الكلمةُ هي الصداقة، صديقتي مطر، صديقتي نجمة، صديقتي ظلام، صديقتي تبكي، التقينا كي نفترق، افترقنا كي نبحثَ عن أنفسنا، أنفسنا عارية، في الظلامِ والموت، لا بستان، لا رمّان، لا نهد).

(على ظهري يرسمون خريطةَ البلاد، السوط يئنُّ، والألمُ يقفزُ من النافذة العالية، وهو يدخِّن، سيجارته مارلبورو، سيجارتي المفضلة سومر، خمرُه ماذا؟، خمري كفّك العرقانة في كفّي، ريقكِ يختلطُ بنخاعي، وردتُكِ الدامعة).

في ليلة باردة

يُشعل شمعة، يقرِّبها من وجه نائل الذي يزيده الضوء الأصفر الراجف شحوباً.. يميّل رأسه ويضعه على صدر هذا الكائن الثقيل المستلقي على ظهره كميّت. يتسمّع إلى نبضاته الواهنة. يجسُّ معصمه فتلهبه سخونة الجلد. يحاول بإصابعه الخشنة أن يفتح الجفن المغلق لعين المريض اليسرى، ولا يرى إلا بياضاً مصفرّاً.. يثبِّت حكمت الشمعة على طاولة خشبية قصيرة الأرجل، ويبلِّل فوطة قذرة بماء يجده في قعرِ إبريق، يمسح بها جبين هذا البدين المضعضع ورقبته ويديه وقصبتي ساقيه. ولنصف ساعة لا تهبط درجة الحرارة ولو قليلاً.. يتذكّر أقراص الباراسيتول التي أعطاها له العسكري المضمِّد في كيس نايلون صغير.. يعود إلى غرفته، ويبحث عن الكيس بمعونة مصباحه اليدوي الذي ضعفت بطارياته. وبعد وقتٍ يطول يعثر عليه في قعر حاوية الأرزاق الجافة الفارغة.. يرجع مع كيس الباراسيتول وزمزمية ماء.. يحاول أن يجعل نائلاً يبلع قرصاً مع جرعة ماء.. «ابلع، دوا يطيّبك». يسعل نائل قاذفاً القرص الأوّل مع رشقة الماء بوجه حكمت.. «طاح حظّك». يقولها حكمت بنفاد صبر، ويفشل مرّة أخرى في دفع القرص الثاني إلى بلعومه. لكن نائلاً يبلع القرص الثالث ومن ثمّ يسعل حد الاختناق، وتدمع عيناه.

يتنفس نائل بصعوبة.. يتنفس من فمه المفتوح، لسانه ممتد إلى الخارج، لكن لعابه لا يسيل على حنكه كما هي عادته.. صدره يعلو ويهبط.. يلفت انتباه حكمت للمرّة الأولى ذقن نائل الصغير، وصغر صيواني أذنيه وقصر أصابعه.. وإذ يرفع رأسه ليجعله يبتلع قرص باراسيتول آخر يلاحظ تسطّح قذاله.

يفتح علبة مرق الفاصولياء بالفتّاحة الروسية الخضراء الخاصّة بعلب العتاد الحربي.. يخرج ويلملم من الجوار حطباً نصف رطب يرشُّ عليه شيئاً من النفط الأبيض الذي يجده في قنينة بيبسي كولا، كان يحتفظ بها بعيداً عن متناول أيدي صحبه، ويشعله بعود شخّاط ليسخن علبة المرق.. وبلمعقة يمسحها بأطراف أصابعه ليزيل عنها بقية مرق يابس قديم يجبر نائلاً على الأكل.. بعد عدة ملاعق يتقيأ نائل وتزداد حشرجات صدره.. يهمس حكمت: «ولكْ لا تسويها وتموت.. اسمع». يتنحنح قليلاً ويشرع بغناء خافت: «نحن نحن كالزهور.. نحن نحن كالطيور». فيرى على فم نائل، أو يتخيّل، طيف ابتسامة.

يغرغر نائل.. يظهر على طرفي شفتيه زبد حليبي، فيكرِّر حكمت هامساً في أذنه: «ولكْ يمعود، بس لا تموت»، ويعود يغنّي: «نحن نحن كالزهور.. نحن نحن كالطيور». ويقوم إلى النافذة الحديدية المزجّجة فيفتحها.. يحسُّ بالهواء البارد النقي على وجهه. ويعود ليغطّي جسم نائل السمين واللدن ببطانيتين.. يكرع جرعتين من قنينة العرق التي في جيبه، ويخرج إلى ظلمات البلدة وزمهريرها.

في الشوارع الباردة الخالية وهو يجري بقدمين حافيتين تتجرّح

روحه بالقلق والألم.. يصل إلى الساحة الرئيسة عند مدخل البلدة.. يقرفص لاهثاً.. ومع انتظام أنفاسه يحتسي من قنينة العرق قليلاً ويدخِّن سيجارة.. يرى أضواء عجلةٍ بعيدة، ومن لونها الليموني المشع يعرف أنها مقبلة نحوه من خط جبهة القتال.. يقف في وسط الشارع فاتحاً يديه ورجليه وحلقه.. يغشي عينيه طوفان الضوء فيغمضهما، ولا يجبره الصوت الصارخ لاحتكاك العجلات المكبوحة بالإسفلت أن ينزاح عن موضعه قيد أظفر.

يهبط السائق من قمرته وهو يشتم.. يتقدّم نحو حكمت رافعاً يده بقبضة مضمومة، موشكاً على لكمه، لكنه لا يفعل.

«حكّو، خرا، كان سحقتك ومتت.. تريد تبليني.. مخبّل».

أنزل حكمت يديه إلى جانبي فخذيه، وقرّب ما بين ساقيه، وحدّق في وجه السائق، وقال:

«أحتاج سيّارة.. نائل ديموت».

«هي سيارة الخلفونا.. هاي سيّارة مال جيش.. تريد تحبسني».

«لازم يروح للمستشفى».

وضع الجندي السائق في فمه سيجارة، وأعطى لحكمت أخرى وأشعلهما بقدّاحة من البلاستك.. وقفا يدخِّنان بصمت حتى إذا انتهيا قال الجندي:

«عندك حظ، آني وحدي، ورايح لمركز المحافظة أجيب من المخازن مواد بناء ملاجئ.. راح أجازف وآخذ نائل للمستشفى. راح أقول لقيته بالشارع نايم على بطنه.. ههههههه».

لم يكن من السهل حمل نائل ورفعه إلى حوض عجلة الإيفا ملفوفاً ببطانية ثخينة. وبقي السائق يشتم طوال الوقت، فيما لم يجبه حكمت قط.. لم يقل سوى أربع كلمات لنائل بعد أن باسَ جبينه: «أرجوكْ أخوية لا تموت».

وقبل أن يصعد السائق ويجلس وراء المقود يقول:

«تعرف حكّو كم واحد بالقاطع يفكّر يخبّل نفسه ويجي يعيش وياك؟».

يقهقه، ويطلق كلمات بذيئة، وهو يشغِّل محرِّك عجلته وينطلق.

لوقتٍ غير معلوم يمكث حكمت في الظلام بعد اختفاء المصباحين الأحمرين لعجلة الإيفا عن ناظريه.. يغنّي بصوت راعش: «نحن نحن كالزهور.. نحن نحن كالطيور».. تلوبُ روحه بالأسى والعذاب، شاعراً كم هو نعسانٌ ومُتعبٌ ومقرورٌ ووحيد.

***

في اليوم التالي، عصراً، سيباغته الربيع والحرب معاً.. سيجعلانه يفقد صوابه.. الربيع وهو يلملم بقية طاقته دفعة واحدة ويحشِّدها لزوبعة ريح ومطر، أخيرة ربما. والحرب إذ تستعيد ساعة هياجٍ لامعقولة من غير سابق إنذار، وليست للمرّة الأخيرة بالتأكيد..

بشعور الغيظ يسرِّع حكمت إيقاع مشيه.. لا يكترث لألم باطن قدميه الحافيتين.. ولا يلتفت لما يترك من قطرات دم على إسفلت الشارع المحفّر.. ضربات عصاه المعوجّة من السعف اليابس، على الأرض مصمِّمة ودؤوب مثل فعل نقّار الخشب على جذع الزان في

غابات أحلامه المنسيّة.. لا يفكِّر بوجهة محددة، كما لو أن خطاه تحمله إلى حيث يرغب.. هدير الحرب يتخلل بحر النخيل فتطلق العصافير زقزقات ذعر وتنتحب الريح.. هي فاصلة جنون، من نوع لم يقدر أن يألفه قط على الرغم من استمرارها.. فاصلة تُصدِّعُ فسحته الأثيرة الهادئة. فيما الغروب يختنق بغيم أسود عظيم.. لهاثه المثلج يخدشُ حنجرته.. يسعل، يسمع خشخشة صدره تتضاد ومعزوفة القذائف التعيسة التي تنطلق أو تتساقط عند خنادق القتال. يترك الشارع المسفلت إلى دروب الحصباء.. تنزل به الدروب حتى يجد نفسه أمام القبور الثلاثة لصحبه الراحلين. يضيّق ما بين جفونه معايناً الحائط الطيني ولا يرى سوى بضع لطخات صغيرة من عبارته السالفة الحمراء؛ (بسبب الحرب مات راهي يا ملعون). يمسك العصا من ربعها الأسفل، ويشرع بحفر الحائط بطرفها الرفيع.. يُضاء ما حوله ببروق متتالية كأنها بصقات القدر، وتُرعد السماء.. خربشات عصاه على جلد الحائط لا يراها، لكنه يبقى يردد؛ (نحن، نحن كالزهور.. نحن، نحن كالطيور). ما يحفره سرعان ما يمسحه المطر المتساقط بغزارة.. يتراجع خطوة.. يهوي بالعصا، ممسكاً إياها من طرفها الرفيع، على الحائط.. ضرباته العصبية بالعصا تتلاحق، ومعها صرخاته المتحشرجة المكتومة.. ينكسر الجزء الغليظ من العصا. والجزء الذي يبقى في يده يرميه عبر الحائط إلى داخل البستان.. ينحني ويشيل الجزء المنحني الغليظ منها، وقد علاه الوحل ويرميه كذلك بالاتجاه ذاته. يقعد بين قبرين، في الطين، محدِّقاً، وقد أغرورقت عيناه بالدموع، في السماء المكفهرّة الممطرة.

***

العالم ارتج، كما في دماغه فقط، لذا لم يغادر سريره ليرى ماذا حدث خلف جدران غرفته.. اكتفى بإغماض عينيه وشمِّ رائحة البارود.

ركن إلى الصمت.. الصمت وحده؛ ذلك الفراغ المديد الذي يضلُّ فيه، حيث لا اتجاهات، ولا مقصد ينشغل بالوصول إليه.. لا مكان.. اللامكان ليس إلا.

كان صاحياً.. هذا الصحو المحض لا يغريه بالذهاب إلى نطاق آخر؛ لا تخيّلات، لا تذكّر، لا أوهام، ولا تصوّرات؛ أن تلبث خاوياً برضا، من غير سخطٍ، أو تذمّرٍ، أو نشوةٍ، أو التذاذ.

هذه السمفونية الصافية، الفاترة تركد، الآن، فيه، في روحه، فيتهيأ له وكأنه في حالة انحلال. في لحظة الانغمار بالعدم.

ما كان راغباً في الوجود، ولا حتى راغباً عنه.. كان في درجة الصفر، ولم يفكِّر بما يريد. فحكمت، في هذه الفاصلة من تاريخ الكون، لم يكن يريد أي شيء.. لا شيء على الإطلاق.

عشبٌ وأرنبٌ وماء

يمرُّ بشجرةِ صفصاف، يدور حولها معانقاً إيّاها.. يمرّ بنخلتين، يمسح على جذعيهما براحتيه.. العشبُ تحت عري قدميه تداعبه ريح خفيفة. والسماء فوقه انحناءة هائلة مفرطة الزرقة. وقدّامه الأرض المفتوحة المخضرّة الطريّة. فيما التلال القصيّة تتألق كصفٍ من دببة عملاقة جلست تتدفأ في شمس ما بعد الظهيرة.. تعبر قبيلة من طيور الزاغ لا يبالي بها كما لبضعة زرازير تتقافز، على مبعدة منه، بحثاً عن قوتها، وخلفها طائرا كركي يوشكان على التحليق.. يخطو سريعاً بإيقاع راقص.. يفرُّ الكُركيان والزرازير.. يُباغت بأرنب يثبُ أمامه.. أرنبٌ بلون العرق المخلوط بالماء.. أبيضٌ وخائف.. يركض وراءه.. يصيح ويصفِّق، ويناديه: «أرنب، ابن الكلب، لا تهرب».. ها هنا ينكسر محور في آلة الزمن. تحدثُ فجوة بيضاء.. يقول له الشخص: «أنت سريع مثل الأرنب». يصيح به صِبية أشقياء: «أرنب، أرنب». لم يعنه أن يعرف متى، وأين، وكيف.. في ذهنه أشياء أشدّ إلحاحاً.. تنفلق ثلاث قنابل في الأفق كقرع الصنوج.. يلتئم محور الزمن ثانية، ويغور الأبيض.. يفقد أثر الأرنب في مكان ما بين العشب.. يجلس بأنفاس لاهثة تتلاحق، وعينين تترقرقان بنعومة على سجّادة العشب.. العشب يهتز في الهواء الناهض، وفي صدره يفور حنين أبيض لا يدرك لأيِّ شيء.

وحشة الغروب تعيده إلى غرفته، وحاجته للعرق أيضاً؛ العرق الصافي غير المخلوط بالماء. يصعقه مرأى عجلتين عسكريتين خاصّتين للضباط إحداهما من نوع الرانج روفر، والثانية من نوع واز تقفان أمام دار الحاج مرتضى.. حولها ضباط وجنود.. يقترب منهم بوجه لا تعبير فيه.. يبصرونه في اللحظة الأخيرة، كما لو أنه شبح تسلّل من مقبرة وأمسى بينهم على حين غفلة.. يشهر اثنان سلاحيهما نحوه، فيسعل.. يقوده إلى غرفته، من غير كلمة، ضابطٌ برتبة رائد، مع جندي.. لا ينظر إلى بندقية الجندي المصوّبة إلى صدره.. ينظر إلى أشياء غرفته وقد تبعثرت. إلى قناني العرق الفارغة، وإلى زجاجة الفانوس المهشّمة، وإلى ملابسه وفراشه وبطانياته على الأرض، وقصاصات الجرائد والمجلات، وقد انتزعت من الجدران وتمزّقت.

«ليش؟»

«لا تسأل، أنا أسأل».

يسعل.

«اسمك؟».

«حكّو».

«حكمت»

«حكمت»

«أهذا اسمك؟».

«حكمت».

«من سمّاك حكمت؟».

«أنا»

يسعل، ويقول:

«حكمت».

«اسما أبوك وجدك؟».

«ماتا».

«اسم أمك؟».

«ماتت».

«من أي مدينة أنت في الأصل».

«حشيش»

«ماذا؟».

«أرنب».

أخرج الضابط هوية أحوال مدنية ودفتر خدمة عسكرية من جيبه.

«عثرنا عليهما في غرفتك».

«غرفتك»

«لماذا لا تعلن للناس اسمك الحقيقي؛ عامر حميد عباس».

«حكمت».

«الآن عرفنا حتى اسم أمك؛ هدية قاسم».

«ماتت».

«وأنك أعفيت من الخدمة العسكرية بموجب كتاب اللجنة الطبيّة المرقم كذا والمؤرخ كذا بسبب فقدانك لقواك العقلية».

«مخبّل».

ابتسم الضابط فيما انكمش وجه الجندي المُرافق الذي بدا على وشك إفلات ضحكة صاخبة، بيد أنه سيطر على نفسه تجنّباً للعواقب.

«وين جماعتك؟».

«ماتوا».

«كلهم».

«عبّودي».

«أنت قتلتهم؟».

«الحرب».

«وعبّودي»

«بغداد».

«هرب إلى بغداد؟».

«بغداد».

«لماذا لا تذهب أنت أيضاً؟».

«لا».

«ماذا تخفي عنّا؟ ما سرّك؟».

يرنو إلى الجدار خلف ظهر الضابط، ويهمس:

«عقرب».

«شنو؟».

«أسود».

يسعل ويكرِّر:

«عقرب».

«عقرب بـ...... أختك».

يشير حكمت إلى الجدار. يلتفت الضابط ويتراجع فزعاً.

يطلق حكمت ضحكة قصيرة، ويعاوده الوجوم.. يصفعه الضابط.. يجلس على الضلع المعدني الصدئ لسريره. ينكِّس رأسه واضعاً يديه على خدّيه.. يمسكه الضابط من شعره الطويل ويرفع رأسه.. يرى الدموع تلمع في عينيه:

«أشكُّ فيك وحق قُبيس.. أنت ممثّل حقير بارع».

لا ينطق.. يقيمه الضابط جارّاً إياه من شعره.

«سنعدمك هنا وسط البلدة».

«إعدام».

«أنت عميل للعدو».

«عميل».

«والله لو أجد أي شيء يدينك».

«واللهِ».

«قل كلمتين».

«الله».

«كلمة ثانية».

«إعدام».

«مخبّل».

«مخبّل».

يهزه الضابط من شعره بقوة.. يبين الألم على ملامحه الآخذة بالانقباض، ولا يتأوه.

«كلب ابن الكلب»

«أرنب».

يصرخ به الضابط:

«جاسوس».

فيصرخ هو:

«فانوس، جاموس، قاموس، ناموس، كابوس، باخوس».

يضحك الجندي حامل البندقية.. يغرق بالضحك، فيبصق الضابط الغاضب في وجهه، لكنه يظل يضحك.. يبتسم الضابط، ويهز رأسه، ويقول لحكمت:

«لن أتركك.. يكفي أنني أشكُّ فيك».

يغادر الضابط بعد أن يلقي من يده بالبطاقة ودفتر الخدمة العسكرية الخاصتين بحكمت على الأرض. يتبعه الجندي. ويبقى حكمت، مترعاً بالشجن وإحساسٍ بالغرابة، في الظلام.

في قلب تيّار الماء

لعلَّ غماماً في أقاصي الهواء ورائحة مطر.. يخرج حكمت من عتمة غرفته الرطبة، من فجاجة أمسه؛ من ذلك الليل والتباسه.. يغشي بصره ضوءُ وقت ما بعد الضحى فيغلق أجفانه ويفتحها مرّات، ويده تدرأ تساقط الضوء على عينيه.. يسّاقط الضوء على رسله بمزاج هادئ يثير الغيظ.. يدرك في خيط رفيع رقيق من الوعي أن أمره، الساعة، ليس على ما يرام.. ليس هو مثل كل يوم.. ينتابه شعور أنه ملقىً، عنوةً، في متاهة، إلى ما وراء مكانه المعتاد. لم يعنه أن يعرف أين هو كائن، وإلى أين عليه أن يمضي. تماماً مثلما في الأحلام.. تتخاطف ملامح كميلة أمام تكسّرات ناظريه، تطلُّ عليه من نافذة بعيدة لثانية أو اثنتين، قبل أن تُسدل الستارة الثقيلة الخضراء، ولا تفوه بحرف.. وهو سيهمس علَّ المرأة التي تبكي تسمعه: «ارجعي إلى البيت». غير أن رندة العمياء هي التي تقول: «دير بالك على نفسك».. فيرد: «ماكو فايدة، رندة». يحث الخطى قُدماً، لا يلوي على شيء.. خطواته متعثرة كما لو أنه ضُرب على قفا رأسه، فتغيرت فيه بفعل الضربة خطوط الصَدَع.. الألم هناك راسخٌ وثقيلٌ ومشعّ.. يدقُّ على المعدن الصدئ، هناك، فينزاح بعض من صدأ.. هناك حيث تتكشف تعرّجاتٌ وألوان، تتكشف مِزقٌ من صور غريبة، ومريبة،

فيخالجه سيلٌ من خوف وسيلٌ من شك، يجعله على غير يقين تماماً، مثلما أدرك للوهلة الأولى أنه، قسراً، ليس في مكانه المألوف، وأنه أبداً ليس على سجيّته.

أتى ليلة أمس على كل ما لديه من خمر ومن سجائر.. ربما غفا لنصف ساعة.. ربما استغرق في غفوات قصيرة كفجوات بين كل فاصلة صحو أو نصف صحو، وأخرى.. عندها كان يعاود الشرب ويدخّن ويئن مثل جريح حرب وحيد في الأرض الحرام.. لحيته طالت أكثر من أي وقت مضى، وما عاد يقصّ منها، بين الحين والحين، كما كان يفعل في الأشهر الخوالي. وهي قذرة لم يغسلها منذ ذلك اليوم، ذلك اليوم، ذلك اليوم.. لحيته شعثاء مغبرّة كمن لبث في غار معزولاً شطراً هائلاً من الزمان.. ورائحته، كما افترضَ، لا شك زنخة، مقرفة، منفرة بعدما كفَّ عن الذهاب إلى النهر.. كان يذهب إلى النهر مرّة أو مرّتين في كل شهر.. يختار وقت ما بعد الغروب.. كان يودع النهر شيئاً من وساخة جسمه ورائحته الكريهة وغبار أيامه.

يدركه الغثيان على حين فجأة، يأخذه بجماع روحه، وبما لبث راكداً من وعيه.

شرب نصف زجاجة من عرق هبهب، وثمالة متبقية في زجاجة ثانية، ودخّنَ علبتي سجائر سومر سن طويل، وأربعة سجائر عثر عليها في علبة ثالثة.. وقضم صمّونة عسكرية يابسة، وها هو على وشك التقيؤ.. وتملّكه العجب لمّا تذكّر أنه لم يتقيأ منذ أمد طويل. أو هو لا يتذكّر أنه تقيأ في أي يوم، بسبب شربه الخمر أو لأي سبب كان. غير أن معدته تتقلب الآن،

والبخار الحارق المقرف يصعد إلى بلعومه.. يتقيأ على حائط ما، وعلى الأرض لصق الحائط. ويرى، أو يتهيأ له أنه يرى، قطرات حمر، يخالها قطرات دم، ويشعر بالألم في معدته، وفي أحشائه كلها.. عيناه تجحظان، وخطواته تترنّح، وهو يسير قدماً.. يسير في اتجاه ما، كما لو أنه مدفوع إليه بقوة قاهرة مستبدّة، تستدرجه إلى مكان بعينه، وإلى مصير بعينه.. صورٌ مبهمة تمرق، تتلاشى. شظايا من مشاهد تنقذف من قيعان عميقة في لا وعيه، أو من مخيّلته المنفلتة. لا يدري، ولكن ثمة إحساساً بانهيارٍ مدوٍّ يستغرقه. والغبار ساكن، يشمُّ رائحته في ضوء الشمس المتبلد الآيل إلى السخونة.. قميصه متهدل بلون رمّاني كالح، أزراره مفتوحة كلها، وشعر صدره يلتم في فتائل، وبطنه ضامرة، والبنطلون يكاد ينزلق من فوق التكويرة الآخذة بالتسطّح لوركيه وردفيه النحيلين.. بنطلونه أزرق مخطط بأبيض.. خطوط طولية رفيعة بيض يحزِّزها بقع الوسخ. ورجلاه حافيتان بأظافر لم تقلّم منذ أشهر تخفي طبقة سوداء من القذارة، وقد تكسرت في مواضع والتوت أو نتئت.. يمشي إلى جانب حائط مدرسة هدّمت جزأه الأعلى شجرة توت عملاقة ساقطة، ربما بفعل عاصفة أو قذيفة مدفع.

يتهيأ له أن نتفاً من غيوم تعبر فوقه، بيد أنه لا يرفع رأسه.. لا يعنيه إن كان يومه صحواً أو ممطراً.. هذا أكثر شيء لا يهمّه الآن.. تصطدم قدمه بكتلة من الطابوق والجص.. ينحني ويمسُّ بأصابع يده أصابع قدمه المدماة ويشتم.. يشتم أحداً ما لا يحدِّده، ولا يعرف تماماً من يكون حقاً. غير أنه يتمادى في السباب واللعان، مستعرضاً قاموساً واسعاً فاحشاً وسيئاً من الألفاظ يتقلب في رأسه المصدوع، جالساً فوق كتلة

الطابوق والجص. ثمّ يشرعُ بالترنّم بصوت مشروخ، كما لو أنه مُنشدٌ في جوقة خاصة بمعبدٍ بدائي.. يقوم ويستأنف مشيه بعرج خفيف هذه المرّة، والألم ينبض في عظام رجله اليمنى.. يعبر في ظلال البيوت الواطئة زقاقاً ضيّقاً، تتوسطه حفرة متفحِّمة الحواف تركتها قذيفة مدفع، ربما من عيار 175 ملم.

مثل برق يخطف على مدى ليل ذاكرته تتجلى صورة بشرية؛ قوام أنثى يخطر في بريّة جرداء.. بريّة بيضاء؛ ثلجٌ أو رملٌ أبيض، ضباب خفيف كأنه شذرة من حلم هاربٍ بعيد.. حلم طفولة يسقط من سماء دخان إلى بحرٍ يوشك على الهيجان.. بحرٌ يتململ وينذر بالانفجار.. يقف في ظلٍّ نخلة أثخنتها الشظايا، غير أنها ما تزال مثقلة بالسعف الأخضر، وعذوق التمر اليابسة التي لم يجنها أحد، فيصرخ بها: «ارجعي إلى البيت، ارجعي».. يرفع ناظريه خارجاً من حلمه إلى كونٍ من دوائر فضّية تتهاوى وتتبدّد شيئاً فشيئاً قبل أن يلقى مداراً عكراً هائلاً، قوساً منقبض الزرقة، مصمّتاً. ويحسُّ بالعطش.. عطشه وجعُ جرحٍ، اشتهاءٌ لاظٍ للماء.. يستعيد في ذهنه، في زاوية شبه الوعي صورة قوام المرأة يسير متنائياً إلى أفق لا يبين.. ويجلس، يدعك فروة رأسه، يدعك شعر صدره وأسفل بطنه والعطش يحرقه.. تمضّه الحاجة إلى الماء ليبلّ روحه.. يلتفت بحثاً عن طائر ما أطلق زعيقاً، ربما من فوق النخلة، أو من وراء ذلك الحائط المهدّم، أو من السماء المفتوحة. والمرأة ما تزال تمشي الهوينا في مسقط ضوء البرق الذي يتوالى فيراها من خلل عطشه الماحق، ولا يأبه لطائرتين تخرقان حاجز موات البلدة في هذه الساعة المعلّقة من ظهيرة الحرب.. يصعد على أكوامٍ تعلو وتنخفض،

هي من بقايا بيوتٍ قصفتها الطائرات.. يرى من بين الأنقاض صحون خزف محطّمة، وخشباً مسْودّاً متكسِّراً، وكتباً محترقة... يلتقط نصف ورقة ناجية. وعبر الغشاوة الموجعة لعينيه يفلح في قراءة بضع كلمات وعبارات متناثرة، لا يقع على سياق ورودها، ولا يدرك معناها، هكذا، فتبقى كلمات وعبارات مجرّدة في ذهنه؛ (الريح، على القلوع، الخليج، جوابو بحار، الرمال، الغريب، يصعد من نشيج، صوتٌ تفجّر في قرارة نفسي الثكلى..).. يطوي نصف الورقة بعناية ويضعها في جيب قميصه ويكمل سيره، وقد خلّف الأنقاض وراءه، وصار في الأرض المشرعة على لا نهائيةٍ ما. يدوس بقدميه الحافيتين على النباتات الشوكية التي انتشرت في مساحة بحيرة شاسعة بلونها الأخضر المغبر.. يجعله الألم الأصم لوخز الأشواك في باطن قدميه يسرع الخطى ويلهث، ويتهيأ له للحظة أنه الكائن البشري الوحيد في هذه الفلاة، أو في العالم. ويخطر له أنه ربما كان في عالم آخر ولجه بطريقة ما، بالحلم أو الموت، أو بقوة خارقة قذفته إلى حيث ابتدأ جولته الكئيبة هذه، مستدرَجاً تحت تأثير سلطة قاهرة متحكِّمة. وها هو يركض، ويعرف أنه ليس بإمكانه التوقّف أو الرجوع. ويتجلى له مرّة أخرى مشهد المرأة بقوامها الفتي تنوس عبر تهويمة متنائية كما في وداع أبدي. يركض كما في شسع طفولته، في الزرقة الماطرة. كما لو أن كل شيء رُتِّبَ ونُظِّمَ من أجله في هذا الكون كي يكون فيه هنا وهناك الآن وفي أيِّ وقت.. تنبثق فيه غبطة كثيفة لكن عابرة سرعان ما تكتسحها ريح ما تجعلها هباءً مبقيةً ذكرى مذاقٍ تحت اللسان وفوق الحجاب الحاجز، في القلب والرئتين، ومع الدم والشهيق.

يألف آخره يركض مع آخرين على ضفة نهرٍ قديم. يستدير أحدهم

مقترباً من الجرف. يتبعه ثانٍ وثالث، ويكون هو الأخير، يُسقطون واحداً وراء الآخر أجسامهم النحيلة الصلبة في الماء. ويتعالى صياح، ويطلق صبي، هو أقصرهم طولاً، كلاماً يقطر بذاءة، يردُّ عليه صاحبه بما يدخل في خانة العيب، ويكركرون مثل سربٍ من طيور السنونو، ويخرجون، ويخرجُ آخره مع أقرانه من بهجة الظهيرة. يصير آخره هو ويختفي الأقران في دروب الزمان.

يألف نفسه مستوحداً، هذه المرّة، تقوده الوحشة دائساً على النباتات الشوكيّة، بعيداً في الوجع والحيرة، وفي السؤال؛ من يكون حقاً، وكيف؟. ولماذا هو الآن هنا وليس في أيِّ مكان آخر؟.

ها هو النهر. يقف على حافته في المنحنى حيث يتسارع التيار ويثرثر ويتلامع في لانهائية الألوان في غدوه ورواحه كما لو أن قلب النهر هنا في نبضه، مع نبضه، يلتمُّ على تاريخ من لا يُحصون من العابرين والغرقى منذ ألف سنة.

لا يكترث لأزيز قذيفة مارقة، ولا لصوت انفجارها العارم على مبعدة مئة متر أو أقل قليلاً.. لا يأبه لأزيز قذيفة ثانية ولا لدويّ انفجارها على مبعدة خمسين متراً أو أقل قليلاً.. ولم يكن ليكترث لأزيز قذيفة ثالثة ولصرخة انفلاقها المرعبة على مبعدة عشرين متراً أو أقل قليلاً لولا أنْ باغته عصفها وحمله مثل ريشة طائر السنونو لينكبّ على وجهه في النهر، في قلب تيار الماء، عند المنحنى، فغاص ومن ثم برز رأسه يطلُّ من أسفل، عبر عينين ذاهلتين، على جبل دخان أسود.

كان جسمه واهناً، مصدوماً.. انزلق قريباً من الجرف وتشبّث بأغصان

شجيرة صغيرة مائلة على الماء.. فكّر أن هناك من يسعى ليصرعه ولم يفقه سبباً لذلك المسعى غير المعقول.

رأى منارة الدخان، ولمح في اللحظة الأخيرة شريطاً أحمر يضرِّج صفحة الماء ويلتف مغادراً مع التيار.. أغمض عينيه وأصابعه ترتجف وهي تمسك بالأغصان.. أحسَّ وكأن جسمه الضعيف المقرور لم يعد له، غير أن دوّامات من ضوء راحت تشعشع في رأسه.. كأن الشمس تقصده وحده بطوفان أشعتها وحرارتها القاسية.. تنصبُّ عليه دون الكينونة كلِّها، تُظهرُ لعينٍ افتراضية رحيمة مشفقة، في السماوات القصيّة، ما يعلو نصف جذعه الطالع من قلب الماء. تلسعه الشمس، تمازحه، تناكده، تتلاعب بظلِّه القصير على تموّجات النهر. ولا شيء آخر.

رأى آخره يجلس ناظراً أمامه وفي يده فرشاة مبلّلة بمزيج ألوان غريب يرسم على لوحة كبيرة بين آخرين مثله ينظرون إلى الجهة ذاتها ويرسمون.. لم ير الموديل لكنه التقط خيط الشغف يتألق في عينيّ آخره وأصابعه الفرحة الواثقة ترسم وجه أنثى يفصح عن جمالٍ نادرٍ وعذوبة.. رذاذٌ من العذوبة ينهمر على خريف روحه. أصابعه ترتخي. يشتعل الألم فيه، في أحشائه. يتسع الشريط الأحمر على صفحة الماء ويلتفُّ ماضياً مع التيار.. يغمض عينيه بعضَ الوقت فيغور الشريط الأحمر. وهناك، في ما وراء كل ما هو كائن، يبصر في جزء من الثانية وجهها في بهاءِ نورٍ خاطفٍ تجلسُ قبالته وتبكي.. ولأول مرة منذ زمن بعيد يسري فيه شعورٌ أقرب ما يكون إلى دفقٍ كاوٍ، شديد الفتنة والغموض، قوامه اللوعة، وإنْ خالطها شيءٌ من الخوف، فبدا (ربما أمام عين الرب) كمن تملّكه على حين فجأة رؤيا قدّيسٍ مخذول. ومرّت بخاطره فكرة أن الأوان قد

فات.. انجلى الدخان، لكنَّ جداراً من ضوءٍ برّاق تراءى له، راح يرتجُّ في المكان عينه.. ظهرَ بعلوِّ مترين، نصف شفاف، كشرشفٍ عريض منشور، يداعبه هواءٌ رخي..

ترتسم له خلل غشاوة ناظريه صورة رجلٍ يركض باتجاهه، كتلته أشدَّ كثافة من جدار السراب.. يخيّل إليه في البدء أنه الحاج مرتضى.. تختلج شفتاه: «خالي الحجي».. ومن ثمّ يظنّه الدكتور راسم.. «لا، هذا مو الدكتور راسم».. يتمتم: «ولكْ عبّودي، اشجابك؟».

أخيراً حين تتخذ الكتلة الراكضة نحوه، والتي ما زالت على المسافة عينها منهُ، شكل امرأة، يحسبُ أن الأمر لا يعدو كونه تهيؤات خدّاعة، فتنغلق أجفانه.

تنتزع الشجيرة نفسها من بين أصابعه وتدعه لمشيئة التيار ليرحل معه.. ينزلق وكأنه يُسحب بشريط الدم المتّسع على صفحة الماء بعيداً نحو جنوب الشمس. يذهب خوفه، يتلاشى هكذا، أو يكون نسيه وما عاد يهتمُّ به.. تتولاه نشوةٌ مظلمة رائعة حارّة يذعن لها. يستسلم لسطوتها. تُذيبه. تُذوِّب روحه كقطعة حلوى في فم طفل جائع. وقبل أن ينغمر رأسه في الماء تماماً يهمسُ بصوتٍ دافئ، مفعمٍ بالانشراح، بكلمة، لن يسمعها أيُّ أحدٍ في العالم..........

انتهت

إشارات:

عرق هبهب: نوع من العرق المحلي الرديء كان يُقطّر في بلدة (هبهب) التي هي من مناطق محافظة ديالى في العراق

الصمّون: الخبز

ليش: لماذا

منو: مَن

الشمّاعية: منطقة في بغداد فيها مستشفى الأمراض العقلية

قوري: إبريق الشاي

ناصية: واطئة

الهبر: اللحم الخالي من العظم

الفافون: الألمنيوم

اشلونك: كيف حالك

هماتين: كذلك

فيوز: فاصمة تستخدم في الأنظمة الكهربائية للحماية من التيار الزائد

نغل: ابن حرام

دولمة: محشي ورق العنب

صاغ: لا عيب فيه

ماكو: لا يوجد

دالية: بستان صغير

إنجانة: صحن كبير

سطعش: ستة عشر

الحِب: إناء كبير من الفخار كان يستخدم لتبريد المياه صيفاً قبل أن تحلّ البرادات الكهربائية محلّها.

امجدّي: متسوِّل

زعاطيط: أطفال

الجام: الزجاج

دوشك: مرتبة السرير

السرسرية: تُطلق على قليلي الأدب

الشخّاط: أعواد الكبريت

رقّي: البطيخ الأحمر

وكت: وقت

انعل: اللعنة على

الجابها: الذي أتى بها

برياني: أكلة عراقية مكونة من الرز المحشو بالبزاليا والكشمش واللوز والبطاطا المقلية وقطع لحم صغيرة، مع بهارات خاصة.

بُطل: قنينة زجاجية

طوبة: كُرة

اشوكت: متى

تحبسني: تسجنني

طنطل: عفريت

عبد الشط: شخصية خرافية من القصص الشعبي العراقي

ابشنو: بماذا.. بأي شيء

شنو: ماذا

مو: ليس

اشجابك: ما الذي جاء بك؟

الفهرس

تمت

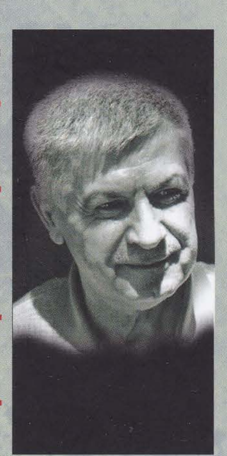
10/1/2018

فُسحة للجنون

لن يبقى في البلدة (س) الحدودية بعد نشوب الحرب سوى حكمت بروحه المتمرِّدة وذاكرته الخربة وجنونه. وهناك تحت طائلة القصف والجوع والخوف سيُخبِكُ فصولاً مثيرة من قصّته مع حيواناته، ومع صحبه ممن يشبهونه ويلحقون به، هاربين من العالم ولائذين بمملكته.. وسنعرف بأن حكمت لم يولد هكذا، هو الفنّان العاشق، وأن ما رسم مصيره التراجيدي، بالرغم منه، كان شيئاً ظالماً، قاسياً، ولئيماً، حيث يتعاشق تاريخه الشخصي مع تاريخ البلاد..

(فُسحة للجنون) كما صاغها مؤلفها؛ سعد محمد رحيم، هي دراما ممتعة وحزينة في الوقت نفسه، تحبس الأنفاس، عن الحب والصداقة والاضطهاد والعنف والكفاح من أجل حياة مختلفة.

الناشر



سعد محمد رحيم

- حائز على جائزة الإبداع الروائي في العراق لسنة 2000 عن روايته (غسق الكراكي).
- حائز على جائزة الإبداع العراقية في القصة القصيرة لسنة 2010 عن مجموعته القصصية (زهر اللوز).
- حائز على جائزة كتارا للرواية العربية لسنة 2016 عن روايته (ظلال جسد.. ضفاف الرغبة).
- وصلت روايته (مقتل بائع الكتب) للقائمة القصيرة لجائزة البوكر العربية العالمية لسنة 2017.

تصميم الغلاف ناي دزاين (ستار نعمة)

سطور للنشر و التوزيع

دار سطور للنشر والتوزيع
بغداد ـ شارع المتنبي ـ مدخل جديد حسن باشا
هاتف: 07711002790 - 07700492576
e.mail: bal_alame@yahoo.com


ISBN 978-1-7732242-1-3
9 781773 224213